مروان الغفوري

خمس منازل للّه وغرفة لجدّتي

رواية

دار الساقي

خمس منازل للّه
وغرفة لجدّتي

مروان الغفوري

خمس منازل للّه
وغرفة لجدّتي

دار الساقي

هذا الكتاب مُجاز لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، الرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم تشتره لاستخدامك الشخصي، الرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية، 2025

الطبعة الإلكترونية، 2025

ISBN-978-614-03-0362-1

Published 2025 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi

Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP

T: +44 (0) 20 7221 9347

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

www.saqibooks.com

@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

حجبهم بالاسم فعاشوا،
ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا.
الحلّاج

لا يعلمُ أبي
ولا حتّى أمّي
أنّي كتبتُ هذه الحكاية.

منازلُ الله

1

كان المسجد عند سفح التلّ، ولم يكن للتلّ من اسم. للمسجد منارةٌ عالية يُقال لها منارة المجذوب، تيمّناً بالتائه الذي رآها في منامه قبل أن يراها الناس. وكان الحيّ في مسيسِ الحاجة إلى مسجد ولو بحجم راحة اليد. فالناس هناك كلّما أداروا ظهورهم للشمس يجدون الجبل أمام أعينهم. وكان الحيّ منبسطاً وسهلاً كأنه خرج لتوّه من كتاب أو معاهدة. ولولا الظروفُ، يقولون، لاتّسع للبشرية كلّها.

كان الأخ يونس، الذي يلبس نظّارة قديمة، مؤذّناً للمسجد. وكانت لحيته تطاوعه عدا في بقعة صغيرة إلى الجهة اليسرى من ذقنه. قال إنه جرحٌ حدثَ في طفولته حين أراد قتل علي بن أبي طالب. نهرَته أمُّه آنذاك، ولا تزال تنهره كلّما سنَحت لها الظروف:

”أيش قال لك قرينك؟ تقتل علي بن أبي طالب؟“.

ترفع الأمّ يدها إلى الأعلى حين تلفظ اسم علي، ثم تخفضها. وأحياناً تبقيها هناك إلى حين فراغ ابنها من لوم بجّاش الذي لعب دور عليّ وغش في اللعبة. لم يفهم الأخ يونس كلام أمّه حتى صار في الإعدادية. تركت تلك القصة أثراً في روحه ودفعته للخشية من التاريخ. وعندما تعددت الطرق أمامه اختار أن يكون مؤذّناً. كان يقول إن المؤذّن يعيش في مكان من الدنيا لا هو من الماضي ولا هو في المستقبل.

بقي اسمُه الأخ يونس وسيُنادى عليه يوم القيامة: ليتقدّم الأخ يونس. سيتقدّم الأخ يونس، سيقع الكتاب في يمينه، وسوف يقول نُكتة عن الأمويين. ستضجّ أرض المحشر بالضحك. يمنّـي نفسه، قبل كلّ شيء، بضحكة راضية على فم الربّ.

الأخ يونس يحبّ النّكات، وهو يختلف كلّياً عن أي أخ يونس في الدنيا، ونكاته يصنعها بنفسه. حفظتُ منه العشرات. على من سيضحك الأخ يونس؟ على من حوله. كان يشطرهم إلى فريقين: من يستوون خلف ظهره للصلاة، وكان يسمّيهم العباسيين، ومن يقفون أمام دكّانه، وأولئك هم الأمويون.

ظنّ أن الله هو من يصنع له النّكات. كلّ شيء بالتوفيق، يقول، والتوفيق هو الله. لم أرَ أحداً شديدَ القرب من الله مثل الأخ يونس، ولم يكن ليصل إلى المكانة تلك عن طريق العبادة أو التأمل. كان يضحك عالياً، يملأ المدى بضحكته، وكان ذلك هو القُرب.

ضربه الحزن في نهارٍ ما حين قال نكتةً سخيفة في حافلة. آنذاك قال الأخ يونس لنفسه لو أن الله هو من يصنع له النّكات لما بدا تافهاً إلى ذلك الحدّ. ثم أصبح مؤذّناً وحارسَ مسجد ولم يتوقف قطّ عن ترديد النّكات. أفضلُ نكاته كانت عن الأمويين، وهم حيّ قريب من مطار المدينة القديم. ما من أحد يناديهم بالأمويين عدا الأخ يونس. أما عن العباسيين فإن نكاته تكون حذرة، فالمرء لا يدرك الحدود كلّها، لا متى سيضحك الرب ولا أين سينقبض الفؤاد.

وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ترك الأخ يونس مسجده في حيّ الضّحى وذهب ليؤذّن في مسجدٍ بالمدينة القديمة يبعدُ بضعة

كيلومترات عن دكّان والدِه. كان مسجداً للسلفيين، وقد أعطوه تلك الفرصة بمحض القدَر، بعد أن سمع أذانه رجلان أو ثلاثةٌ منهم. في المسجد الجديد صار للأخ يونس كُنية، ولم يعد أحد يناديه بالأخ يونس إلّا بعد أن يجتاز الباب الغربي لمدينة تعز ويرى الشفق.

حين رأى أول حشد من السلفيين لأول مرّة أدرك أنه قد توغّل في الماضي أكثر من اللازم، وراح يتحسّس الجرح على خدّه. ثم قال لنفسه إنه جاء ليؤذّن، وإنه في نهاية المطاف مجرّد رجل يقول الصلاةُ خيرٌ من النوم.

توقّف، وقد صار سلفيّاً، عن ترديد النكات أمام الناس. ثم عاد إليها خلسةً دون الإشارة إلى الأمويين. قيل له في مكانه الجديد "أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا". وقيل له: "ويلٌ للذي يحدّث فيكذِب ليضحك به الناس". وقيل له أكثر من ذلك. وكلّها نصوصٌ يعلمها الأخ يونس حقّ العلم، وما كان يدري أنها قيلت فيه. لو توقّف الأخ يونس عن ترديد النّكات سيتوقّف عن الأذان، وسيجد له عملاً آخر. لو ذهب الأخ يونس إلى آخر الدنيا لوجد الأذان، ولما وجد عملاً آخر. سمع في السوق رجلاً: "ما تبحث عنه يبحث عنك"، فكتب العبارة على جدار دكّانه من الداخل.

"إمّا أن يقبلوني كما أنا وإمّا سأجلس في دكّان أبي وأؤذّن للزبائن"، تبرّم الأخ يونس. خرجت منه الكلمات بالقرب من رجل يُدعى أبا والية، ويبدو أن كلماته آتت أكلها. هذا ما قاله لي. وأبو والية كان سلفيّاً قديراً، بمستطاعه أن يأتي بالتفسيرين والثلاثة لكلام النبي حتى يسمعَ طلّابَه يغمغون: كذا تمام.

لاحظ أبو والية أن السلفيين صاروا يتداعون، مثنى وثُلاثَ، إلى نكات الأخ الجديد بعد أن أخفى العبّاسيين ووضع آخرين مكان الأمويين. كانت نكتة الموسم حين قال لإخوانه السلفيين وهم يتذاكرون بين صلاتَي المغرب والعِشاء: "وقف رجلٌ من جماعة التبليغ وألقى موعظة عن الدعوة إلى الله مردّداً حديثاً في الخروج. سمعه أخٌ سلفيّ كان بين الحاضرين فصاح بصوت عالٍ: هذا حديث ضعيف. فما كان من التبليغي إلّا أن قال وهو يبتسم: إذا خرجت معنا سيصبح الحديث قويّاً بإذن الله".

نالت النكتة استحسان قوم أبي والية، وصاروا يعيدونها على أنفسهم وقد وضعوا الصوفيين مطرح التبليغيين. قال لهم أبو والية: هكذا نخرج من دائرة الإثم.

كنّا نصدّق الأخ يونس.

كان يؤكّد لنا، قبل تحوله إلى السلفية، أنه سيُؤتى كتابه بيمينه. سمعه عبد الله البعداني وهو يحمل الشاي على مهل، كأنه يمشي على زجاج مكسور، ولم يقلْ شيئاً. البعداني رجلٌ عرَفَ الله في القرية، وبعد سنوات من العمل في الكفتيريا أدرَك النّاس. انقبض قلب الأخ يونس، والرجلان صديقان تجمعهما أشياءُ كثيرة حول الله والدنيا. عاد البعداني وفي يده صينية عامرة بأقراص الزلابية. تبادل معنا النظرات دون أن يحرّك شفتيه. غير أنّ الأخ يونس سمعه يقول وهو يمنع قرصاً من السقوط: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا}.

ليس كلُّ ما يسمعه الأخ يونس كنّا نسمعه. اكتسب تلك الموهبة، يقول، من كثرة الخُطى إلى المساجد. كان يعدّ خطاه، وقد حسبها على الله.

كان الأخ يونس يعشق القرآن ويخاف منه. وكان يقول إنّ المتمعّن فيه سيفجع نفسه. لم يعُد يتمعّن في القرآن، يقرأه وحسب.

"وكيف تقرأه؟"، سألته.

"أرتّله".

يكمل:

"القرآن كتابٌ بديع يا أخي. إمّا أن تتمعّن فيه وإمّا ترتّله. إذا رتّلْتَه ضاع معناه، وإذا تمعّنْتَ فيه ضاع صوتُك".

ثم يقول شارداً:

"وستعرف الأرض التي ستموت فيها".

أذّن الأخ يونس ثلاثة أعوام متتالية في حيّ الضحى قبل أن يتركنا إلى مسجد المدينة القديمة. دعاني لأؤذّن معه. كان يعلّمني ويقول: "عليك أن تتذوّق أشهدُ ألّا إلهَ إلّا الله. تذوّقْها ولا تلحّنْها. لحّنْ باقي الأذان ولكن ليس الشهادة. دَعِ الشهادةَ تخرج وحدها كأنك تكلّم أمّك".

كنّا نؤذّن، وكان يونس معجباً بمعرفتي في الإعراب، تحديداً إعراب القرآن. لاحظْتُ أن سرّ ولعه بالنحو هو خوفه من النص نفسه، من التأمّل في المعنى. أحبَّ الحياة على سطح الكتاب، وأرضاه ذلك كمؤذّن. كان يعود في المساء، قطرات العرق مرصوصة على الجزء العلوي من جبهته، وقدماه جافّتان. وإذا لم يجد ما يفعله كان

يستلقي في الغرفة التي بالكاد تتسع لشخص ثالث، يضع كفّيه تحت رأسه وينظر إلى السقف كأنه يقرأ شيئاً ما، ثم يسألني: "أعرِبْ لي هذه الآية".

كان يقضي النهار في دكّان قريب من حيّ الأمويين، بعيداً من مسجده. وبالرغم من أنه كان مسؤولاً عن مسجد الحيّ، لم يكن يؤذّن سوى الفجر وربما العِشاء. الأمويون زبائنُ دكّانه. وهم جماعة من الناس ليسوا بالطوال ولا القصار وأغرب ما فيهم أنهم يشبهون سائر الخلق. يقتربون من الدكّان مثنى وثُلاثَ، يلقون السلام على الأخ يونس ثم يطرحون عليه السؤال نفسه: أين أبوك؟ يردّ يونس عليهم التحية، يطيلها ويتحكّم فيها: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته ومغفرته وتحياته ورضوانه وعفوه وحلمه. يلحّن التحيّة وهو يمسح نظّارته مانحاً الأمويين الوقتَ للتفكير في مرادهم.

لا يعرف الأمويون ما إذا كان للأخ يونس أبٌ، وما إذا كان أبوه على قيد الحياة. وفي الغالب لا يعرفون ماذا يريدون من الدكّان. غير أن الأخ يونس يعرف ماذا يريد الأمويون، وحين يغادرون يبدو عليهم السرور والرضا فيجلس الأخ يونس يتأمّل مؤخّرات رؤوسهم إلى أن تتلاشى وراء محطة البنزين على الجهة الأخرى لدكّانه.

رأيتُ الأمويين مرّتين أو ثلاثاً. دعاني الأخ يونس ليُريني مؤخّرات رؤوسهم. وعندما تلاشوا بين الناس والعربات مسح الأخ يونس نظارته وهو يتمتم: "شفت كيف؟".

كان صديقُنا عرفات يزورنا دائماً ويؤذّن معنا، وإذا تأكد أن أذانه كان رائعاً يدعونا إلى العشاء أو الإفطار على حسابه. ولكن كيف كان الأخ عرفات يتأكّد؟ الحقيقة أنه كان يعُدّ المصلّين، إن زادوا على العشرين فقد نجح. كان عرفات ينطق حرف الراء بطريقة غريبة وعندما سألته قال إنها راء زهرانية. كان عميق التديّن، وعندما كنت أسأله عن السعودية كان يحدّثني عن السيارات. نادراً ما قال شيئاً عن مساجد السعودية. ربّما، كما خمّن الأخ يونس، لأن المساجد ليس فيها راء، وعرفات يستعرض على كلّ الناس بما حباه الله. لاحقاً حدّثني الأخ يونس بأشياءَ كثيرة عن الزهران. قال إنها بلدة في السعودية معروفة بحرف الراء ورجاني ألّا أسألَ الأخ عرفات عنها لأنها توجعه.

فكّرَ في كلماته، لم أسأله، كان فقط يفكّر في كلمات نفسه ونحن نمشي ونرى الشفق. ثم سألني فجأة، وبلا مقدّمات، ما إذا كانت الزهران في السعودية. ضحكتُ وضربت كفّاً على كفّ، فقام هو ودفعني إلى حائط مواجه لمدخل الحي. كنّا نظنّ أنّ خلف ذلك الحائط معهداً يعلّم اللغاتِ الأوروبية. كان الأخ يونس يعرفُ قصّة رهيبة عن ذلك المكان. حفظ الحكاية من أهل الحيّ، وأهل الحيّ نقلوها عن المؤذّن السابق، والمؤذّن السابق كان يعيدها بمناسبة وغيرِ مناسبة، وعندما ينتهي منها يأخذ حصوات من الأرض ويرميها في الهواء قائلاً: "كلاااام يا أوروبا".

أحبّ أهلّ الحي تلك الحكاية كما لم يحبّوا حكايةً من قبلُ، واتّفقوا جميعاً على أن يحملوا وزرها إن بدا مع الأيام أنها فِرية. ذلك ما حرّر

الأخ يونس من ألم الضمير وجعله يمدّ في القصّة ويجعلها صالحةً لكلّ الشفاه.

– إن كانت كذبة فإثمُها علينا.

سرى بين الشبّان.

– وإن كانت حقيقة فلنا أجرُها.

تفاهمَ الكهول.

تقول الحكاية:

في ليالي الكريسماس الثلاث يجتمع في المعهد كلُّ خواجات المدينة. يحتفلون، يغنّون، يسكرون، ثم يتراكبون على طريقة الأتراك. لم يقل المؤذّن السابق كيف يتراكب الأتراك. اكتفى بالقول إن أوروبا لا شيء من دون تركيا. الأخ يونس عرف الجواب وكتمه.

لمّا أسرّ إليّ به قال هامساً: "شيء رهيب يا أخي، شيء رهيب".

"وكيف عرفت التفاصيل؟"، كنت أسأله.

"صدفة يا أخي".

لم يخبرني قطّ عن تلك الصدفة، ولا عن صُدَفه التي تحدث طوال العام. سينقل تلك الحكاية إلى عالمه الجديد، وسينصت إليه السلفيون بخوف وشرَه. ورغم بشاعة القصّة، فهي لن تردَ أبداً في خطب السلفيين التي تقول كلّ شيء. أبَوا أن يشركوا الناس في ذلك اللهو البغيض. طلب منه أبو والية أن يبحث له عن قصص أخرى من ذلك النوع وأن يكتمها عن النّاس. لا بدّ من البيّنة قبل كلّ

شيء، البيّنة تستدعي إدراك التفاصيل الصغيرة في حياة الناس والتريّث. ثم على الداعية أن ينذر قومه بنصف ما يعرفه عن أحوالهم.

سأله الأخ يونس بعينيه، هكذا قال لي: "بعينيّ"، إن كان يرغب في معرفة ما يخبّئه الناس، فقال أبو والية إن الله أمر المؤمن بالسعي وراء كل شيء. جرى ذلك الحوار القصير بين الرجلين باستخدام العيون، العيون فقط.

قال له الحاج علي، صاحب دكّان الحي، هكذا وبلا مناسبة:

"للأتراك عيدٌ يحتفلون فيه بأن يقفوا في دوائر، كل دائرة من تسعة أشخاص. يمسك كلّ تركي بخصر التركي الذي أمامه ويدورون والفوانيس حولهم. كلما أتمّوا عشر دورات نفخوا في فانوس، إلى أن تنطفئ الذبالات جميعها. وإذا حلّ الظلام على الأتراك تصايحوا كالمجاذيب، لا يقول التركي للتركي آه".

سأله الأخ يونس عن النساء في تلك المعمعة. وبدلاً من أن يجيب عن سؤاله، فتح الحاج علي فمه ونسي أن يغلقه. ثمّ، وكأنه أفاق من سباته المفاجئ، قال صارخاً:

"اتّقِ الله يا أخ يونس. أيش من نسوان؟ هذي جهنم الحمرااء".

الأخ يونس رجلٌ أبسطُ من هذه الدنيا وما فيها، ولا يدري كيف سيتّقي الله أكثرَ من ذلك. سأل الحاج علي عن مصدر القصة فراح الحاج يحرّك عِمامته من الشمال إلى اليمين ومن الخلف إلى الأمام، وعندما لم يجد جواباً قال للأخ يونس:

"اشتيك تسكعهم أذان من مقام العجم، طيّر بهم شذر مذر".

ثم ضحك الحاج علي وبرزت أسنانُه التي تشبه حبّات الذرة. قام يفرك جبهته ويفتح ثلّاجته ويغلقها وهو يغمغم:

”لا تسكعهم أذان ولا شي. الشجن قتلني والله. تقول ليش مقفلين على أنفسهم؟“.

كان الحاج علي صاحب الدكّان الوحيد في الحيّ، وهو هناك منذ زمن طويل ويعرف أشياءَ لا تعدّ ولا تحصى عن الأتراك الذين لم يرهم قطّ.

أدرك للتوّ أن حكايته ناقصة فنادى على الأخ يونس، وكان قد غادر المكان يحمل في يده شيئاً لعَشائه:

”ارجع مَلِه يا أخ يونس شاكمل لك القصة“.

2

ما كانت ديوكُ الحي لتأخذ أذاني على محمل الجِدّ كما كانت تفعل حين يؤذّن الأخ يونس.

وكان يواسيني قائلاً إنّه ربّى دجاجاً في القرية، وإنّ الديوك تعرف السرّ في صوته.

– ماذا يجد الديوك في صوتك؟

– لا أدري. هل تفهم؟

وفي يوم استيقظْتُ قبل الفجر، وضعتُ كتاب الفيزياء تحت إبطي وهبطت من غرفة المسجد المعلقة على تلّ، أتحسّس الطريق. آليت على نفسي أن أوقظ كلّ ديوك الحي في أذان الفجر الأول، وكلّ نسائه في الأذان الثاني. فتحت المسجد، أشعلت الأنوار، وقفت أمام الميكروفون المثبت على حامل، نقرته نقرةً خفيفة بسبّابتي اليمنى، قبّلت طرف سبّابتي. سمعتُ لقبلتي طنيناً، ثم سمعت صداها قادماً من الجبل. احترت لثوانٍ ثم رأيتُ أن أجرّب الأذان على مقام الصّبا. دخلتُ في الأذان، أظنّني أتقنت المقام إلى حدّ كبير، فقد شعرتُ بالضياع فجأة. بدأت عالياً ثم هبطت إلى القرار بهدوء وسكينة. قلتُ: "الصلاة خيرٌ من النوم" كأني أكلّم أمّي.

الحقّ أني تعلّمتُ المقامات من الأخ يونس مقابل أن أعلّمه إعراب كلام الله. كان قد جاء في يوم من الأيام حاملاً الجزءَ الأوّل من كتاب **إعراب القرآن** للزَّجّاج. فتحنا الكتاب معاً والدهشة تملأ العيون، ولم يكن أحد في الحيّ قد رأى الشمس منذ أيام. توقّفنا عند فصل

”حذف المفعول به“ واتّفقنا على أنه موضوع مثير، فكيف للكلام أن يستغني عن المفعول به؟ قرأنا الفصل إلى آخره ولم نجد من بين كلّ الشواهد التي ساقها الزجّاج مفعولاً به محذوفاً. غير أن الأخ يونس رأى أن {فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً} فيها مفعولٌ غيرُ مرئي. كنتُ أقول إن الآية بها فعلان وفاعلان ومفعولان، ولا توجد كلمات مضمرة. وكان يتعثر بكلمة ”قرباناً“ ولا يعرف لها إعراباً. كان يعيد قراءة الآية، يرتّلها، ثم يعود ليقول: ”انظر، الكلمات ناقصة“.

يا إلهي، ما أجملَ ما كان يفعل حين كان يرتّل، كان كلُّ شيء يكتمل. أنتم لا تعرفون ذلك، ولن تتخيلوه. رتّل الآية مراراً ثم استسلم وقال: ”ضاع المعنى“. وكان ذلك موقفه، وسيبقى عليه حتى عندما يصبح سلفياً عظيماً ويصير اسمُه أبا حذيفة.

بقيت الديوك في سُباتها، لم يتحرك شيء في الحي سوى ذيل أو ذيلين. جاء الأخ يونس متثاقلاً يحاول التغلب على وزنه وتعبه. صلّى ركعتين ثم استلقى على سجادة المسجد وبقي ينظر إلى السقف ويحرّك شفتيه. دخل بعض المصلّين، أحدهم نزع سرواله الداخلي الأبيض ودسّه داخل حذائه. لما وقعت عينا الأخ يونس على الساعة نهض فزعاً، أمسك بالميكروفون، وضع إصبعيه على أذنيه وأغمض عينيه وأذّن. تطايرت ديوك الحي وصاحت، ميّزتُ من أصوات الديوك صوتاً أو صوتين.

تركَت الريح مكانها القريب من المسجد وانسحبت إلى منزل الأخت مِسك. تسكن الريح في منزل الأخت مسك منذ مات زوجُها،

وهي امرأة طيّبة لم تفكّر قطّ في استخدام الريح لأغراض لعينة.

قلت للأخ يونس ضجِراً ومتبرّماً:

– أنا أيضاً ربّيت دجاجاً في القرية.

غادرنا المسجد حين صار بمقدورنا رؤية هامة الشمس.

– ما نوع الدجاج التي ربّيتَها؟

– مثل كلّ الدجاج. هل هناك أنواع للدجاج؟

كنّا قد وصلنا كفتيريا الدعوة، وجلسنا. قضم جزءاً كبيراً من رغيف الزلابية. قال وفمه ممتلئ:

– ولماذا تسألني وكأني ديك؟

تطايرت نتفٌ من فمه. كانت ضحكته مكتومة. قلتُ:

– أظن أن الديوك تعوّدت مقامَ نهاوند.

– أنا لا أؤذّن بمقام نهاوند إلا مرّةً في الشهر.

– ولكنك أذّنت من مقام نهاوند هذا الفجر.

– أنا أخلط الصبا ونهاوند، أمزج الحزن والفرح معاً. أنت توقظ الناس من سباتهم وراحتهم. امزج. امزج مقامين أو ثلاثة، شوّق الناس للصلاة، "بشّر المشائين في الظّلَم إلى المساجد". الأذان ليس كلمات بل بشارة. لحّن البشارة، ضعْ فيها كلّ موهبتك وقلبك. الصبا في الفجر؟ كيف تفكّر أنت؟

ثم عاد إلى سخريته وقال:

– تظن أني اتفقت مع الديوك على إحراجك؟

وضحك عالياً.

سيحافظ على ضحكته تلك حين يصير اسمه أبا حذيفة السلفي، ثم ستصير ضحكة واطئة ومدروسة. كان لا يزال حتى ذلك الحين، وما بعده، الأخ يونس. ولأيّ أخ يونس في الدنيا أن يضحك كما يشاء.

كفتيريا الدعوة تقع على بعد سبعين خطوةً من المدرسة، على الجهة المقابلة للبوابة الكبيرة الحمراء. يعمل في الكفتيريا رجلان من جماعة الدعوة وما من أحد يدري لمن تعود ملكية المحلّ. كان عبد الله البعداني يفرد عجينة الزلابية على لوح خشبي ويغمغم شارداً:

"يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً".

رأيت دمعةً هبطت إلى لحيته وضاعت في تلك الأحراش الاستوائية، دمعة رجل فاته الفوز العظيم، ما أثقلَها.

أمّا رفيقُه عبد الكريم فكان يحمل الزلابية، أو المقصقص، ويهامس الزبائن عن الإخوة الذين خرجوا بعد الفجر في سبيل الله. كان الزبائن يبتسمون ولم يفكّر أيّ منهم في سؤاله عن أولئك الإخوة، ولا إلى أين ساروا.

يكاد فجر المدينة أن يختلف عن كل فجر في الدنيا، فهو يهبط من جبلِ صبر المحيطِ بها ولا يذهب قبل الضحى. ولأنه فجرٌ على غير العادة فقد كان يتّسع لأي إخوة خرجوا في سبيل الله دون أن يفصحوا عن سبيلهم.

قلتُ للأخ يونس هامساً: "انظر إلى إبط الرجل". كان عبد الله البعداني يلبس فانلّة بيضاءَ بأكمام لا تكاد تغطّي الكتف، وكان شعر إبطه ظاهراً ومتعرّقاً. داخل كفتيريا الدعوة كنّا نأكل أفضل أنواع

الزلابية على الإطلاق. وكنّا كلّما رفعنا رؤوسنا رأينا إبط عبد الله البعداني. الشمس أيضاً تشرق من هناك، وكانت عمامته متناسقة من كل الجهات على نحو يجعلها شمساً ثانية.

”الله ما أحلى الأخوّة“، كان عبد الله يردّد وهو يستخرج الزلابية من صحن الزيت. ”الله الله يا أحباب“، يقول عبد الكريم وهو يناول الزبائن.

3

حين أدار الأخ يونس ظهره لوادي الضّحى وتوغّل في المدينة بقيَ كلّ شيء في الحي يحمل اسمه، حتى المسجد والمؤذّن الجديد.

حصل الأخ يونس على فرصة للأذان والخطابة في مسجد جمال الدين بالقرب من الباب الشرقي للمدينة القديمة. هناك سيتعيّن عليه أن يتخذ له كُنية فأسمى نفسه أبا حذيفة. مُنح ختماً بالاسم الجديد، وأعطي نسخة من مفاتيح المسجد. فُتحت له أبواب الغرفة التي على السطح. تعرّف الناس على أبي حذيفة وأحبّوه، ولكن ديوك المدينة القديمة تعاملت مع صوته ببرود غريب حتى وهو يخلط المقامات. ذهب إليه بعضُ سلفيي المدينة القديمة، ممن تربطهم بأبي والية خصومة فقهية، وقالوا له: "لا تبتدع في الأذان".

جادلهم بحديث "زينوا القرآن بأصواتكم".

فنهروه قائلين: "القرآن وليس الأذان".

توقف الأخ يونس عن دمج الصبا بنهاوند، وبرَد أذانُه. ندم أول الأمر. ومن وقت لآخر كان يعود إلى مسجده القديم ويؤذّن كما يشاء. كان يؤذّن على الصبا ونهاوند والناس يتوافدون إلى المسجد ما إن يسمعوا أذانه مستذكرين سالف الأيام. حتى فاروق الشرعبي، خليفته، كان ينتشي. لو لم يتخنث العبّاسيون في الأذان، قال فاروق أكثر من مرّة، لوصل الإسلام إلى اليابان. وعندما عرضتُ عليه أن نزور الأخ يونس في مسجده الجديد شرد قليلاً، وقال كأنه

يتحدث إلى أمّه إن العبّاسيين لم يتخنثوا في الأذان، وإن اليابان لم تكن موجودةً أيّام زمان.

”لو أنّ الأخ يونس يؤذّن مرّةً واحدة في تهامة، مرّة واحدة فقط“، غمغم فاروق القادم من تلك البلاد.

وذهبنا إلى الأخ يونس في ذلك المساء ولم نجده.

اقترب منه السلفيّون ومع الأيام أَلِفهم، اكتشفهم فرادى ووجد أنهم يشبهون سائر الناس. كنتُ أذهب إلى زيارته بين المغرب والعِشاء وكان يجلس لقراءة القرآن أحياناً ويتجوّل في شارع الجمهورية أحياناً أخرى. كنّا نتجوّل في الشارع معاً، وكان الناس حين يروننا قادمين يرفعون أصواتهم: ”السعودي بعشرين ريال“. وكان الأخ يونس يتمهّل في مشيته، يخرج أوراقاً نقدية من جيبه ويعدّها بصوت عالٍ. يتوقف بين رقم وآخر ليسألني بصوت مسموع: ”وماذا عن صلاة الوتر؟“، أجيبه: ”صليت“. يضع ورقتين في جيبي قائلاً: ”هذه للوتر“، تاركاً أصحاب الدكاكين لهواجسهم. لو أن السلفيين استفادوا من سخرية الأخ يونس ومرحه لحكموا العالم حتى حدود روسيا.

كنتُ مطمئنّاً لأنّ أبا حذيفة كان يفسح الطريق للأخ يونس بمجرّد أن نضع أقدامنا على مدخل شارع الجمهورية قاصدين بابَ المدينة الغربي. وأكثرُ ما كان يسعدني أن الأخ يونس، الذي بقيت لحيتُه الصغيرة على حالها، لا يزال قادراً على المرح والسخرية. سخريته بقيت كما هي، لعينة وبريئة. رزقه الله بأمويين جدد في المدينة القديمة، وأثارته مؤخّرات رؤوسهم التي تشبه كلّ الرؤوس. كانوا

يخلعون سراويلهم إذا دخلوا المسجد ثم ينسونها بعد خروجهم. وبعد العشاء يرسلون رجلاً منهم فيأتي لجمعها من الأبواب الثلاثة ومن خلف العمدان.

يوماً ما، وكان يوم خميس وأغلب الناس يظنونه الأربعاء بسبب الرياح، سأله الرجل وهو يلمّ السراويل عن أبيه. أدرك الأخ يونس، آنذاك، أن الأرض كروية. كنتُ أضحك. ضحكتُ كأني اكتشفت الضحك لأول مرّة، وجلس الأخ يونس ينتظر ليقصّ عليّ ما ضيّعه من الحكاية.

تعرّفت على الأخ يونس في وادي الضباب. وهو أرض خضراء على مدخل مدينة تعز عاش فيها الشيخ أحمد في صباه، ثم تركها وصعِد إلى الجبل. كان يهرب من حروب تدور في رأسه. وحين صار له رجالٌ أرسلهم إلى شمال البلاد ليوقفوا الحرب، ولكنهم لم يجدوا شمال البلاد قطّ.

عرضَ عليّ الأخ يونس مشاركته الغرفة، غرفة مسجد الضحى. كانت مبنيّة على منحدر في التلّ المحاذي للمسجد، كأن أحدهم جاء بها من مكان بعيد وألصقها في مكانها. كانت عالية على كل المنازل، لها نافذةٌ واحدة، هناك كنتُ أقف وأمسح الحيّ بأكمله. تطلّ النافذة على جهة الشرق، وكنتُ أول شخص في المدينة يرى الشمس، والشخص الوحيد الذي لا يرى غروبها. لعامين لم أرَ الغروب. كان عليّ أن أتسلّق التلّ إلى القمّة إذا رغبت في معاينة الشمس وهي تهوي. في الأعلى قبرٌ لرجل يهودي لا يعرف اسمَه

سوى القلّة. لو صعدت إلى هناك لرأوني، وسألوني، وأجابوا عن أسئلتهم بأنفسهم.

في الليل يغلق الأخ يونس نافذة الغرفة، لا يريد أن يطّلع على أسرار الناس. ولكنه ليل، ماذا في الليل؟ أجاب: رائحة البخور، والبخور يقول كلَّ شيء. مرّة واحدة وصلتنا رائحةُ بخور شاردة. في الليلة تلك بقي الأخ يونس يتقلّب على فراشه مثل رجل عضّ ضبعاً أو عضّته كلبة. أنَّ ولم ينبسْ ببنتِ شَفة.

عرفتُ الأخ يونس في وادي الضباب. كان يخرج مع أصحابه ليلعبوا كرة القدم في الوادي بعد حصاد الزرع. إذا جاءت العطلة الصيفية أرسلتني أمي إلى بيت جدّي في الوادي، وتبقى هي في الجبل.

كنّا نذهب لنتفرّج على أبناء المدينة، نظنّ أنهم يستخدمون اسماً آخر للكرة، وأنهم لا يركلونها عالياً إلا فيما ندر. كانوا يشركوننا في اللعب إذا احتاجوا إلى حارس مرمى أو مُدافع. ذات مرّة سقط الأخ يونس أرضاً وتدافع أصدقاؤه لمساعدته وهرعت معهم. أمسكت بركبته وأبعدتُ الآخرين قائلاً: أنا أعرف أنا أعرف. قمت بتحريك مفصل الركبة إلى الأمام والخلف وسألته إن كان يحسّ بوجع. وقفوا يشاهدون ما أفعله وسألني الأخ منيف: "أيش تعرف؟".

أجبته كالمجذوب: "أيش أعرف؟".

ضحك منيف وهو يقبض على ذراعي اليمنى. رأيت زُرقة في أطراف أناملي. كانت ضحكة الأخ يونس هي الأعلى. حتى بعد أن يتغير الزمان، تحل الحروب والأوبئة، وتتداخل المساجد، ستكون

ضحكة أبي حذيفة السلفي هي الأعلى، وهي ما سيحمي المدينة والناس في سنة النازلة.

صرنا أصدقاء. جاؤوا للّعب مراراً، وشاركْتُهم.

قال إن والده يملك دكّاناً مقابل محطة البنزين. صدّقته، كنتُ قد رأيت في حياتي عشرات المحطّات، هناك دائماً دكّان. ولأن الأخ منيف هو الصديق الأول للأخ يونس فقد صار أيضاً صديقي. وعدني بأن يعلّمني فرعاً من الكونغ فو اسمه وينغ شون. قال لي في الدرس الأول:

"الوينغ شون ترتكز على مبادئ أربعة: التوازن، الفرص، القوة، والأساليب. سنبدأ من التوازن".

قلت له: "أو من الأساليب؟".

قال: "حتى تجيد الأساليب أنت بحاجة إلى بدن متوازن. وينغ شون لا تعترف بالعضلات المفتولة، بل بالجسد المتوازن. توازن الجسد يفضي إلى توازن في الروح. نحن نقاتل بأرواحنا في النهاية، ولا بد أن تستقر الروح إذا أردنا أن نكسب النزال". ثم يضيف: "أيّ نزال"، ويتابع:

"أهمّ من قدرتك على مهاجمة الخصم هو أن تفقده توازنه. في سبيل ذلك عليك أن تتحلّى بفضيلتين: التوازن والتواضع. وينغ شون هي الإنسان المتواضع. يأمرنا المعلّم شان بالتواضع الشديد، وأن نُريَ الآخرين ضعفَنا. وعندما نتعرض للهجوم تكون مهمتنا أن نُريَ الناس ضعفَهم. وينغ شون هي فنّ التواضع"، كان يقول.

4

ذهبت إلى المدرسة متأخّراً كالعادة. كانت بوابة المدرسة قد أغلقت، كالعادة أيضاً، وبات عليّ أن أمدّ كفّي مقلوباً. يرفع المدير يده إلى محاذاة كتفه ويضربني بعصاه التي ورثها عن جده، ورثها جده عن الأتراك، انتزعها الأتراك من يهودي، جاء بها اليهودي مع بضاعته من المشرق. يتوقف مدير المدرسة عند كلمة المشرق. أحياناً يقول الشرق.

مرّة واحدة فقط رفع يده إلى أعلى من رأسه. مرة واحدة وحسب أخبرنا عن اليهودي.

إلى جانب البوّابة الكبيرة الحمراء ثمّة كشك لبيع الجرائد والكثير مما يحتاج إليه طلبةُ المدرسة. اشتريت نسخة من صحيفة **الثقافية** ومضيت إلى كفتيريا الدعوة. قدّم لي عبد الله البعداني الزلابية والشاي العدني وسألني عن الأخ يونس. كان يحدّثني وعيناه إلى الصحيفة، ثم سألني إن كنتُ أحرص على شراء النسخة الأسبوعية فقلت له ليس دائماً. كان المكان خالياً من الزبائن، فزبائنه في الغالب طلبة ومعلمون واليوم الدراسي قد بدأ. قال إنه مولع بصفحة الأدب الشعبي في الصحيفة. أشعار البادية التي تنشرها الصحيفة أنعشته. "أسعدت روحي"، قال وهو يضع يده على منتصف صدره، وفرد عموده الفقري كأنه ديك.

لعبد الله البعداني ذقنٌ سوداء طويلة بعض الشيء، ولا أظنّها ستكبر أكثر من ذلك. اللحية تكبر بحسب النيّة، ولم يكن البعداني

ينوي أكثر مما نوى. لم ينبت له الكثير من الشعر على جانبي وجهه، ولو حدث ذلك لكان عليه أن يتّقي الله أكثر مما يفعل. له عمامة يتدلى منها خيط قماش رفيع إلى ما بين كتفيه. أما عيناه فتضحكان دائماً، وكان دائم التّسبيح والتبسّم. كان لسانه مع الله وقلبه على النسوان، كما يقول الأخ يونس. من يعرف الله يعرف النسوان، سمعتُ. لطالما شرّحنا الرجل، الأخ يونس وأنا، حتى إننا حاولنا أن نعدّ شعرات ذقنه، ونخمّن اسماً لأمّه.

راح البعداني يترنّم بما حفظه من عدد الصحيفة الأخير. يقول: "فك الزرار تحت الزرار لهيبْ نار، تحت الزرار جنّة وتحتها انهار". كان يضحك ويحرّك رأسه مثل الولهان ويتمتم: "شي يا أخي شي". بردَ زيتُه. بشرود يحكّ باطن كفه اليمنى، يخطو باتجاه باب الكفتيريا، يتلفّت ثم يعود.

استجمع حسّه ورمى إليّ بنظرة متسائلة، أراد أن يلمحَ دهشةً بين عينيّ، حَيْرةَ مراهق راعه ما سمعه. كانت عيناه مليئتين بإجابات شتّى.

– إلقاؤك حلو يا أخ عبد الله، هل لديك أولاد؟

– تزوجت في القرية عندما بلغتُ العشرين. وحين عرفت الطريق إلى الله جاء أشقّاءُ زوجتي من مكان بعيد، من آخر الدنيا، وأخذوا أختهم ومضَوا.

– ولم تسمع عنها شيئاً؟

– لم أعد قطّ إلى القرية.

– ولكنها زوجتك.

– كانت زوجتي. هي الآنَ امرأةٌ من نساء الله.
– تتذكرها؟
– نعم. لا أدري. {وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}.
– اشتقتَ إلى إعادة التجربة؟
– التجربة؟
– أن تكون لك زوجة.
– قلبي مشغول يا أخي. أريد زوجة لقلبي قبل جسدي.
– سيحبّ قلبك ما أحبه جسدك، أو هكذا أظنّ. كلامك ليس عذراً.
– أنا جالس وأنتظر، بين الشوق والشوق.
– ماذا تنتظر؟
– الوعد، أنتظر الوعد.
– أيّ وعد؟
– كل إنسان منّا موعود. والله أصدقُ من يفي بوعده.
ثم همهم وهو ينظر إلى زبون يقترب من المحلّ:
"إن فاتك وعدُ الله ولم تصغِ إليه فقد خسرت خسراناً مبيناً".
يعرف الأخ يونس ماضيَ عبد الله البعداني ويراه في مكان آخر، والبعداني يعرف أن الأخ يونس لا بد أن يكون مع أناس آخرين. عادةً ما يسألني الأخ البعداني عن الأخ يونس، عن أمور في حياته لا أعرف عنها شيئاً. ولمّا سألته كيف صرتما قريبين قال: "لسنا قريبين، إنما التقى البحران".
حاول كلٌّ منهما استقطاب الآخر إلى جماعته وفشل. ربما مردّ ذلك إلى أنّ الرجلين شديدا الحماسة للدنيا نفسها، وإن أنكرا ذلك.

لديهما خيالٌ ثريّ عن دنيا لذيذة يسمّيانها الله.

يونس، الأخ، يتوجّس من جماعته التي تتركه يضحك بمفرده. الأخ يونس يضحك حتى على نوائب الدهر، بل تجرّأ على القول إن الضحك يمحو الذنوب. جماعته لا ترى في الضحك مصلحة. قال لي: "بالطبع لا يقولون لي لا تضحك، ولكن ليس بمقدوري أن أضحك بمفردي حتى آخر العمر".

"لماذا لا يضحك الإسلاميون؟"، سألته.

"لو ضحكوا سينسون ما عزموا عليه"، قال.

ولـمّا سألته عمّا عزموا عليه قال: "لو عرفتُ لن أضحك".

البعداني يحنّ إلى النساء، إلى أخبارهنّ، إلى ما هو ماضٍ ودنيوي. ترك نفسَه للحنين، ووجد أن الكفتيريا أجمل مكان في الدنيا، فهي تفتح أبوابها على طريق الطالبات، وتوفر له مالاً يدعم به الأنشطة الدعوية لجماعته، هي مطرح بين الدين والدنيا. أدرك ببصيرته وبصره أن الله خلق الوَنَس لأجل الناس. الناس يموتون في نهاية المطاف ويذهبون فرادى إلى الله. وحين يلاقيهم وهم فرادى يرحمهم ويغفر لهم. الله لا يعذّب رجلاً يأتيه وحيداً، ولا امرأةً تمشي بلا صاحب. يعرف البعداني أن رفاقه في الدعوة سيموتون فُرادى.

كنّا نجلس هناك في أوقات مختلفة من اليوم، وكان يعيد أفكاره: الموت مع الجماعة ليس رحمة. الناس تقول: الموت مع الجماعة رحمة. هراء. الله يرحم من يموت وحيداً ويأتيه بلا سند ولا قوة. بما أننا سنموت فرادى فالشفقة مضمونة. الموت الجماعي ليس من مصلحة الفرد. قيل إن النبي يهشّ جماعة عن الحوض، وإن الله رأى

رجلاً وحيداً ذاهباً إلى النار، يمشي ويسقط، فناداه ووهبه جنّة بحجم الدنيا.

”اذهبي أيتها الجماعة، تعالَ أيها الفرد“، يقلّد الأخ يونس صوت ملَك من ملائكة الله.

أحبَّ الرجلان بعضهما، أو التقى البحران. أدركا أنهما ينتميان إلى جماعة ثالثة اسمُها الدنيا. كان البعداني على مشارف الثلاثين من العمر، وإذا حدّقت فيه ترى اختلافاً في عمره بين الصبح والمساء. نصحني الأخ يونس بأن لا أطيل النظر إليه وإلا تجلّت لي أمورٌ أخطرُ من سِنّه.

للدّعاة أسرار، قال يونس، وهي خليط من الدنيا والآخرة.

– الرجل تقيّ على طريقته.

فكّر الأخ يونس في كلامي، أو قُل أخذه على محمل الجد. عاد إلى الموضوع بعد أيام وقال ونحن ننزل من الباص:

– تقوى الله يمكنها أن تبتلع جبلاً.

– جملاً؟

– جبلاً.

في الطريق قال إنه يرى نفسه تقيّاً إذا عرض نفسه على موضوع واحد، مثل الغش. ولكنه فاجر في مسائل أخرى. وتنمّر كلّ منا على الآخر طوال ذلك المساء، وكاد كلانا أن يفصح عن فجوره لولا سترُ الله.

التحق البعداني بجماعة الدعوة والتبليغ بعد زواجه بعام واحد. صار يذهب إليهم في مواسم الخروج، يغيب معهم ثلاثة أيام في

الشهر ثم يعود إلى القرية. لكنّه، مع مضيّ الوقت، ترك العمل في الأرض وذهب مع الله بلا رجعة. جاء أشقّاء زوجته من قرية بعيدة وأخذوا أختهم ومضَوا. عندما شارفوا قريتَهم رفعوا أختهم على الأكتاف وأطلقوا النار في الهواء وزغردت نساءُ بعضِ المنازل.

عرف البعداني القصّة بالمصادفة ولم تشغل باله كثيراً. فقد عثرت له جماعة التبليغ عمّا يبرّد قلبَه في كلّ الأوقات ويلهيه.

شغلتْه باليقين.

صار يسافر في كل البلاد مع رفاقه من جماعة التبليغ، يحمل فراشه على الكتفين. ما إن يرفع فراشه ويفرد كتفيه، كان يقول، حتى تتضاءل الدنيا أمام عينيه. غير أنّ شيئاً ما بداخله من زوجته بقي يؤلمه، شيئاً لم يفصح عنه قطّ وكان يجده في أشعار البوادي.

وإذ اختار طريقَه فإن عليه أن يخرج إلى الأسواق في مواسم الدعوة ويحثّ الناس على الحضور لسماع البيان.

فحين تنزل جماعة التبليغ في مسجد توزّع أفرادها إلى جماعات، وقبل مواعيد الصلاة ترسلهم إلى الأسواق لإحضار الناس، لينهض شيخ من رجالها ويلقي البيان. أحبّ البعداني جماعته أكثر بعد أن عمل في الكفتيريا. أصبح يستمع إلى الناس، إلى المتدينين وسواهم، وأدرك عظمة ما هو فيه من النعيم والحب، وروعة ما الناس فيه إذ يتقلبون بين الندم والشوق. وأحبّ أكثر جماعته التي لا تقرأ الجرائد ولا تأتي على ذكر النساء. هو يقرأ الجرائد ويعرف عن النساء أكثر مما تعرفه جماعته. الله الذي تقدّمه جماعته في بياناتها يحبّ الناس ويتفهّم ما هم عليه. وجد ذلك الله في الجانب

المظلم من حياة الناس فتشبّث بجماعته أكثر من أيّ وقت مضى. كانت جماعته تفيض عليه بالمزيد من اليقين. غير أن زوجته التي حُمِلت على الأكتاف بقيت تهوي في صدره وتملأ رئته كلما انتصفت الليالي. يتداعى البعداني، يقول كلّ شيء.

– كان عليّ أن أختار، فاخترتُ الله. وأنت؟

سألني.

– اخترتُ كلّ شيء.

لم يستغرب جوابي، ولم ينتظره.

– لا بأس عليك. الله لا يستعجل قدوم أحد. لا تنسَ أنّ الله أعظم المنتظرين.

كان عبد الله البعداني يأتي بأناس كثيرين إلى المسجد، وكان ذلك محيّراً بالنسبة إلى من هم أقدم منه داخل الجماعة وأكثر تقوى. وكانوا يسألونه فرادى، فالتبليغيون لا يأتون في جماعة إذا أرادوا السؤال:

"ماذا بينك وبين الله؟".

وكان يضع يده على صدره ويبتسم. جعله ذلك السرّ مَهيباً عند رفاقه، حتى إنّ شيخاً في الجماعة قال في واحدة من مواعظه بعد صلاة العِشاء:

"لو أنّ ما بين الرجل وبين الله كمثل ما بين البعداني وربّه لتدافع الناس على مساجدنا وحملونا على الأعناق".

أخبرَ الأخ يونس بالسّر:

– كلّ ما في الأمر أني أسلّم عليهم مرّتين، أقول السلام عليكم ثم أقول مساء الخير.

سأله يونس مستغرباً:

– تريد أن تقول إن السرّ يكمن في مساء الخير؟

– مساء الخير من لسان المتديّن تسترعي انتباه أيّ شخص. الناس لا تعيرنا انتباهاً لسوى ثوانٍ، هكذا هي الدنيا ولن تتغيّر. على الداعية أن يقول كلّ شيء في تلك البرهة القصيرة.

– تدعو إلى الله في ثوانٍ؟

– الله خلق الكون في ثوانٍ.

– وماذا تقول لهم في ثوانٍ غير مساء الخير؟

– الناس مساكين. فيهم من يعتقد أنّ المتدينين يتراكبون في السر مثل الهِرر. ومن يعتقد أنهم يتحصلون على أموال من دول ثرية. ومن يعتقد أنهم مخترقون من أجهزة الاستخبارات. لا بد أنك قد سمعت الكثير من القصص حول المتدينين سواء نحن الذين لا نهتمّ بالسياسة، أم أنتم الذين لا تهتمّون بالدين. ما إن يفتح المتديّن فمه حتى يفتح الآخرون أعينهم مؤملين أن تدلّهم كلماتُه على سرّه والجهة التي أتى منها. مثلاً كنت أمشي في شارع التحرير الأسفل وألقيت السلام على مجموعة من الشبان أمام محل لبيع البزّ. كان بينهم كهلٌ قاسي الملامح. مدّ الكهل يده ليسلّم عليّ. تراجعت وقلتُ: ”عند المالكية إنّ لمس المردان يفسد الوضوء“ فضحكوا وضحكت معهم، وتبادلنا الحديث إلى أن أوصلتهم إلى المسجد، والكهل معنا.

قال، وقد أخذ كلامُه نبرةً مسؤولة:

– في البدء أُسمِعهم ما يرغبون في سماعه من التفاهات التي لا تغني ولا تضرّ. بعد ذلك يسمعون ما نودّ نحن أن نُسمِعهم إيّاه. الدعوة سلعة، والسلعة يتبادلها طرفان، ولا بأس إذا بيع الغالي بالرخيص، إذا قلنا شيئاً عن المردان من أجل أن نقول شيئاً عن الله. لا تقل للناس أنتم تائهون، ساعدهم على اكتشاف كم هم تائهون. سيصدّقونك أكثرَ إذا قلتَ لهم إنّك تائهٌ مثلهم.

– كلام كبير يا شيخ المردان.

علّقَ الأخ يونس ضاحكاً.

قال لي يونس:

– البعداني لم يضحك ذلك النهار، ولم يتبسّم. بقي يعمل مثل كلّ رفاقه ويتحصّل على رزقه. أهل التبليغ يعملون ليتمكّنوا من الحصول على غذائهم. هم، كما يتفاخر البعداني، لا يتسوّلون ولا ينفق أحدهم على الآخر. يساندون الجماعة، وليس أحدهم الآخر.

”كم لديهم من الأتباع في مدينة تعز؟“، سألْتُ الأخ يونس. قال كمن لم يفكر في السؤال من قبل: ”إذا قلنا إن المتدينين عشرون في المئة، فنحن كلّنا نتنافس على تلك العشرين“. كلّنا يقصد بها الأخ يونس: جماعة التبليغ، الإخوان، الصوفيين، السلفيين. وهناك، داخل كل جهة من هذه الجهات، أهواء ومواويل لا حصر لها.

في ليلة من الليالي، إذ كنتُ منهمكاً في مطالعة دروسي، كان الأخ يونس يتقلّب على فراشه ويغطّي عينيه بذراعه. أحسست بالارتباك، سألته إن كان عليّ أن أطفئ اللمبة. هزّ رأسه، واصلت

مطالعة دروسي. تنبّهت إلى أن باب الغرفة كان مواراً فأغلقته. لطالما تركت الباب مواراً ونمتُ. كان فراشي محاطاً بكتب المدرسة من كلّ جانب وكان فراش الأخ يونس، على الجهة المقابلة من الغرفة، فارغاً وهابطاً بعض الشيء من منتصفه.

كان الأخ يونس حين يراني جالساً على فراشي محاطاً بالكتب يقول إنه مشهد رهيب يذكّره بالجزيرة وبأيام زمان. أعرف أن الأخ يونس لم يزر جزيرة في حياته وليس لديه أيُّ أيام زمان مع الدراسة. ورغم ذلك كنت أبدي كلّ التعاطف مع نوبات الشوق التي كانت تدهَمه. بعد مضيّ وقتٍ سمعتُ صوتاً باهتاً قادماً من بعيد فتوقفت عن تقليب الأوراق. فهم الأخ يونس ما الذي يدور في رأسي فهزّ رأسه وغمغم:

– لا، هذا ليس صوت ديك.

– صاحٍ؟

– نعم.

سرعان ما استوى جالساً. كان ذلك في خريف 1996، والبلاد كلّها مشدودة كأنّها على وتر.

– لا بدّ أن أتغيّر، لا بدّ أن أغيّر كلّ شيء في حياتي.

– لماذا تتحدث بهذه الطريقة؟ هل أنت بخير؟

– أنا بخير. أنا بخير.

– ماذا حدث؟

– أنا بخير قلتُ لك.

تحسّس نظارته على الأرض بمحاذاة فراشه، وجدها، وضعها على وجهه وراح يتفقّد أذنه اليمنى. وجدها أيضاً، الحمد لله. مسح نظارته من الجهتين بطرف اللحاف.

– لا، أنت لست بخير. لاحظتُ الأمر ساعة دخولك.

– أنا بخير. الحقيقة أنا لست بخير.

كان الأخ يونس قد بدأ يضيق ذرعاً بنفسه. علـق، كما كان يردّد مؤخراً، بين السياسة والدين. قال، وقد استوى جالساً:

– السياسة تحتاج إلى تركيز، والدين إلى تفرّغ. أحسّ بأنّي لا نضجت في السياسة ولا تعمّقت في الدين. قبل فترة ناقشتُ أحد الناصريين فاستشهد بقصة خليج الخنازير ولاحظ أني لا أعرف عنها شيئاً. وبعدها سألني شابٌ سلفيّ، ونحن نتجادل، عن الفرق بين المرسل والمرفوع من الحديث ولاحظ أنّي لا أعرف. الأمر يتكرر كثيراً معي ومع غيري من الإخوان. أظنّ أننا سنحصل في النهاية على استخفاف السياسيين والسلفيين معاً.

كانت السلفية تتدفق بهدوء إلى لغته ومواقفه وتدفعه إلى احترامها. الأخ يونس صاحب دكّان، يجلس في محل أبيه ساعات طويلة، والدكّان منتدى. تمرّ عليه لحظاتٌ يبهر فيها الزبائن، ويتمنى لو أنه يقدر على إبهارهم كلّ يوم. مرّة قال لهم إن أميركا ستنسحب من الخليج، ومن دول أخرى في العالم. ردّ على من سألوه عن السبب بالقول إن كل الإمبراطوريات مرّت بالطريق نفسه. تمنّى في تلك الساعة، ولسانه يتذوق كلمة الإمبراطوريات لأول مرّة، لو أنه يفهم في السياسة أكثر. فكّر في شراء كتاب يجد

فيه معلومة تقول إن اليابان قد تخوض حرباً مع روسيا. ما استطاع تخيّل أين هي اليابان بالنسبة إلى روسيا، وإلا لقال المعلومة دون الحاجة إلى كتاب. تمنّى لو يعرف أكثر، ولو عرف أكثر عن روسيا واليابان سيعرف عن الدين أقلّ. جرّب أيضاً أن قال للناس إن تسعين في المئة ممّا يعرفونه من الأحاديث إمّا ضعيف وإمّا موضوع، ولمّا سأله زبون: "مثل ماذا؟"، قال: "مثل: الجنّة تحت أقدام الأمهات". حين عرف أن الحديث صحيح أحسّ بالخجل من أمّه. تاه الأخ يونس. تركتُه يتحدّث. تاه كثيراً. لم يمكن بمقدوري إنقاذه في تلك الساعة. الطرق كثيرة، والأخ يونس بدأ يدرك أن المرء كلّما توغّل في طريق غابت عنه باقي الطرق، وما عليه سوى أن يتشبّث بطريق واحد.

كانت مدرستنا من المدارس المعروفة في المدينة. استطعتُ خلال الأسابيع الأولى من التحاقي بها أن أصنع لنفسي سمعة جيّدة. منحتني غرفة المسجد الوقت الكافي للمطالعة، وكنت في كل الأحوال تلميذاً مجتهداً. لو أن والدي عرف بالأمر، أمر غرفة المسجد، لأطلق عليّ خمسين رصاصة. كان يهدّدني دائماً بالرصاصات الخمسين، وهو لا يملك بندقية في منزله ولا يعرف أين يُباع الرصاص، وكان تهديده مخيفاً رغم ذلك. حتى إنّ أمي، وكانت مثلي تأخذ كلام أبي على محمل الجِدّ، فكّرت في شراء قميص ضدّ الرصاص. تراجعت عن الفكرة حين قالت لها أم فاروق إنّه ما من شيء يقي من الرصاص، وإنّ والدها الذي قُتل في الجبل كان يلبس قميصاً فوق قميص.

لم يعرف أحد بأمر الغرفة، وكان الأخ يونس مخلصاً لوعده، لم يخبر أحداً عدا الأخوين منيف مدرّب الوينغ شون، وعرفات صاحب الراء الزهرانية. قلتُ لكل الناس إني أسكن بالإيجار في غرفة بحيّ الضحى. لم أستقبل أحداً ولم أذهب إلى أحد. وهكذا فإن أحداً لم يعرف الطريق إلى مكاني.

في يوم ما، قبل أن أغادر القرية، وجد أبي شريطاً دعوياً في غرفتي. "أيتها المرأة الحجاب أو النّار"، قرأ أبي العنوان بصوت عالٍ. تركني أتلعثم وأداخل بين الكلمات ثم صنع بسبابته وإصبعه الإبهام دائرةً ونفخ فيها. كانت ساعة خوف لا يقدّرها سوى الأنبياء ومن لفّ لفّهم. وكنت كلّما دخلت الغرفة العالية في الضّحى، قادماً من المدرسة، أرى دائرة على الباب وشفتين تنفخان فيها. أقف أمامها وأرتجف، كأني أقف هناك لأوّل مرة، كما لو أنني أتسلل إلى مدينة المأبونين. وحين أجلس على فراشي ينهض الرضا، وتدنو الطُّمأنينة.

كنّا حين نقف أمام مسجد الحي بعد صلاة العِشاء نتحدّث في أشياءَ كثيرة، عن السياسة والأزمة غالباً. كانت هناك دائماً أزمة. وكانوا يسألونني عن سكني فأقول هناك، وأشير إلى بعيد، ثم أدخل بين المنازل والحارات إلى أن أتأكّد أنهم فقدوا الاتصال بي. لكنّ بعضهم، مثل الأستاذ نبيل، عرف أني أسكن مع الأخ يونس في غرفته. سألني، وكان مدرّساً للعربيّة في مدرستنا، إن كانت لدي ملخّصات مفيدة في الفيزياء. قلتُ له إني لا ألخّص شيئاً، فقط أقرأ وأشخبط على حواف الصفحات. "ولا الهندسة الفراغية؟"

سأل، فهززت رأسي نافياً. ابتسم الأستاذ نبيل في ذلك اليوم، وامتدحني لأوّل مرّة. قال إن المدرّسين يتحدثون عني بطريقة جيدة. دعا لي وهو يصافحني، كانت دعوته مدمّرة جعلتني أتقلّب على فراشي مثل الكلب لبضع ليالٍ. لم أفهم الجزء الأول من دعوته غير أن الجزء الثاني كان فاحشاً: وأن ينفع بك الأمّة ذكوراً وإناثاً.

– هل سألك عن ملخّصات في الفيزياء والرياضيات؟

سألني الأخ يونس وهو يتحضّر للنوم.

– وكيف عرفت؟

– كان قد سألني قبل أيام وقلتُ له إنك تلخّص كلّ شيء.

– أنا لا أملك ملخّصات لأيّ شيء. لماذا أحرجتَني مع الرجل؟

– لا تقلق، الأستاذ نبيل أكبر من هذا. ماذا قلْتَ له؟

– قلْتُ له إني لا أملك أيّ ملخصات.

– ليتك تساعده. ابنته في مدرسة أسماء للبنات، في القسم العلمي.

– ابنته؟

– نعم، أو زوجته. لا أدري. امرأة قريبة منه. ربّما أخت زوجته أو خالته.

– آه.

– لو كنتُ مكانك لساعدْتُها. الأستاذ نبيل خدوم ويستحقّ المساعدة. الحقيقة أني قلت له إن الغرفة غارقة في الملخّصات.

– قلتَ له إني أسكن في غرفة المسجد؟

– هو يعرف أنك تسكن عندي.

– أسكن عندك؟ هو يعرف مثل غيره أنك صديقي وأني أذاكر دروسي في هذه الغرفة التّعِسة من وقت لآخر.

– طبعاً طبعاً. قلتُ له إنك تسكن في أسفل الحيّ وإنك من وقت لآخر تقيم عندي.

– ولكنك قلت له إن الملخّصات أغرقت الغرفة.

تمهّل الأخ يونس، ثم اعتذر مني. قال:

– الحقيقة أنه يعرف عنك كلّ شيء.

– ولكني رجوتك ألّا تخبرَ أحداً. هذا يعني أن المدرسة كلّها تعرف أني أسكن في المسجد.

– لا هو فقط. صدّقني هو فقط.

– ليس صحيحاً. إذا عرف الأستاذ نبيل الحقيقة فإن كلّ جماعته في المدرسة ستعرف، وهم كما تعلم بعدد النمل وأغلبهم من حيّ الضحى.

– الأمور ليست كما تظنّ.

– أنا لا أظنّ. الأمور هي الأمور.

صنعتُ بسبابتي وإبهامي دائرة ونفختُ فيها من قلبي، وترك هو شفته السفلى تهوي.

رحتُ ألمّ كتبي وملخّصاتي، فهرع الأخ يونس إليّ محاولاً منعي. كان يعتذر ويحلف ولست أتذكّر شيئاً ممّا كان يقوله أو يحلف عليه. كنت أفكّر في شيءٍ واحد فقط، شيءٍ واحد لا ثانيَ له. ولست أدري ما هو ذلك الشيء الذي كنتُ أفكر فيه آنذاك والذي لا ثانيَ له.

كانت ليلة من أسوأ الليالي. تخيّلت وجه والدي وهو يتلقّى الخبر: "ابنُكَ يسكن في مسجد للإخوان المسلمين"، فينهض من مكانه مثل طاهش الحوبان ويسأل أمي بصوته النحاسي العميق: "أين الخمسون؟ أين الرصاص؟". ويتعثر بكلماته ثم يسقط أرضاً فترشّه أمي بالماء ولا يفيق إلا حين تضع الخمسين في يده.

تخيّلت أمي وهي تهذي باكيةً: "ابني مجذوب وإلّا كيف؟".

وتخايل لي الحاج علي وهو يحدّث زبائنه على طريقته، وقد وصلَتْهُ حكايتي، يضحك ويحرّك عمامته، ويستنتج: "تعلّم أهل اليمن غلظة القلوب من الأتراك. أين قوم الأشعري؟".

كانت الساعة السابعة إلّا قليلاً، بين المغرب والعشاء، عندما حدث ذلك النقاش. وقف الأخ يونس في الباب، بجسده الضخم ولحيته الناقصة من جهة اليسار. كان يتعرّق، حتّى إنّ نظارته سقطت إلى الأرض ولم يعر الأمر انتباهاً. رجوته أن يفسح الطريق. وبعد نقاش كلّه حلفان، سمح لي بالخروج وقال إنه سيجهّز العَشاء وينتظر عودتي. نظرت إلى الغرفة الفارغة عدا من فرشين، إلى الأوراق المتناثرة على الأرض، ثم نظرت إلى عينَي الأخ يونس الذي قال للتو إنه سيجهّز العَشاء فانفجر ضاحكاً. بقي يضحك وكان مرتبكاً. فيما بعد سيعترف لي بأن الجماعة كلّفته بالأمر: "إياك أن يفلتَ منك". كانت لديهم القدرة، وكان المرء ينزلق إلى عالمهم سعيداً ممتلئاً بذاته. كانوا، في الحقيقة، لا يقدّمون خطاباً ولا نظرية بل الصُّحبة. يعدونك بأصدقاء مخلصين، ثم يرفعون أصدقاءك إلى درجة الأشقّاء. تجد نفسك في دائرة من الأنس، في أخويّة ليس

لها قرار. تشكّ أول الأمر ثم تفقد قدرتك على إدراك طبيعة ذلك الأنس. بينما أنت ماضٍ في ذلك السبيل تنغسل قدماك، وتتداخل عليك القرى والمدن.

الطالب المجتهد أناني. يتسلّل جماعة الأخ يونس إلى تلك الأنانية ويعدونها بما هو أكثر من الدنيا: بالنجاح في اليوم الآخر. لا يكلفونك بمهامّ، أنت التلميذ المجتهد، بل يفسحون لك الطريق. الطالب المجتهد، وقد سمعت هذا الحديث مراراً من الأخوين يونس وعرفات، داعية. ليس عليه أن يصعد المنبر أو يوزّع المنشورات كما يفعل الصبي في رواية **الأم** لمكسيم غوركي، ولا حتّى أن يمتدح الإخوان المسلمين أمام زملائه. ينبغي له، فقط، أن يطالع دروسه ليصبح مرئيّاً أكثر. ثم، وتلك هي القاعدة، إذا بجّلك الناسُ فإنهم سيبجّلون سائر اختياراتك. قال لي الأخ يونس إن الأستاذ نبيل طوّر استراتيجيته الخاصّة: "نريد أن نرى الناس يربطون بيننا وبين الطلبة المتفوقين في جملة واحدة".

أفسح الأخ يونس لي الطريق. غادرت الغرفة. قطعت المسافة بين الغرفة والمدرسة في ساعة كاملة. أو يوم. أو سنة. تأمّلت البيوت، عددتها بيتاً بيتاً. بحثت عن ابنة الأستاذ نبيل في النوافذ. تخيّلتها تنحني وتوقد البَخور. ربّما كانت زوجته. خطر لي أنها الآن في البلكونة تنشر ملابس زوجها وتتأفف متذكرة أيام زمان. ذهبتُ إلى أيام زمانها ورأيتها تسرّح شعرها وتنشر ملابس والدها بينما أمّها واقفة إلى جوارها تتذكر أيام زمان وتنتحب. هبطت إلى أيام زمان أمها ورأيتها هناك في القرية، شابّةً رشيقةً أحدُ نهديها أكبرُ من

الآخر وهي تسأل الجدّة عن السبب فتئنّ الجدّة وتتذكر أيام زمان. ثم هبطت إلى أيام زمان الجدّة فرأيتها في صباها اللعوب تحمل غداء صاحب المحراث على رأسها وتغنّي. كانت الأغنية تناشد الأشجار بأن لا تقول شيئاً إذا سألها الله. كانت الجدّة تمني نفسها بأمور يصعب ذكرها وتئنّ. وكان صاحب المحراث يرى له ولمحراثه حقّاً في تلك القرية، ويفهم كثيراً في معنى الأنين.

آخر الأمر ركبتُ إلى السوق المركزية، وقد آليتُ على نفسي أن أحلّ كلّ مسائل الفيزياء والهندسة الفراغية وأقدّمها هدية مني إلى الأستاذ نبيل ونسائه. حين بلغتُ السوق فعلتُ ما أفعله دائماً إذا دهَمَني الملل أو الشكّ: اشتريت ربع كيلو من التمر السعودي، وكلّ التمر الذي يباع يقال عنه تمر سعودي، وصَعِدت إلى جسر صغير في نهاية شارع جمال عبد الناصر. هناك أكلت التمر وأنا أطالع الحياة والشارع.

على اليسار كان عمّال يرفعون لوحة على ناصية محلّ. الساعة الثامنة والنصف مساءً، أفواج من الطالبات في العباءات السوداء والأكمام الواسعة يخرجن من معهدٍ للّغات بالقرب من الجسر. وصلتني رائحةُ كلّ واحدة منهنّ رغم المسافة التي تفصلنا. وجدتني أمنح كلَّ رائحة اسماً: هذه رائحة منال، هذه رائحة هدى، هذه رائحة ذكرى، هذه رائحة دِينا. عندما قلتُ لنفسي: "هذه رائحة دِينا"، انفجر قمرٌ بداخلي، تسارع قلبي واضطربَت خصيتي اليُمنى وسقط كيس التمر. كانت المدينة مشحونة بكلّ شيء، كلّ

شيء. وكان كلّ ما هو يمين في جسدي، وفي المدينة، أكثر نشاطاً ومهابةً من كلّ ما هو يسار.

صباحَ اليوم التالي، تمام العاشرة، ذهبت إلى الشجرة. وهي زاوية في فناء المدرسة، قريبة من البوابة، يجتمع فيها المعلّمون وقت الراحة ويتجادلون حول السياسة. توقعت أن أجد الأستاذ نبيل، وكنتُ قد عزمت على مساعدة ابنته أو زوجته. كان المعلّمون هناك قد انقسموا مجموعتَيْن: معلّمو الثانوية يتحدثون عن الانتخابات، ومعلّمو الإعدادية يذكرون فلسطين.

رآني الأستاذ نبيل فلوّح بيده مبتسماً. كان وجهه ممتلئاً وإذا أنعَمْتَ النظر فيه فسترى غمّازتين. إن كانت الفتاة ابنته فمن المحتمل أنّ لها غمّازتين، وإن كانت امرأته؟ آه، إن مضى على زواجهما وقتٌ فمن المؤكّد أنّها الآن بغمّازة واحدة على الأقل، وقد تُصاب بالثانية مع الأيام.

قلتُ مرتبكاً كأنّي أريد أن أخطب تلك الفتاة التي قد تكون زوجته:

– لديّ هذا. كتابٌ رائع يشرح الفيزياء بالصور والأمثلة. في نهاية الأسبوع سيكون لديّ ملخّص للهندسة الفضائية.

أمسك بالكتاب وشكرني، قلّبه بين يديه: **أساسيات الفيزياء**. نظر إلى المعلّمين الموجودين، قال إن المسلمين هم من أسّسوا ذلك العلم، اكتشفه جعفر الصادق في مطلع التاريخ. سمعتُ منه، من قبل، أن جعفر الصادق اكتشف الكيمياء أيضاً. لم يكن الصادق يخترع، كان فقط يكتشف. لم يشكرني على الكتاب، ربّما لأنه لم يرد أن يثير انتباه الآخرين. يبدو أن الفتاة زوجتُه. لو أنها ابنته لقال:

سأعطي ابنتي الكتاب. ابنتي تعشق الفيزياء، ابنتي قوية وجبّارة ولا يقف شيءٌ في طريقها، إلى آخر ذلك. لا يسوق المرء مثل تلك المدائح حين يتحدّث عن زوجته. إذاً، والله أعلم، هي زوجتُه.

سلكت طريقي إلى الفصل قبل بدء الحصة الرابعة. جلستُ إلى جوار صديقي شمس. كان شابّاً أبيضَ البشرة وينطق حرف الزاي كما لو أنه سينٌ أو شين. يعرف الكثير في كلّ اتجاه، ويعرف أكثر من أيّ شيء آخر كيف يثير السلفيين. وفي مرّة سأل معلّم القرآن، وكان شيخاً سلفياً درس في الحجاز، عن حكم النظر إلى المردان فتجاهله المعلّم وكتب على السبورة بالخط العريض، في مكان العنوان: شرح الآية ٣١ من سورة النور.

كان شمس، أو شمس الدين الابن، قد سأله قبل أيام عن قول عائشة لابن أختها: "كنّا نعيش على الأسودَين، التمر والماء". راح المعلّم يسرد الحديث، قال إنه ورد عند البخاري ولا جدالَ حول صحّته. غير أن شمس الدين، نجل شيخٍ صوفي مَهيب يحمل الاسم نفسه، استوى واقفاً دون أن يكون المعلم قد أذن له وسأل: "لماذا قالت إن الماء أسود اللون؟".

حين أدرك أن المعلّم يدور مثل جمل أعمى ولا يجد الجواب، قال بصوته الغليظ المليء بالطرافة والودّ: "كان العرب إذا اجتمع الشيئان ينعتون أحدهما بنعت الآخر، كأن يقولوا العُمرين وهم يقصدون أبا بكر وعُمَر".

دائماً ما كان شمس الدين الابن، أو شمس، يجد مسألة أو يأتي بها من بيته. كانت بين المعلّم والطالب حربٌ باردة، عرف كلٌّ منهما

عقلَ الآخر منذ الحصّة الأولى التي خصّصها المعلّم بُحيرى للعقيدة، وبدأ بسؤالنا أين الله. في اليوم ذاك أوقفه شمس وقال: "لا يستوي تقديسك لله وحديثك عن مكانه. الله هو الله، لا تدركه الأبصار وهو السّميع العليم".

ثم قال له شمس:

"العقيدة سهلة، والإيمان أسهل منها. على سبيل المثال: من اعتقدَ بحجر نفعَه ربُّ الحجر".

كان شمس، غالباً، هو من أطلق لقب بُحيرى على الرجل.

توغّل شمس الدين في لعبة بُحيرى التي يجيدها. تبسّم المعلّم، وهزّ رأسه طالباً من شمس الدين أن يجلس في مكانه، ثم قال: "هذا ممّا يُقال في الأسواق وليس في دروس العلم. أورد الأثرَ صاحبُ **اللؤلؤ المرصوع** ضمن الأقوال التي ليس لها أصل، وقال عنه ابنُ الجوزي إنه من كلام عبّاد الأصنام".

ألقى شمس الدين رأسه إلى الخلف وهو يغمغم: "مَلِه ماهوش أكّه وا بُحيرى"[1]. تضاحك التلاميذ الذين كانوا قريبين منه. سرت مقولة شمس الدين في المدرسة بأسرها.

1 باللهجة التعزيّة، وتعني هُنا، في سياق ساخر: لا تبالغ.

كان للمعلم بُحيرى مذهبُه الخاصّ في العقوبة. يأمر الطالب بالوقوف بين خشبتي باب الفصل. سيعرف من يمرّ في ساحة المدرسة أن الطالب الواقف هناك قد ارتكب خطأ وهو يتعرّض للعقوبة. وفي مرّة وقف شمس الدين بالباب، وكانت الشمس كلُّها على رأسه. مرّ أحد تلامذة الإعدادية بالقرب وتوقّف، نظر إلى

شمس الدين وإلى الشق الأيمن من وجه بُحيرى المنهمك في شرح سورة النور، ثم قال بالعربية الفصحى: "أنيكَ أمّك يا بُحيرى"، وولّى هارباً. تداول الطلبة تلك القصة قائلين إن التلميذ نصب الفعل المضارع قاصداً، وإنّ ذلك هو ما أثار حنق بُحيرى لا المسبّة. وجد شمس الدين تلك الفرضية مقنعة للغاية، حتى إنه صاح من فرط حماسته: "السلفي يفرّط في أسرتِه لكنّه لا يفرّط في الفتحة والضمّة". لاحظنا، جميعنا، أن كلمتَي الفتحة والضمّة الطالعتين من لسان شمس لم تكونا بريئتين. كنا سنقهقه بأعلى أصواتنا لو لم يكن معلّم الأحياء، ذو الهوى الناصري، قد وقف بالفعل أمام السبورة وانفجر ضاحكاً بدلاً عنّا.

كان المعلّم بُحيرى طيّباً، يلقي دروسه في مسجد بوسط المدينة، ولم يكن يأبه لما يقال. رآني واقفاً أمام السور على الجهة المقابلة للمدرسة، وكان يوم خميس، فأوقف سيّارته المازدا وفتح الباب بنفسه. ركبتُ إلى جواره، سألني عن وجهتي فقلتُ له: "بيرباشا".

كنت في طريقي لقضاء عطلة الأسبوع في القرية. كان يسوق سيّارته بوقار وهدوء، ويتحدّث. بُحيرى يحب الحديث وكان يعلم أن اسمه صار إلى بُحيرى. يقال إنه كان يعلّم في مدرسة للبنات في الفترة المسائية، وهناك لُقّب بورقة بن نوفل.

سألني إن كنتُ أحضر دروس العلم فقلتُ لا. دعاني لحضور دروس الحديث والعقيدة في مسجده القريب من سينما ثلاثة وعشرين يوليو. "تعرفه؟" سألني. أجبته: "مقابل مطعم البخاري؟" فضحك.

قبلتُ دعوته. خفض رأسه قليلاً كما لو أنه يتحاشى شيئاً ما يطير في الجو، حتى إني خفضت رأسي معه. غمغم: "مطعم البخاري. الناس عجيبة يا أخي". بقي لبرهة مبتسماً، يتمتم: "الله المستعان". سألني إن كان والداي على قيد الحياة فقلت له نعم، قال الحمد لله. كنت مرتبكاً، فأنا أجلس إلى جوار بُحيرى الذي يمكن أن يصبح ورقة بن نوفل فجأةً. أوقف سيارته بالقرب من محطة البنزين في بيرباشا وسمح لي بالنزول. ما إن استويت واقفاً بالخارج حتى عدت ودنوت لأشكره. كنتُ أعرف جيداً كيف أقول له شكراً بالسلفية.

تركته منشرحَ الصدر واتّجهت إلى دكّان الأخ يونس، كان هناك مع زبائنه الأمويين. اصطحبني إلى محلّ صغير لبيع الليمون المكبوس. أخبرته عن دعوة الشيخ بُحيرى وعن موافقتي فارتبك وتلعثم وأظنّه غضبَ. وعلى الفور دعاني لحضور جلسة دينية في مقرّ الجماعة في وسط المدينة، بالقرب من جامع العيسائي. كانت دعوته مفاجئة لي فلم يسبق أن حدثني عن مثل تلك الدروس. في الواقع لم يكن قد مضى على نزولي في الغرفة سوى ثلاثة أشهر، ويبدو أنه تمهّل كثيراً بشأني، ربّما لأنه ظنّ أن لديه من الوقت ما يكفي. تركته بعد وقت قصير، قلت له إني سأذهب إلى نادي الصقر لأحضر تمارين الوينغ شون مع الكابتن منيف ثم سأعود إلى القرية.

في ملعب الصقر كان منيف قد انتهى من تمارين الإحماء وبدأ يقدّم شرحاً نظرياً عن الركلات في الكونغ فو بشكل عام، ويقارنها بتقنيات وينغ شون. وينغ شون لا تعتمد على الركلات، ليس فيها

سوى ركلة واحدة. قوة وينغ شون تنشأ من الكوع والخصر إذا تحرّكا كوحدة واحدة. إذا استخدمت الكوع والخصر في ضربة واحدة فلن تكون بحاجة إلى ضربة ثانية. هكذا، وراح يضرب. كان قد استطاع أن يبتكر فنّاً هو خليطٌ من أكثرَ من مدرسة.

توقّف منيف عن الحديث، وضع يديه إلى جوار جسده، فعلنا مثله، توقّف، أغمض عينيه وقارب بين كفّيه، ثم بدأنا شوطاً بطيئاً من الشهيق والزفير. كان الكابتن منيف يأخذنا معه في تقنيات التنفّس، يعلّمنا أن نرفع يداً إلى أعلى الكتف وأخرى باتجاه القدم، يقول: "أغمِض عينيك، تخيّل أنك تفصل السماء عن الأرض، أنك تمزع السماوات الواحدة عن الأخرى". قبل أن يُنهيَ تدريبنا عاد ليذكرنا بما يقوله دائماً: "لسنا هنا لنتعلّم فنون القتال بل لنفهم. لنفهم الأشياء التي لا يمكن فهمها إلّا من خلال الكونغ فو. حتى الله نفسه..."، قال منيف.

"حتى الله نفسه"، قال منيف مرّةً أخرى.

أصابتنا جملته الناقصة بالتوتّر، ثم انحنينا معاً.

5

عدت إلى القرية.

كان الليل قد ملأ الوادي، بقي شيء خفيف من النهار على ناصية جبل صبر. اقتربت من الشجرة العملاقة، شجرة المِرْباع. والمرباع هو المكان الذي تباع فيه المواشي صباح كلّ أحد. يسكن داخل تلك الشجرة جنّي قديم اسمه الهول. وقد حصل على هذا الاسم من باعة المواشي. ورغم محاولات عُقال الوادي تغيير اسم الجنّي إلى اسم يليق بسمعة بلادنا وبالشجرة، فذلك لم يفلح. تواصى أهل الوادي بالنظر إلى ما بين القدمين عند الاقتراب من الشجرة ليلاً. ومن حسن حظّ الجنّي أن أهل الوادي كافة التزموا بالوصايا ممّا أراحه كثيراً. ففي ماضي الأيام، عندما كان الناس طائشين، كان عليه أن يقوم من مرقده. وإذا قام فإنه يكبر حتى يبلغ عنان السماء ثم يؤدّي حركات غريبة ليعلّم المارّة أن الهول لا يمزح. كان ذلك مرهقاً له، مرهقاً للشجرة العجوز، ومرهقاً لأهل الوادي.

بالقرب من الشجرة ألقيت السلام. فيما مضى كان الوادي عامراً بالجنّ إلى أن عاد أحد الأسلاف بآية الكرسي من الحجاز ولقّنها الناس. راحوا يرددونها ليلَ نهارَ حتى أفزعوا الجنّ. فرّت الجنّ من الوادي، حملت أطفالها فوق الأعناق ودخلت المدينة. بقي الهولُ وحيداً، الشجرة التي يسكنها تتوسط سوق المواشي، وثمّة لا تجوز قراءة القرآن. آية الكرسي لا تصيب من بعيد. غير أنّ بعض

السفلة قرؤوا آية الكرسي في المرباع فأصابوا أنفسهم وأصابوا الهولَ. أصابوه بين عينيه، ولو كان المكانُ طاهراً لقُضيَ عليه.

توقّفت أمام الشجرة لثوانٍ. واصلتُ المسير.

قبل عشرين عاماً مات آخر رجل رأى الهول. قال إنه أطال النظر إلى الشجرة حتى خرج الجنيّ وراح يصعد إلى السماء. مالت كرش الهول الكبيرة على الشجرة وكسرت بعض فروعها العليا، ثم عاد إلى مخبئه وهو يتأفف ويلعن الأقدار. كان اسمُ الرجل الذي رآه قيس، وكان ميت القلب. راحت كرش قيس تكبر شيئاً فشيئاً إلى أن مات بعد اثني عشر وعداً، حين انهارت عليه كرشه وكسرته. والوعد هو الاسم الذي أعطاه أهل الوادي لسوق يوم الأحد.

قلتُ: السلام عليكم ورحمة الله.

إلى جوار الشجرة مسجد صغير بلا سقف. اسمه مسجد المرباع ولا تُقام فيه أيُّ صلاة. وكان من المفترض أن يكون مقهى، لكنّ الناس أبقت عليه في هيئة مسجد تحسّباً لما قد يصدر عن الهول. انتظرتُ لبرهة. لم تهتزَّ الشجرةُ ولم يخرج منها شيء، ولا حتى الرائحة التي تسبق صعود الهول.

في دار جدّي ألقيتُ السلام على الأهل، وجلست. وعندما ذهبوا إلى النوم فتحت كتاب الهندسة الفراغية وشرعتُ في حلّ مسائل الوحدة الأولى على ضوء شمعة. لخّصتها في هيئة حقائق، وضعت كلّ حقيقة داخل مستطيل. لأجل ذلك كنتُ قد اشتريت دفتراً جديداً بغلاف كرتوني أسود اللون مع حواف حمراء. كانت ليلة سعيدة للغاية، شرحتُ فيها لابنة الأستاذ نبيل المسائل الصعبة. كانت

رائحة زوجة الرجل أو ابنته مذهلة، من تلك الروائح التي يجلبها المعتمرون لأهاليهم. وكنتُ سعيداً لأنها لم تفهم شيئاً ممّا قلته، ما يعني أن والدها سيعود ليسألني عن دفتري مرّة أخرى. بعد انتصاف الليل توضأت وصلّيت ركعتين. الإيمان يزيد وينقص، تلك هي عقيدة السلف وهي عقيدتي. وبما أنّ الهول قد شاخ، وزوجة الأستاذ نبيل أو ابنته قد أهلّت، فلا بدّ من تجديد الإيمان، من سجدة في الليل. غفوت قبل الفجر مستريحاً ومخموراً، وتركتُ قدميَّ لأول مرة خارج اللحاف. فممّا لا شك فيه أن الهول الذي ملّ حياةَ سوق المواشي وسئم شيخوته لن يفكّر في الخروج إلى القرى. أتحدّث عن تلك الليلة لأول مرّة، إذ لا يزال أهل الوادي ينظرون إلى ما بين أقدامهم كلّما اقتربوا من الشجرة.

جاء السبت ووصلتُ إلى المدرسة متأخّراً كالعادة، وعلى الفور أخذت العدد الأخير من صحيفة **الثقافية** وسلكتُ طريقي إلى كفتيريا عبد الله البعداني.

أربعة زبائن في الكفتيريا ورجلان يتشابه مظهرهما مع مظهر عبد الله. لم يكن عبد الله يرتدي المعوز والفانلّة كما هي عادته أثناء العمل. كان عليه هندام الدعوة وكأنه يستعد للخروج. علينا ألّا ننسى تلك اللحية التي لا يمكن نعتها بأي شيء. ملأت رائحة البخور، أو العطر، رئتي. ألقيت السلام وجلست على كرسي قريب من الباب ونقّلت عيني في المحل بحثاً عن مصدر البخور. يبخّر عبد الله محلّه في اليوم عدةَ مرّات ولا يستقرّ على رائحة واحدة.

– البخور يلعب بالعقول يا أخ عبد الله.

مازحه أحدُ الطلبة من زبائنه المألوفين.

قال عبد الله، وكأنه كان يحفظ الجواب أو تدرّب عليه:

– البخور يفتح القلب لكلّ الدنيا.

وأشار إلى كرسيّ لا يجلس عليه أحد.

قدّمني إلى رجلين كانا هناك، يشبهانه. قال عنّي كلاماً مبجّلاً جعلني أرتاب بعض الشيء. عبد الله البعداني يبيع الشاي والزلابية ويتحدّث كثيراً، يحبّ الحديث ولا يخاف من ارتكاب الأخطاء. حتى إنه يسأل زبائنه من طلبة المدرسة عن مسائل في الأحياء والفيزياء، وأحياناً يَسُوق نفسه قدماً فيسألهم عن مواضيعَ متعلّقة بفيزياء الجوامد. كان يأخذ إجابة من مجموعة زبائن ثم يحوّلها إلى أسئلة يلقيها على مجموعة تأتي فيما بعد. المعلومة التي قالها أحدُ الطلبة بعد أسبوع من بدء العام الدراسي، والتي تقول إن للقمر جانباً مظلماً، كانت بالنسبة إلى عبد الله البعداني خبرَ العام. راح يسأل زبائنه ويفاجئُهم بها، قليلون فقط كانوا يبدون دهشتهم أمام تلك المعلومة ولكنّ البعداني واصل التبشير بها، ثم أصبح يعُدّ زبائنه الذين اندهشوا. كان ينظر إليّ من أعلى كتفه وهو يفرد عجينة الزلابية ويهمس ضاحكاً، بعد أن ينصرفوا: "نتعلّم من هنا ونعلّم هنا". سألته مرّة واحدة فقط لماذا يعُدّ الزبائن الذين لا يعرفون عن الجانب المظلم من القمر فقال: "هكذا يا أخي". قام يجمع الكاسات الفارغة وقصاصات الزلابية من الأرض وهو يتمتم: "حلف القمر يمين وقال لي"، فقاطعَه صوتٌ واقف بالباب: "كم حسابك يا أخ؟"، فقال: "عشرون" ونسي الأغنية.

لماذا امتدحني عبد الله البعداني أمام رفيقيه بتلك الطريقة، ولماذا أسعد كلامُه الرّجلَين؟ قلتُ له ممازحاً، مستعيراً ما يقوله أبي حين يسمعني أدلّل أمي بالأشعار:

– من أين لك هذا الملَق والدلال؟

قال أحد الأخوين، طرباناً وضاحكاً وهو ينظر إلى عينَي البعداني:

– من علّمك يا بابليّ العيون، هذي المعاني الحالية والفنون.

فتنادى الأخ الثالث، كأنه ثمل أو يحتضر:

– الله الله يا إخوة.

غمغم زبون بكلام لم أسمعه ثم استوى واقفاً. همّ البعداني بقول شيء لكنّ الشاب دفع حسابه وغادر. جلس الأخ الأكبر، وكان اسمه حمود، إلى جواري. سألني عن أبويَّ، قلت إنهما في القرية. قال حدِّثْني عنهما، فقلتُ:

"أبي سعيد ببناته وأمّي مسرورة بأبنائها".

هزّ الرجل رأسه وقالَ: "الله".

"راضية عنك؟"، سأل.

قلت: "كلّ الرضا".

جلس الأخ الآخر إلينا وقال:

"إنهن الأمّهات، مَن شئنَ أدخلنَ الجنّة ومَن شئنَ أخرجنَ منها".

أمسكتُ بكوب الشاي ورفعته إلى محاذاة شفتي. قلتُ وأنا أنظر إلى طبقة الحليب التي تكثفت على السطح:

– يرى الألباني أنّ هذا القول موضوع ولا تصحّ نسبته إلى رسول الله.

– الألباني شيخٌ جليل لا يعرف خطورة ما يقوله. كلّ خير مصدره النبي وإن لم يقلْه.

– ولكن تقويل الأنبياء كلاماً لم يقولوه افتراء عليهم.

– الافتراء يكون بتقويلهم كلام السوء وليس الكلام الحسن.

– نسبة القول إلى غير مصدره افتراءٌ بصرف النظر عن مضمونه.

– النبي مصدر كل خير وأصل كلّ كلام حسن، كما أن الشيطان مصدر كلّ شر. وبالتالي، لا يوجد افتراء في نسبة الخير إلى حبيبنا محمّد عليه الصلاة والسلام، ولا في نسبة الشر إلى الشيطان.

ثم قال حمود:

– ترى النبي في كل خير، وتسمعه في كل ما يرضي الله ويرفق بالعباد. من قال إن الشيطان فقط هو من يجري من ابن آدم مجرى الدم؟ النبي أيضاً يجري من ابن آدم مجرى الدم. النبي ليس شخصاً ولد ومات، بل نهرٌ أبديٌّ يتدفق من قبل أن يخلق الله الأيام والسنين. هو جماع الخير كله والجمال كله. سأله جابر رضوان الله عليه ما أول ما خلق الله؟ فأجابَه محمّد: نور نبيّك يا جابر.

ثم قال، وهو يمسك بكفي ويمنحني نظرة لفرط ما بها من ود ارتبتُ في معناها:

– هذا العالم مقسومٌ منذ الأزل قسمَين: النبي والشيطان. وهما يعيشان جنباً إلى جنب، يقتسمان الشيء نفسه، يعيشان في دم العبد ويجريان معاً في خطين. كلّ شيء في العالم ثنائي، ونحن بين تلك الثنائيات، نميل أحياناً إلى جانب الشيطان وأحياناً إلى جانب النبي. القمر نفسه مقسوم إلى جانبين مظلم ومشرق،

القلب مشطور إلى اثنين ميت وحي. داخل كل شيء ضدّه، ولولا الشيطانُ لما كان لنبيّنا محمد ذلك البهاء، ولولا نبيُّنا محمد لما كان الشيطان بكلّ ذلك القبح. والضدّ يظهر حسنَه الضدُّ.

تماسكتُ، قلتُ بعناد:

– النبي عبدٌ لله، هذه عقيدةُ المسلم. أمّا حديث جابر فهو قول موضوع، والقول الموضوع مرفوض أيّاً كانت نوايا مؤلّفه.

– وماذا تقول في ما رواه أحمد: "إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدلٌ في طينته؟". هاه؟

– لا أدري ما يُقصدُ بذلك، ولكن تقسيم العالم إلى النبي والشيطان هو تأليه للنبي وتأليه للشيطان. لماذا لا نقول إن كان ولا بدّ: الله والشيطان؟

– يبدو أن العبارة قد وصلتك، وهذا حسن. ولكني لا أحبّ أن أضع الشيطان نداً لله. ثم إن النبوّة فكرة إلهية، الله هو من أوجدها ونفذها. فالنبي هو شيء متأله ابتداء، سواء أقبلنا هذا الشيء أم استهجناه. كل ما هو صادرٌ عن الله هو إلهيّ في كينونته. ألم يقل الله {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}؟

– العقيدة واضحة، تعقيدها يحوّلها إلى خرافة كما يفعل الصوفيون. روى البخاري من حديث عُمر: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله".

– وأنا لم أقل أكثرَ من ذلك.

– قلتَ إن النبي يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو أول نور في العالم. ماذا أبقيت من التّأليه؟

– هذا ليس تأليهاً ولا حتى إطراء. أنا أصف لك النبوّة. النبوّة يا إخوة – كأنه يلقي خطبة – شلال لا ينقطع بموت الأنبياء وإلّا لزحف الجانب المظلم على كل القمر. كما أن الشيطان لا يموت، فالنبوّة لا تموت. ألم يقل الرسول ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات، قالوا ما المبشرات قال الرؤيا الصادقة؟ هذا حديث من أحاديث البخاري. المشكلة الوحيدة هُنا هي أن الحديث يقول ذهبت النبوة، والصحيح: ذهب النبي وليس النبوّة. النبوّة لا تذهب إلا إذا هجر الله العالم، والله لا يفعل ذلك. هذا ليس افتراء على الله، ولا سوقاً للكذب. الرؤيا الصادقة نبوّة. وغيرها وغيرها. الله لم يطفئ النور بموت محمّد. تأليه النبي محمّد هو القول إن النبوّة انتهت بموته، هذا هو التّأليه والتقديس. كل ما ورد في القرآن والحديث عن هذه المسألة هو مجازات وإشارات. علينا أن ننصرف عن سطحها الخارجي إلى جوهرها، وأن نعرض استنتاجنا على ما نعرفه عن الله وعن رحمته بعباده. كل تأويل يضرّ بالعباد أو يخالف ما نعرفه عن رحمة الله ولطفه هو تأويلٌ فاسد.

لم أجدْ ما أقوله.

كنتُ حتّى تلك الساعة تلميذاً أتيح له أن يتخيل الله على طريقة السلفيين. على باب غرفتي علقت ذلك الجدول الشهير: عقيدة كل مسلم. وهي قائمة من 54 سؤالاً أوّلها لماذا خلقنا الله؟ وآخرها متى ينتصر المسلمون؟ كانت الورقة مقسمة إلى أربع خانات: السؤال، الجواب، الدليل من القرآن، الدليل من السنّة. وكنت أحفظ تلك الوثيقة عن ظهر قلب.

ووجدت ما سمعته مقنعاً وكامل الوضوح. استطعت بيسرٍ دمجَ ما قاله رجل التبليغ مع عقيدتي السلفية. ما سمعته في تلك الساعة كان مفاجئاً وجديداً، ولكنه أيضاً كان ممتعاً ومشوّقاً. كنت شخصاً مولعاً بالجدل، وكانت العقيدة بالنسبة إليّ أمراً شبيهاً بالرياضيات أو النحو، أسئلة واستدلالات من يحفظها سيكسب أي معركة، وسيذهب إلى الجنة في آخر المطاف. لا يتعلق الأمر بالوصول إلى تصور عن حقيقة الله بل بلعبة ممتعة ومسلّية. أحببت لعبة العقيدة وأجدتها، وصار بمقدوري أن أهزم أيّ خصم فيها. الآن في كفتيريا الدعوة، في محل الأخ عبد الله البعداني، أخذت اللعبة شكلاً جديداً وخسرتها عن طيب خاطر. منزلة الله التي عرضها الشيخ التبليغي كانت مختلفة عمّا أعرفه، وسرعان ما صارت ما أعرفه. ثمّة نور قديم في العالم هو نور النبي محمّد، النور إلهي والرجل بشري، وهو كائن عالٍ بين الفناء والخلود. العالم منشطرٌ إلى ظلام ونور، في النور يسكن النبي، ونبوّته لا تموت بعد موته. ولكنه أيضاً خاتم النبيين، وليس خاتم النبوّة. الله. الله. تبدو هذه اللعبة أكثر إثارةً من سابقتها.

وعندما فتحت المدرسةُ بوّابتها بعد الحصة الثالثة دخلتُ.

كان أوّل ما فعلته أن بحثت عن الأستاذ نبيل لأسلّمه ملخّصات الوحدة الأولى من كتاب الهندسة ليضعها مساء اليوم بين يدي الفتاة التي قيل إنها زوجته، وقيل إنها ابنته. تركته غارقاً في دهشته، محتاراً بين الشكر والشك وقد أيقنت كلّ اليقين أن النبي يجري منه ومن ابنته مجرى الدم. وقبل أن أتركه وعدته بأسئلة

الوحدة الثانية في الأيام القادمة. كانت حيلة عبقرية لم تخطر على بالي من قبل. سيذهب الأستاذ نبيل بالأوراق ويجيء، ستقع عيناه على عينَي ابنته ثم على بصيرتي. سينقل المكاتيب. من هي؟ لا يهمّ. أمر مهول أن أتخيل معلّماً مهيباً من الإخوان يعمل مرسال غرام بيني وبين ابنته. ولو جعلنا الأمر أكثر فداحة لقلنا زوجته.

ألهبت الحكاية خلايا الشيطان، جعلتني أنظر إلى بوابة المدرسة كلّ صباح مثل كلبٍ مسعور. وهالني أن فكرتُ للحظة واحدة: ماذا لو أن شيئاً من النبوّة قد بلغ الأستاذ نبيل، أن الرؤيا الصادقة تأتيه، وأن الله يحبّه ويرفع عنه الحجاب من وقت لآخر؟ يدافع اللهُ عن رجاله في الحياة الدّنيا، ولو أنّ الأستاذ نبيل منهم لهلكْتُ.

6

كنتُ أرسم ضفدعة عندما وصل الأخ يونس إلى الغرفة مصطحباً الكابتن منيف.

رسمتُ للضفدع ساقَيْ فتاة وأسميْتُها دِينا. باعدتُ بين ذراعيها قليلاً، وأكثر بين ساقيها. أمسكتُ بالورقة وأبعدتها عن عينيّ ثم قرّبتها. أردت أن أرى فيها ما لم أقدر على رسمه. سمعت هديراً، كأنه النبوّة نازلة في التاريخ.

جلس الكابتن منيف إلى جواري. وقعت عينه على الورقة وضحك. بقي يطالعها ويهمهم كأنه يحدّث شخصاً آخر: "كان لرجل إصطبل مليء بالخيول، وبقرة أسماها الشقراء. وكان كلّ صباح يفتح الإصطبل لخيوله فتركض في الحقول، وحين تراهم الشقراء تركض معهم. ثم صار كلّ صباح يفتح لها الباب قائلاً: مع الخيل يا شقراء".

– هذه ضفدع.

قلْتُ.

– ولماذا خطر على بالك أن ترسم ضفدعاً؟

– كنتُ أقرأ باب الافتراس في كتاب الأحياء، أعجبتني الصورة فرسمْتُها.

– أنت متأكّد من أنّها في باب الافتراس؟

ضحك الأخ يونس.

رفع منيف الورقة ليريها الأخ يونس الذي كان واقفاً، فتقافرت الضحكات إلى السماء وإلى الجبل وإلى كل مكان، لم يبقَ سهلٌ

ولا وادٍ لم تصلْه ضحكته.

كان مساء يوم اثنين، المدينة تضجّ سياسة حتى إن المرء بالكاد يسمع صوت نفسه. كان المعلّمون يدخلون الفصل في مواقيتهم، ويقفون أمام السبورة إلى أن ننتهي من نقاشاتنا وأحياناً يسهمون في الحديث، عدا بُحيرى. كان يصل في موعده وعلى الفور يكتب: "المادة: دين". ثم يكتب تحتَها: "تفسير سورة النور". بقي يفسّر السورة عاماً كاملاً، وكانت دروسه من أعظم الدروس.

سرعان ما عاد الحديث إلى البقرة الشقراء. قال منيف مخاطباً الأخ يونس، والورقة في يده، إن خطيب المسجد الذي يقدّم نفسه مرشّحاً في الانتخابات هو الخيل الشقراء. كما لو أنّهما يستكملان نقاشاً قديماً.

ثم التفت إليّ، وكان شديد البراعة في الحديث عن مواضيعَ متباعدة في الوقت نفسه. أشار بسبابته اليسرى إلى ساقَي الضفدعة وقال:

– هذان مساران للطاقة.

ثم وجّه حديثه إلى الأخ يونس:

– مع الوقت يرى الخطيب نفسه وقد أصبح خيلاً مع الخيول. أتدري لماذا خطباء المسجد هم الأخطر؟ لأنهم الفئة الوحيدة من القادة الذين لا ينبغي للمرء أن يتفوّه أمامهم بكلمة وإلّا فلا دينَ له. لم يسبق لهم أن رأوا الشعب، هم فقط يرون الـمُصلّين. حين يخرج الخطيب من مسجده ليتحدّث إلى الناس فسوف يراهم على هيئة مصلّين. سينتظر منهم ما يتوقّعه من الذين يجلسون أمامه يوم

الجمعة، أعني الصمت والامتثال. سيحدث صِدام ليس في مصلحة السياسة، وسيظنّه الخطيب لمصلحة الدين.

عاد ليشرح لي مسارات الطاقة على ساقَي الضفدع.

قضى الكابتن منيف جزءاً من حياته في مدينة جدّة، هناك تعلّم أكثر من فنّ من فنون الكونغ فو، واستطاع أن يمزج بين الشاولين والوينغ شون. سأكون دقيقاً إن قلتُ إنه يرى الكونغ فو والدين يسبحان في المدار نفسه، يخرجان من النهر ذاته ويصبّان في الساقية نفسها.

تحدّث في تلك الليلة عن القمر، عن جانبَيْه المضيء والمعتم. حديثه هزّ جسدي بالكامل وخفت أن أقول شيئاً. كما لو أنه الشيخ حمود، التبليغي الذي حدثني عن الشيء نفسه.

قال منيف:

– هذا العالم عبارة عن دائرتين متداخلتين، النور والظلام. الأنبياء سيقولون الخير والشر. الكونغ فو يقول: الطاقة المظلمة والطاقة المشعّة. تتداخل الدائرتان كموجتين، موجة بيضاء وأخرى سوداء، الشر داخل الخير والخير داخل الشر. الحدود بينهما موجية لا يمكن تثبيتها، لأنها تتحرك كل الوقت مدّاً وجزراً. تذكَّرْ – كان يقول وهو يشابك بين أصابعه – كيف مرّ عليك النهار. موجات من الأفعال السيئة والحسنة، من الطاقة السوداء والبيضاء في الآن نفسه. تفسح لفتاة مقعداً في الباص وتتخيلها. الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس. الخير ما لا تخشى الإفصاحَ عنه. في كل مرة تفصح عن خير أنت أيضاً تكتم نقيضه. داخل كلّ من

الدائرتين تتدفق العناصر الخمسة على شكل موجات: التراب، الخشب، النار، الصلب، والماء. كل موجة تلد ابنتها وتأكلها في الوقت نفسه. النار تلد التراب، التراب يلد الصلب، الصلب يلد الماء، الماء يلد الخشب، الخشب يلد النار، النار تلد التراب، التراب يلد الصلب، الصلب يلد الماء، الماء يلد الخشب، الخشب يلد النار. ثمّ: النار تأكل المعدن، المعدن يأكل الخشب، الخشب يأكل التراب، التراب يأكل الماء، الماء يأكل النار، النار تأكل المعدن، المعدن يأكل الخشب، الخشب يأكل النار، الـ... وهكذا.

– من وحي الضفدع حديث ذو شجون.

شاغبَه الأخ يونس، وكان واقفاً يحاول أن يعلّق قميصه على مسمار في الحائط. المسمار شديد القرب من جُملة على الحائط تقول: "إنّما يتعثّرُ من لم يخلص".

كان دائماً ما يحاول، بسخريته، كبح عجلات الكابتن منيف. ولمنيف عجلاتٌ إن دارت لا ننام:

– لا توجد أشياءُ حقيرةٌ وأخرى غالية. قال العربُ عن الذرّة إذا فتحتها تجد في وسطها شمساً. نواة الذرّة في صغرها اللامتناهي هي شمس قائمة بذاتها. ما الشمس؟ هي نجم عملاق من عناصر تافهة.

– أظنّ أن النور والظلام هما آخر شيء خطر على بال صاحبنا وهو يرسم الضفدع.

قال الأخ يونس. وكان هناك ضحك.

كان الضحك عالياً ومُتعباً. وكان جبل صبر في مكانه يسند المدينة من الجهة الجنوبية كعادته. ومهما ضحك الناس، ولو ضحك كلّ الناس، لما شعرت المدينة بشيء.

مساء الغد، الثلاثاء، وصلتُ إلى مقرّ الإخوان في وسط المدينة. صلّيت المغرب في مسجد القرشي، وما إن سلّم الناس حتى وقف شابٌّ من السلفيين، لحيته خشنة وملامحه تشي بهروب طويل أو هجرة. كان كاشفاً عن صدره ويتحدّث كحاكم أوجعته رعيته. قال:

"سأل الناسُ رجلاً أعرابياً لماذا تمشي كاشفاً عن صدرك فقال لأني رأيت رسول الله في المدينة كاشفاً عن صدره. يا إخوان، ذلك الأعرابي لم يرَ النبيّ سوى مرة واحدة فتشبّث بما رآه منه".

توقف فجأةً عن الحديث وراح ينظر يميناً ويساراً ثم قال مشيراً بيده إلى قلبه:

"أتلومونا على حبّ الله ورسوله؟".

نظرتُ إلى المصلّي الذي يجلس إلى يميني ما إذا كان هو الذي يلومه، فنظر إلى يمينه يبحث عمّن لام الرجل. كلّ مصلٍّ في ذلك المساء نظر إلى يمينه إلى أن وصلت نظرات الرجال إلى الجدار. الرجل الذي كان يجلس بمحاذاة الجدار نظر إلى مَن يجلس إلى شماله، فنظر كلّ رجل إلى شماله حتّى وصلت النظرات إلى الجدار الآخر. لم يبقَ في المسجد من أحد لم ينظر إلى يمينه وشماله بحثاً عمّن لامَ الفتى عاريَ الصّدر على حبّه لله ورسوله.

قمت وصلّيت ركعتي السنّة وغادرت. في الخارج كان الأخ عرفات في انتظاري. لم يكن قد مضى على صداقتنا سوى وقت قصير. كان

يحمي مدينة تعز برائه الزهرانية، ولو أتيح له أن يحمي سائر المدن لفعل.

– طلب مني الأخ يونس أن أوصلك إلى المقرّ.

– وهل سيأتي؟

– سيتأخّر قليلاً.

– وأنت؟

– سأوصلك إلى المقرّ وأتركك. أنا في دائرة أخرى.

مرّة أخرى: الدوائر. سألت نفسي وأنا أقف أمام بوابة المبنى: ما الذي جرى للناس وللمدينة؟ لماذا صار كلّ شيء يأخذ شكل دائرة؟

كان المقرّ عامراً بالبخور، وبالرغم من أنه كان خالصاً للرجال فإنّ روائحَ أنثوية تدفّقت من الجدران. كدت أفقد وعيي. دعوني أعترف: لقد وجدت رائحة دِينا التي ربما كانت طالبة جامعية، أو مجرّد زوجة صالحة كلّ شاماتها في قفاها. إذا زادت شامات المرأة صارت لعوباً. وتصير لعوباً أكثر إذا أمكنها رؤية شاماتها. امرأة بلا شامة هي شمس بلا كواكب.

الغرفة التي سنلتقي فيها تقع في الدور الثالث.

هذا ما خطر على بالي آنذاك وأنا أصعد الدرج المغطى بتشكيلة من السجّاد الأحمر والأزرق: البخور والشامات. وقلتُ لنفسي: أيلومونا في حبّ الشامات؟

بدأ الدرس بتعارف مختصر، وكان الأستاذ نبيل يجلس في الواجهة. كانت أسماء الحاضرين متشابهة، كل اسم أنساني الآخر. قيل إنه لقاء إيماني، وإن الغاية منه أن يؤازر الواحدُ منّا الآخرَ في

هذه الدنيا الموحشة. بدأنا اللقاء بتأملات في سورة الأنفال من كتاب **في ظلال القرآن**. كان حديثاً عن عناصر القوة الثلاثة: العقيدة، الجماعة، والساعد. كان الأستاذ نبيل يوقف الشخص الذي يقرأ التفسير ليفصّل بعض النقاط، مثل: الجهاد من أجل الدفاع عن حريّة الاختيار. أثارت انتباهي تلك النقطة كثيراً وعجزت عن دمجها مع قول النبي: "أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله". يصبو الجهاد إلى إخضاع الناس لله، هذا ما يقوله سيد قطب في تفسير الأنفال. يدعو العالم كله إلى الاستسلام. لا أظنّ أنّ الأستاذ نبيل قد لمح الأسئلة التي كانت تجري في عقلي تلك الساعة. انتهى الأخ من درسه فتسلّم الأستاذ نبيل زمام الحديث ولخّص الدرس على طريقة احمِل هذه الرسالة معك.

قال:

"ذلك معنى لا إكراه في الدين. الإسلام لا يحارب من أجل إدخال الناس في دين الله، بل من أجل فتح الأبواب للناس إن شاؤوا آمنوا وإن شاؤوا بقوا على كفرهم. الدول الظالمة تغلق تلك الأبواب، ذلك هو معنى الطاغوت. والحرب على الطاغوت هي حربٌ من أجل الاختيار الحر".

بدا واضحاً أن الأستاذ نبيل أكثر شأناً من كونه معلّماً في المرحلة الإعدادية. وبالنسبة إليّ، أنا الذي وقع عليه الاختيار ليكون مسلّياً لنسائه الرائعات، فثمة خطر داهم. اخترت رجلاً يفكّر في فتح البلدان ليكون رسول غرام. ما الذي دهاني؟

في غرفتي، غرفة المسجد، واصلْتُ حلّ أسئلة الوحدة الثانية من أجل ابنة الأستاذ نبيل أو زوجته، من أجل ابنة محمد الفاتح. إلهي. بدا لي الأمر، في الساعة تلك، وكأني مملوك في القصر طلب منه السلطان تسلية زوجته أو تعليمها الإعراب. وجدت الأمر ممتعاً. داخل المرء، كلّ منّا وكلّ منكم، رغبةٌ دفينة في الاستمتاع بخوفه. ترتبط تلك الرغبة بالأثر الماسوشي لدى الكائن، وإن كانت أكثر تعقيداً، تكاد تكون سمة بشرية اعتيادية.

الآن أكتب لزوجة السلطان أو لابنته أو لهما معاً، سيحملها الرجل الذي قال لنا إنه يفكّر في فتح البلدان. يا لَلهول. سأدسّ لها بعض الكلام داخل مسائل الهندسة. أضع قدميّ على الهاوية، أشعر بالوجل العميق، بلذّة الهاوية.

سأكتب مثلاً:

”ولمّا شربناها ودبَّ دبيبُها *** إلى موطن الأسرار قلتُ لها قفي“

ولكن ما شأن هذا البيت بتسلية نساء السلطان؟

حللت المسألة الرابعة، كتبت تحتها: ”جاءت معذبتي في غيهب الغسقِ“. وجلستُ أنتظر كما لو أنها ستردّ. انتظرت إلى أن سقطت في النوم، كنت منهكاً. في نومي أوقفني الأستاذ نبيل وقال لي: أعرِب معذّبتي. قلتُ له: فاعل مرفوع بضمّة مقدرة. حدّق في عينَيّ ونكش جبهتي بعصاه الغليظة، كانت له عصا غليظة وكان ينكشني بطرفها المشرشر. قال بصوت أجش: ضمة مقدرة؟ ارتجفت ركبتاي وعلق طرف لساني في سقف حلقي، فتركني. تركني وذهب ليفتح البلدان، وبقيت في مكاني أعرب معذّبتي.

مرّ الأسبوع سريعاً أو بطيئاً، أو أنه لم يأتِ قطّ. ها أنا أتلقّى دعواتٍ لحضور دروس دينية في أماكنَ مختلفة من المدينة. فتحوا لي أسواقهم. الأستاذ بُحيرى السلفي دعاني لحضور دروسه في مسجده، الأخ يونس أرسلني إلى دروس في المقرّ، عبد الله البعداني عرض علي الخروج ثلاثة أيام مع جماعة التبليغ في سبيل الله. وها صديقي شمس الدين المتصوّف يضحك، يضحك حتى تختفي عينه اليسرى ويدور حول نفسه ألف دورة أو ألفين، ثم يتوقف عن الدوران وعن الضحك ويسألني جاداً:

– ما رأيك لو أعرّفك على الوالد؟

فأسأله فزِعاً:

– شمس الدين الأب؟

– أيوه، شمس الدين الأب. والدي من شيوخ الطريقة.

– شيوخ الطريقة؟

كانت الفتّة التي تناولْتُها في منزل شمس الدين الأب ذلك النهار من أعظم ما جادت به اليمن على مرّ العصور. ولو أن كلّ يمني أخذ نصيباً منها لأصبح لدينا أعظمُ الجيوش وأمنعُ الحدود وأصلبُ الأفئدة. سألني الأب إن كنتُ قد قرأت **الكبريت الأحمر**، فقلتُ إني سمعت أجزاء منه من جدّي. أظهر اهتماماً بمعرفة من هو جدّي ولماذا كان يقرأ **الكبريت الأحمر**، وهل كان يلقيه على مريدين أم يقرأه لنفسه، وأجبته.

– أخبرني الولَد شمس أنك مهتم بالشعر وبالسياسة.

قالَ مبتسماً.

– اهتمامي بالشعر أكثر من اهتمامي بالسياسة. الحقيقة أني أحوّل السّياسة إلى شعر.

ضحك شمس الدين الأب بصوت وقور، قال:

– إذا دخل الشعر في السياسة أصلحها، وإن دخلت السياسة في الشعر خرّبته.

وقال بصوت يشبه أصوات الرعيان:

– أسمِعْني ممّا تحفظ من الشعر.

قلتُ:

– ولمّا شربناها ودبَّ دبيبُها *** إلى موطنِ الأسرارِ قلْتُ لها قِفي

مخافةَ أنْ يَسطوَ عليَّ شعاعُها *** فيظهر ندماني على سِرّي الخَفِي

– الله، الله. فيظهر ندماني على سرّي الخفي.

ردّد، وسألني:

– أتدري لمن هذا الشّعر؟

فقال شمس الابن وهو متكئ يحدّق في صوت والده:

– أكيد لأبي نوّاس.

هزّ الوالد رأسه. ثم قال وقد تحلّى صوته بمزيد من المهابة:

– موطن الأسرار، موطن الأسرار يا أبنائي. هو أول وهو المحلّ الثاني. أبو نواس يتحدث عن القلب، والعرب تسمّيه موطن الأسرار أو موطن الحلم. هناك تعيش الحقيقة، وهناك يتجلى الله، الله هو السرّ المخفي. هناك يصعد اليقين ويهبط، وهناك الكبريت الأحمر. إذا صلح موطن الأسرار صلح باقي الجسد وصلحت كلّ الدنيا.

موطن الأسرار هو ما يفيض على الجسد ويسقيه ويصلحه وليس العكس. الثياب القصيرة واللحى الطويلة لا تعمر قلباً ولا تصلح خراباً. إذا عُمر القلب بالله فلتمشِ عارياً كما فعل بعضُ العارفين. هذا القلب هو بيتُ الله وأنت تحرس هذا البيت وترعاه. لا تُسكِنوا الله في أسوأ البيوت.

عاودَتْه الابتسامة وقال:

– أعرف أن المدارس تعلّمكم أشياء أخرى. ولكن مهما تعلمتم من العلوم لا تنسوا حظكم من العلم اللدُنيّ، من العرفان.

– كيف نحصل على هذا العلم؟

– العلم اللدني ليس كتباً لأنه ليس معرفة بل عرفانٌ. هو علم الحضرة والحضور، علم الأُنس والرضا، علم ترى فيه ولا ترى. علم اخلع نعليك، وأجلَسني ثم قال. لن تصل إلى اللدنيّة وأنت تلبس هذه النعال وتلك الخرَق. وإذا لم تصل إلى اللدنيّة فأنت لم تصل إلى شيء. ولكن إن سعيت إليها ولم تصل، إن طرقت الأبواب وأدركتك الأقدار قبل أن يُفتح لك، فقد عرفت. أن تعرف الطريق إلى الحقيقة هو نصف العرفان، وأن تعرف الحقيقة هو العرفان كلّه. هو بحر وقفت الجيوش على شاطئه. ماذا لديك من علوم السر؟

– علوم السر؟ أقرأ القرآن كلّ يوم.

– وماذا تتعلم من القرآن؟

– النحو، اللغة، علم الحلال والحرام، أخبار الأمم السابقة.

– لا بد يا ولدي أن تفرّق بين أمرين: القرآن وخزائن القرآن. القرآن كلام في متناول كل الناس، كل من يجيد القراءة ومن يقدر على

السمع، هو كتاب المدرسة والمنزل. ولكن خزائنه لا تمنح أسرارها إلا لمن يملك المفاتيح. إذا قرأت القرآن فإن اللغة تدلّك إلى ظاهر الأشياء، ولكنّ الأسرار لا تُدرَكُ إلا بالكشف. هو الفرق بين الكلام والإلهام كما يقول سادتنا. هذه أمور تأتي بالرياضة.

سمع شمس الدين الأب أصواتاً فأنهى حديثه وقام من مكانه معتذراً وقد وعدني بمواصلة الحديث في الأيام القادمة.

كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهراً.

ما من شيء كان يحلّق في سماء تعز آنذاك عدا ما تلقيه بعض النسوة سرّاً من نوافذهنّ.

أو كلمات شمس الدين الأب التي خرجت لتوّها وصعِدَت إلى سماء الله، مارّة بالقرب من الجهة الغامضة من القمر.

7

عدتُ مرهقاً وغفوت في زيّي المدرسيّ، الأبيض والبيج. صحْوُت على أذان صلاة العِشاء.

نزلتُ للصلاة، وقفت في الصف الثاني. قرأ الإمام من سورة الواقعة. في الليلة السابقة قرأ من سورة تبارك. لا يقرأ ليلاً إلّا من هاتين السورتين، قال ذات مرّة إنهما تحميان من الشُّهُب. كان الإمام رجلاً غامضاً من سكّان الحيّ، وكانوا يقدمونه إذا غاب الأخ يونس.

يتساءلون: أين الأخ؟

يتقدّم الأخ.

بعد الصلاة ذهبتُ إلى دكّان الحاج علي لأشتريَ لُقمتين لعَشائي. ولما رآني لا أزال في الزيّ المدرسي حيّاني بهزة من رأسه وابتسامة. كان دائمَ الابتسام، وكان يسمّي الابتسامة ضحكة. أظنّ أن الحاج علي هو من جاء بقصة الشُّهُب إلى حيّ الضحى. كان يشير إلى حفرة بعيدة من الحي، حفرة على الجبل. لن تلبث أن تقول "نعم رأيتُها" حين يلحّ عليك بالسؤال وسبابته تشير إلى مكان لا يراه سواه.

– الله جابك. تعرف تضرب إبر؟

– أيوه.

– اضرب لي الإبرة هذي. أحسّ بحمى من الصبح.

رفع الحاج علي زنّته وكشف عن وركه الأيمن فغرزتُ الإبرة حتى منتصفها وحقنت الدّواء. راح يفرك وركه وهو يقول: "يا أخي إبرة بنت كلب. ما تعرفش إبر أحسن منهن؟ قالوا بُه بنسلين هندي في المستشفى العسكري؟ تقول صدق؟ الهنود مساكين".

أعفاني الحاج علي من قيمة الزبادي وحمّلني السلام إلى كلّ الناس. "سلّم لي على الناس"، يقول. "اللي تعرفهم واللي ما تعرفهمش"، ويضحك. وحين يكون أكثر سكينة يقول: "على البشرية جمعاء".

لم أنمْ تلك الليلة.

وحين انتصَفتْ أحسسْتُ بدوار في رأسي. راح شيءٌ ما يغلي في رأسي، كأنّها نارُ مشرّدين. سمعت في طفولتي من امرأة يقال لها حفصة المجنونة أن الرأس يغلي إذا حدّق الرجل في دُبر امرئ كذّاب. قمت وتوضّأت أمام باب الغرفة. كان كلّ شيء في الدّنيا غافياً ومستوياً، والله يتدبّر شأنه. ما من شيء كان يصعد إلى السماء سوى القصص الصغيرة التي لا وزنَ لها. وكان الأخ يونس نائماً، ولا بد أنه كان يحلم بالأمويين. عندما أشعلت الضوء رأيته مبتسماً. تهجّدْتُ بركعتين، دعوْتُ لأمّي في السجود، وجلسْتُ في مكاني بعد التسليم.

للأخ يونس شقيقٌ أكبر منه يكنّي نفسه بـ"أبو الفضل" وهو من السلفيين المعروفين في المدينة. مع الأيام نسي الأخ يونس الاسم الحقيقي لشقيقه. حتى إننا فكرنا، هو وأنا، في أن نرسل

رسالة إلى القرية لنتحسس عن اسم أبي الفضل قبل أن تجعله الأيام أبا الفضل.

– لماذا نعقّد المسألة؟ لننتظر حتى تأتيَ أمّك من القرية ونسألها.

قلْتُ للأخ يونس.

– أمّي تزور المدينة مرّة في السنة. ربّما هي نفسها لم تعد تتذكر الاسم.

– مستحيل.

– هذا ما قالته لي والله. قالت إنه كان يغضب إذا ناداه أحد باسمه، ومع مرور الزمن نسيناه.

– والوالد الله يرحمه، ألم يكن يناديه باسمه؟

– الوالد؟ بعد أول نقاش بين الوالد وأبي الفضل صاح الوالد: ابني مات، ابني مات. رجّ البيت بصياحه، كان يوم رعب أتذكّره كأنه حدث بالأمس. بعد ذلك لم يرَ أحدُهما الآخر.

كأنما أوجع الأخ يونس نفسه.

له قلب انشطر بين السلفية والإخوان. دائرتان متداخلتان، بما أنّ كلّ شيء في المدينة صار يأخذ شكل الدائرة. يذهب الأخ يونس كلّ يوم ويعود في المساء، تارةً بشفتين سلفيتين، وأخرى بعينين إخوانيتين. وليس نادراً أن يعود بكل ذلك معاً. تقافز السلفيون والإخوان على المنابر وسمع الناس الهرج والمرج بين الطرفين. غير أن الأخطر لم يلاحظْه أحد، وهو أنّ كلّ طرف صار يتجلّى في الآخر.

وأنّ الخصمين اللدودين إذا نظرْتَ إليهما بطريقة ما سيتداخلان عليك.

قال الأخ يونس مستدركاً:

– في الأخير هي كلمة واحدة: قال الله قال الرسول.

– هل هناك محدثون في الإخوان؟ لم يسبق لي أن قرأت كتب حديث أو عقيدة من تأليفهم.

– هذه مسألة محرجة. تخيّل أن الكتاب الوحيد الذي ألّفه الإخوان في الدين هو **فقه السنّة** للسيّد سابق. إذا قرأت تعليقات الألباني حول الكتاب فستشعر بالخجل.

– أين علّق عليه الألباني؟

– لا تعرف؟ ألّف كتاباً أسماه **تمام المنّة**. جماعتنا يكثرون الكلام، لكن العلم عند السلفيين. الحقيقة لا بدّ أن تقال.

بدا متوجّعاً وهو يتحدّث عمّا فعله الألباني بجماعته. كما لو أنّ في الأمر إهانةً شخصية له. ربما كان ذلك الشعورُ نابعاً من صراعه الدائم مع شقيقه أبي الفضل. ما إن توقف عن الحديث حتى ارتعشت شفتاه كأنه طالع من خطيئة. مسح نظارته. لا بدّ أن يمسح نظارته ويزيل عنها الخزيَ الذي ألمّ به.

آنذاك، ولأول مرّة، لاحظْتُ أن الأخ يونس أحوَل.

– لم أرك تخجل من الإخوان من قبل.

– هذا بحثٌ آخر. ما رأيك لو نخرج يوم الجمعة إلى وادي الضباب؟

8

في يوم من الأيام خرجْتُ مع أمي إلى مدرجات الجبل، إلى حقول القات. كانت تتحدث إلى عجوز في حقل أعلى منّا. قالت العجوز إنها صلّت الفجر مرّتين. سألتُ العجوز: كم سورة تحفظين؟ فقالت: الصمد والكوثر. قلتُ لها: تصلّين طوال عمرك بسورتين؟ تلفّتت المرأة يَمنةً ويَسرةً، وابتسمَت لأمي. بعد قليل دعتني لأصعد إليها. أجلستني إلى جوارها وقالت لي:

"كان يا ما كان، كان هناك راعي غنم يعيش مع مواشيه لا يعرف من الدنيا سواها. ذات مرّة رأى مسافراً يقوم ويقعد على صخرة. ذهب إليه وسأله عمّا يفعله، فقال الرجل: أصلّي. سأله الراعي أن يعلّمه الصلاة فقال الرجل مستعجلاً: القبلة من هذه الجهة. أراد الراعي أن يعرف المزيد ولكن الرجل وضع صرّته على ظهره ومضى. صاح به الراعي: وماذا أقول إذا استقبلت القبلة؟ قال المسافر: قل الله أكبر، بعاااع. قام الراعي من فوره واستقبل القبلة. وضع كفّيه على صدره وقال: الله أكبر، بعاااع. فردّد معه الحجر والشجر والجنّ والدواب: بعاااع".

تركَتْني العجوز في حَيْرتي، وقبل أن تتركني همست في أذني: "انزل اخرا عند أمك".

تذكرت ذلك الصبح البعيد بينما أنا أتمشّى في ساحة المدرسة، أنتظر. لا أدري ما الذي أنتظره، ربما السحابة أيّ سحابة. أتجوّل. على طرفَي الساحة خشبات مرمى. أشعر برغبة في الحديث. أنا

أسكن وحدي، لا أرى الأخ يونس إلا عندما يؤوب للنوم. لا أتحدّث إلى أحد. قال لي معلّم الإنجليزية، عندما شرحتُ له مشكلتي مع الكلام، إني قد أنسى اللغة إذا استمرت الحال على ذلك، واستدل بما حدث لرجل إنجليزي ألقته العواصف في جزيرة ليس فيها بشر. قال إن البحّارة الذين عثروا عليه بعد سنوات لاحظوا أنه لم يعد قادراً على نطق الكلمات الإنجليزية نطقاً سليماً. اللسان مثل العضلة تضمر إذا لم تستخدم، واللغة مثل الآلة إذا استخدمتها في غير موضعها فإن سوء استخدامها يتلفها. بتّ أخشى على لغتي وأخاف على صوتي. لغتي وصوتي؟ أتحدث كأني بحّار إنجليزي. أخبرت المعلّم أني جرّبت الأذان. قال إنها فكرة جيّدة، وأن من شأن تلك التجربة أن تنقّي صوتي من الخطايا وتُبقيني متّصلاً بالعالم.

لو ذكرت لبُحيرى قصة الرجل الذي وقف للصلاة وقال بعاع، فما الذي سيقوله؟ سيقول حسبي الله، أو الله المستعان. لو قصصتها على الأستاذ نبيل سيحدق فيّ، ولن يقول شيئاً. ربما سيقول: جميلةٌ قصصُ الجدات. لو رويتها لعبد الله البعداني سيئنّ، سيضحك، وقد يتراقص طرباً. سيتلفّت في كلّ مكان ثم سيقول منتشياً: بعاع يا ربي بعاع. ولو أنّ شمس الدين الأب سمعها مني لقال بصوته الهائل: لو شئتُ لأسميْتُ الله بعاع. سيرفع البعاع إلى مصاف أسماء الله. لله قلبٌ لا يتعرف إلّا على القلوب، يقول شمس الأب. ولا أستبعد، سيقول، أن يوقف الله الرجلَ يوم القيامة ويأمره أن ينادي على الخلائق بعاااع. سيجيبونه كلهم عدا ذلك المسافر. لن يتوقف شمس الدين عن الحديث.

مضى اليوم كما هو، كما كان مقدّراً له منذ الأزل. وذلك الأزل حدث بالأمس. في الغرفة واصلت العمل على أسئلة الوحدة الثانية حتى انتهيتُ منها. كنت أجوّد خطّي وأحسّنه. كتبت جملة بالإنجليزية على حواف الأوراق، وزّعتها وباعدتُ بين كلماتها كي لا تقع عليها عينا الأستاذ نبيل. سمعته قبل أيام يخوض نقاشاً مع معلّم ناصري ويستشهد بشوبنهاور. يصبح الأستاذ نبيل يوماً وراء يوم أكثر خطراً مِن قال الله قال الرسول.

كتبت بالإنجليزية: "هل أشبّهك بيوم صيفي؟".

ذلك مما حفظته من الكلام الكثير لمعلم الإنجليزية، قال إنها مما كتبه شكسبير في شبابه.

سلالة الأستاذ نبيل، من البنت التي تذهب إلى المدرسة حتى الجدة الأولى وهي تحمل طعام الراعي على رأسها، من النوع الفاخر الذي اكتشف الكيمياء في غابر الأيام. ستفهم الفتاة الأشياء التي يقولها شكسبير. هل أشبّهك بيوم صيفي؟ ما النادر في اليوم الصيفي في بلاد كلها صيف؟ لا بدّ أن أصحبها إلى الغيوم ألف عام، ثمّ ونحن لا نجد للنور سبيلاً أقرأ عليها كلمة شكسبير. سترتجف من اللذة وستدرك كم هي الكلمة دافئة وفي وقتها. ما أعظمَ الصّيفَ في قرية شكسبير، حيث تجلس الفتياتُ حولاً كاملاً في انتظاره.

لم تنقضِ سوى ثلاثة أيام حتى أعاد الأستاذ نبيل دفتري. أخذته مسرعاً. تسلقت سور المدرسة وقفزت. كانت قفزة شاهقة كادت تكسر ساقي. لم أطل الانتظار حتى الانتهاء من الحصص الثلاث

المتبقية. ركضت باتجاه الغرفة. كانت السعادة تسيل في عظامي وتتقافز من مسامات ظهري. الكنز في الدفتر، لا بدّ أن شيئاً ما قد وصلني من تلك السلالة الرهيبة، سلالة آل نبيل، السلالة التي تجلس فيها الجدّة والحفيدة حولاً كاملاً في انتظار الصيف. في دفتري رسالة من بيت السلطان، كلمة أو وردة أو وعد، من نسل رجل يعرف شوبنهاور وجعفر الصادق. الفتاة تعرف شكسبير والأب يقتبس من شوبنهاور، كما لو أنني ذاهب لمضاجعة مُتحَف. لن أهاب الرجل بعد الآن، لن أهاب حزبه، لقد تسلّلت إلى الداخل، إلى وكر نساء الحزب. سأفعل الأفاعيل. يا لها من سعادة، لقد هزمت الحزب، هزمت حسن البنا شخصياً. بل لقد دحرت شوبنهاور نفسه. لا يعلم الإخوان ما الذي يحدث للنساء إذا أخذنَ شكل الضفادع. سيحملن لي الطعام على رؤوسهنّ، سأنتظرهنّ عند بوابات الجحيم الثماني، وعلى كل باب سأرسم بحيرةً للضفادع.

قرأت كلّ كلمة كنتُ كتبتُها في الأجوبة. ربّما خبّأَتْ وراءها رسالة. بحثت عن أثر للفتاة. شممت صفحات الدفتر، كلّ شيء على ما هو عليه. بلى، رأيت شكلاً بالقلم الرصاص على هيئة حرف دال عند الطرف القصي لمسألة. بدت لي كأنها وشم. كأنها تقول: سأضع هذا الوشم يوماً على عمودي الفقري. هناك خط على مثلث كنتُ رسمته، حاولَتْ هي تعديل خطوط المثلث. لماذا تفكّر فتاة في زعزعة المثلث، ماذا أرادت أن تقول؟ الأستاذ نبيل معلّم لغة عربية لا علاقة له بهذا العالم الذي نرسمه لنفهمه، حتى لو ذكَر شوبنهاور. بالتأكيد ليس هو الفاعل. بحثت عن الإشارات الغامضة،

عن شيء خافض وضامر، عمّا يسقط من خِباء المرأة الساهية. لا بدّ أنها حبيسة مثلي في هذا العالم الذي يجده الأستاذ نبيل رائعاً ويتخيّله على شكل صندوق.

استرخيت على فراشي محبطاً، حاولت أن ألقي بنفسي إلى النوم. إلى أي قيلولة تنتشلني من النكسة. نهضت ثانيةً وفتحت الدفتر، قلّبته حتى الصفحة المئة. كان دفتراً من مئة صفحة، ولم أكن قد استخدمت منه سوى عشرين. في الصفحات الأخيرة وجدت كلمات. إلهي. لقد كتبَتْ شيئاً. لقد قالت.

”من أين أبتدئ الحديثَ؟

وغبتُ في صمت ارتيابي“

عثرْتُ على البيت في صفحتين مختلفتين. لقد كتبَتْ شيئاً من قصيدة ”عائد“ للبردوني. مطلع القصيدة يقول: ”من أنتَ؟“. اختارَت القصيدة بعناية، ليست قصيدة، إنها سؤال. تريد أن تسألني من أنت؟ أو ربما تريد أن تحكي، قلبها مثقل بالقصّة، قصة كبيرة تهيمن عليها حتى إنها لم تعد تدري من أين تمسك بها. سأردّ عليها. سأكتب لها من القصيدة نفسها، سأقلّد خطها، أو سأكتب بخطّي، سأكتب وليفعل حسن البنا ما يريد. لا، سأختار لون قلمها، وأحاكي خطّها. لا بدّ أن أحافظ على هذه السلالة الرائعة من النساء ولا أعرّضها للأذى.

”من أنتِ؟

أشواق الضحى قبل الأصيل على الرّوابي؟“

كتبتُ.

وزّعت الكلمات في أماكنَ متفرّقة من الدفتر، ألقيتها هناك شذرَ مذرَ. رسمت خطوطاً وأشكالاً هندسية حول كلّ كلمة، باعدتُ بينها كي لا تبدوَ جملة واحدة، جعلتُها متناثرة وحرستها بالأشكال. كنتُ أنصب كميناً للإخوان وشوبنهاور، صار الكمين آمناً ومغطّى بالأحراش. يقول يسوع: من يبحثْ يجدْ. ولكن من سيبحث، هي أم الأستاذ نبيل؟ لا يهمّ، الطائر المبكّر سيعثر على الدودة أولاً. إن عثر عليها شوبنهاور فأنا لا أقصد شيئاً، وإن وجدَتْها ابنته فأنا أقصدُ كلَّ شيء.

أرسلت الدفتر مرّة أخرى، وعاد إليّ من جديد. لم تكتب شيئاً، حتى إنها لم تحاول العبث بالقرب من كلمات البيت الشعري. واصلتُ حلّ المسائل. جلستُ، وكتبتُ. وعاد "أبو مئة" مرّة أخرى وأخرى. لم تكتب شيئاً. حتّى المثلثات تُركت على حالها. فكّرْتُ في أمر بالغ الخطورة: أن أرسم ضفدعاً، وتنبّهْتُ لفداحة ما دار في خَلَدي.

في المرّة السادسة كان شيءٌ ما قد تغيّر في لغتي ولهفتي.

كنت قد زرتُ الشيخ شمس الدين مرّة أخرى. كعادته يسألني، يسأل ضيفه ثم يتحدّث إليه كأنه مُريد. قال إنه يتعلّم من ضيوفه، وإنه لا يريد أن يفقد اتصاله بالأبناء. جلسنا إلى المائدة ولم أجد الفتّة، تلك التي لولاها لما بقيت جبال اليمن في أماكنها. وضع شمس الدين الابن بُرمة كبيرة في الوسط. وصبّ الوالد المرق بنفسه. كان يقول، وخرير المرق يلهب الأفئدة: "ذات مرّة نزل رجل من ساداتنا ضيفاً على مُريد. قام المريد وذبح له دجاجة دون رضا

زوجته. أدرك العارفُ ما جرى بين الرجل وزوجته فأشار إلى الدجاجة فقامت من الحلّة وخرجت. ثم قال للمريد: هيّا بنا، يكفينا المرق".

سألني شمس الدين الأب إن كان أحدٌ من أجدادي متصوّفاً فقلتُ إن القرية كلّها متصوفة، ولا أدري ما إذا كان الأسلاف كذلك.

– مَن تعرف مِن أسماء السادة والعارفين؟

قلتُ:

– الخزرجي.

لم يقل شيئاً عن الخرزجي، ربما لأنه لا يعرفه. فقلتُ:

– ضريحه في الجبل. القرية تحفظ أقواله وأفعاله كأنه مات بالأمس. هل سمعْتَ به من قبل؟

– أعرفه ولا أعرفه. يدرك القلب قرناءَه من أسمائهم.

ثم قال:

– لو أن الخزرجي بيننا وقال لهذه الدجاجة قومي لقامت.

عدت إلى غرفتي في المساء، شيّعني شمس الدين الأب إلى الباب. قال وهو يصافحني:

– إن وجدْتَ منهلاً أعذبَ منّا فعليكَ به.

تثاقلَت خطواتي، تمنيتُ لو أن طريقي إلى غرفتي يطول ألف عام. لم أشأ أن أغادر منهل شمس الدين. خشيتُ إن أنا دخلتُ حيّ الضحى ستنهض الديوك في رأسي وتقفز المدرسة وتفترسني. أذّنت مع الأخ يونس، ولا أزال أؤذّن. كنتُ أحلم بشيء واحد فقط: أن تقوم الديوك من مكانها إذا سمعت أذاني. كان ذلك ليعني لي الكثير، لم أسأل نفسي قط عن ذلك الكثير الذي كنتُ

سأدركه فيما لو قامت الديوك من مكانها وصاحت. لم أفكّر قطّ في الدجاجات. ربما كنتُ شخصاً لا تقوم له سوى الدجاجات.

إذا دمجْتَ مقامين بلا نشاز فستقوم الديوك من منامها، قال لي يونس. وإن طهّرْتَ صدرَك من تراب الدنيا فستقوم الدجاجة من موتها، قال شمس الدين الأب.

واصلتُ حلّ مسائل الهندسة بإصرار وبراعة، ورأيتُ نفسي أتسلّق سوراً يفصلني عن الجحيم. حللتها برشاقة خيل جاء من البادية وراعه ما رأى. لا بدّ من إسعاد ابنة السلطان أو زوجته. إنّ مهمّةَ النبيّ والشيطان واحدة: إسعادُ الناس. أنا الناس، أصبو إلى شيء من السعادة، أيّ شيء بأيّ قدر. تدافع التراب إلى صدري، جلست ديوك الحي للنوم العميق، وسمعت دبيباً في الأطراف:

دِينا. دِينا. دِينا.

حللتُ المسائل كأني أكتب الشعر، واستفضت في التعليقات على الأشكال كأني أمارس لهواً، أو أصلّي. لا بأس من تداخل الطين والسماء. سأبهرها. هذا أنا، انظري، هذا خطّي وهذه رشاقتي. أغويتها بأشكال الهندسة، ولو علمتْ ما أفعل بالضفادع لتاهت أكثر. كنت أتقافز بين الأسطر، أفتح لها العُقد الفراغية كأنّي آخذها إلى السراب، إلى المجهول الرائع والحميد. قلَبتُ السؤال الرابع رأساً على عقب، أجبته من الأسفل إلى الأعلى. شئتُ أن أفعل أمامها شيئاً يشبه البهلوان. هل يمكن أن تبتسم امرأة إذا قرأت مسألة في الهندسة الفراغية؟ هل بمقدور الهندسة أن تسلّي ابنة حسن البنا؟ حللت المسألة الخامسة كمهرّج،

سمعتها تضحك، تغطّي فمها بكفّها: "يا مجنون". "لن يفهم هذا المجنون سواكِ"، قلتُ لها. ثم قلَبتُ مثلثاً فضائياً رأساً على عقب، نظرت إليه من الأعلى فبدا شبيهاً بنجمة الثّريا. رسمتُ دائرةً أعلى المثلث فبدت شبيهة بنجم الراعي. كتبت لها تحت الشكلين قصّة:

"أراد نجم الراعي أن يخطب نجمة الثّريا ولكنها نأت عنه. ساق نعاجه السمينة أمامه حتى وصل إلى منزل قريب من القمر، توسّل للقمر فرقّ له. غير أن نجمة الثريا قالت للقمر: دعني وشأني، ما أفعل بهذا الصعلوك، لا مال له ولا جاه. ونأت أكثر. وكلما صعدتْ منزلاً في السماء أو هبطت وادياً لحقها نجم الراعي بنعاجه وجلس ينتحب. ولا يزال حتى الآن يسوق نعاجه بين السماوات، وكلّما تمهّلت الثُريا أوقف نجم الراعي ماشيته وبكى".

كتبتُ نصّاً لا علاقة له بالدرس، ولو عثر عليه شوبنهاور لحدث شيءٌ رهيب. فقد سمعته قبل أيام يتحدّث عن فتوح البلدان ودحر الطغاة. أعدْتُ إليها الدفتر. وعاد.

تحت البيت الذي يقول "من أنتِ؟" وجدْتُ بخطّ يدها:

"أنا من مغاني شهرزاد

إلى ربى الصحو انتسابي"

كنتُ مرهقاً. ألقيت بنفسي من شاهق إلى بحيرة نوم لا قرار لها. وبينما أنا أهوي كنت أنادي بأعلى صوتي:

يا علّامَ الغيوب. يا علّامَ الغيوب.

9

دخل الشتاء.

في الأيام الأولى كدْتُ أتجمّد من البرد. عاد الأخ يونس بكومة من الملابس الدافئة وثلاث بطانيات.

– من أين؟

– من المقرّ.

يعيش الأخ يونس هنا في الغرفة منذ أعوام، أحياناً يقول إنها ثلاثة وتارةً يقول من زمان. لا بدّ أنه رأى شتاء الحيّ ثلاث مرّات على الأقل. يأتي الشتاء من الجبال المحيطة بالمدينة، يتوغّل في كل الزوايا، ويضرب بعض الأحياء أكثر من الأخرى. الأحياء التي تسكنها عوائل من أصول تركية يمسّها الشتاء أكثر من غيرها. لم يحدث من قبل أن جاء الأخ يونس بأشياءَ من مقرّ الحزب. هل سرق الحزب أخيراً؟ هل بدأ في استحلال أشياء جماعته؟ لو فعلها فلن تقوم له الديوك، فكّرتُ. لم يمضِ سوى وقتٍ قصير على محاولته جرّي إلى الجماعة، ثم راح هو يسرقها. شعرت بالاشمئزاز والشماتة معاً، وتمنّيت لو أن حدسي صار حقيقة. فكرتُ في الأمر بطريقة غريبة بعض الشيء: لن تقوم له الديوكُ بعد ذلك. إذا لم تقم له فستقوم لي. ومن قامت له الديوك قامت له الدجاجات، ثمّ سائر إناث الأرض. لو سمعني شمس الدين الأب لقال: عرفتَ فالزَمْ. وربما قال: لقد وجدْتَ منهلاً عذباً فاضربْ خيمتك هناك.

كنا قد تواعدنا مراراً على الخروج إلى وادي الضباب.

وأخيراً خرجنا.

كان هناك دائماً سببٌ يجعلنا لا نستطيع الخروج معاً. جلسنا أمام منزل مهجور قُتل صاحبُه غِيلةً. يطلّ المنزل على الوادي ويقال إن جنّياً من صنعاء يسكنه منذ مقتل صاحبه. قُتل الرجل، وكان شيخاً مَهيباً، على أيدي أناس لا يكنّون له أيّ عداوة. في كل بيت هناك جنّ، وإذا قُتل صاحبُ البيت فرَّت جنُّ القتيل مذعورةً ودخلَتْ جنُّ القاتل. قال يونس إنه لم يسمع من قبل حكاية جنّ تُروى بمثل تلك الحماسة. قلتُ له إن مصدر الحماسة يعود إلى الحكاية نفسها. فلا يوجد جنّي زيدي في كل هذه الأنحاء إلّا في هذا المنزل. انظر، قلتُ له، النهر الصغير يقسم الوادي إلى ضفتين ولم يحدثْ قطُّ أن تقاتَلَ النّاسُ حول الماء أو الزرع.

– والسبب هو الجنّي الزيدي؟

سألني الأخ يونس وهو ينفخ في نظارته.

– السبب هو الجنّي الزيدي.

قلتُ له.

– ولكن الزيدية مذهب.

– الزيدية لهجة.

كانت الساعة تناهز الرابعة عصراً، ومعلوم عن الجنّي الزيدي أنه يغفو بين الثانية والخامسة مساء. أعطاه الناس كنية: أبو علي وأحياناً أبو غالية. يذهب أولاده الثلاثة إلى مدرسة خالد بن الوليد منذ عشرين عاماً، ولا ينجحون.

– عشرون عاماً في المدرسة؟

– عشرون عاماً في المدرسة.

الحقيقة، كما قلتُ للأخ يونس، أنّ أبا غالية يعيش على الضفة الشرقية لنهر وادي الضباب. وعلى الضفة الأخرى، في مرباع المواشي، يسكن الهول، وهو جنّي آخر تعود أصوله إلى تهامة ويسكن في شجرة. لم يحدث قطّ أن تنازع الجنّيان، ليس بسبب الأخلاق العالية لأبي غالية، كما يزعم بعض الناس، بل لأن الهول جنّي بلا طموح.

"سأترك الحركة الإسلامية"، قال الأخ يونس.

لم أجدْ من شيء أقوله. ترددت، ارتعشَت أطرافُ أصابعي. قلتُ له، بعد هنيهة من الصمت:

"هل تصدّق أنّ ابن حجر العسقلاني جلس هُنا حيث نجلس الآن وكَتب؟".

بقينا نحدّق في الوادي ونلقي الأحجار، لا نجد من كلمات. صارت الأفكار تتقافز بين رأسينا، تارّةً نفكر في العسقلاني وأخرى في أبي غالية. كان رأس الأخ يونس يهتزّ كأنه جانّ. ريح عاتية تصفر في أرجائه. وكان يمسك نظارته ويضعها في مواجهة الشمس ثم ينفخ فيها، وترتعد شفتاه.

– أخليت عهدتي لدى الحركة، وأخذت بعض الأشياء التي تخصّني.

أحياناً يقول الحركة، وتارةً يقول الحزب، وفي ساعات الصفا يقول الجماعة الأمّ.

مرّ نَسْرٌ تحت الشمس، وقع ظلّه على ظهر رجل يسوق الماشية. رأيت ستين ألف ديك على الضفة الشرقية للوادي تقوم للأخ يونس.

– البطانيات تخصّك؟ أنتَ لم تسرقها؟

– وإن سرقْتُها؟ أتعرف كم سنة خدمْتُ فيها الحركة؟

نظرَت امرأةٌ من الوادي إلى الأعلى فلم ترَ النَّسْر.

– والآن؟

– وجدْتُ عملاً في مسجد جمال الدين.

– ستذهب إلى السلفيين؟

– كلّنا سلفيون.

– كلّنا سلفيون؟

– نعم. كلّنا سلفيون.

– متى ستنتقل إلى هناك؟

– بعد أسبوعين، آخر شعبان.

عدنا إلى المدينة في سيارته، سيارة هايلوكس بيضاء لا يأتي عليها الدهر. في الطريق، ونحن نجتاز السجن المركزي على مشارف المدينة، قال إنه سيعيد السيارة إلى الحزب. لم يقل الحركة. لم أكن أعرف أنّ سيارة الأخ يونس، وهي أنبلُ سيارة عرفتها في حياتي، هي سيارة الحزب. وماذا ستفعل بكل علاقاتك وصداقاتك؟ قال: سأحاول الاحتفاظ بأصدقائي. كان يتداعى كما لو أنه سيقفز من شاهق أو ذاهب إلى حرب. حتى إنه قاطع نفسه وشتم الدنيا. لا يمكنني أن أكون سلفياً وصديقاً لكل الناس في

الوقت نفسه، قال. على السلفي أن يدفع كلفة باهظة، أن يعيد صياغة حياته كلها. المواقيت، الكلمات، العادات، الوجوه، وحتى الطعام. لا بد أن تختار لكل ذلك، حتى للغتك، النّاسَ الذين يناسبونها. سأذهب إلى مطاعم أخرى، قال. ثم نظر إليّ وهمّ بإيقاف سيارته فجأةً وهو يغمغم: حتى الشمس والقمر سأراهما في أوقات أخرى. عالم آخر، درستُ هذا الخيار بعناية ووجدت أنّي رجل يرتاح لأبسط الأمور، للعبادة والطُّمأنينة والأمور البسيطة. كان يتداعى. السياسة ليست لي، الحزبية حلبة صراع لها قواعدها وأخلاقها التي لا تناسبني ولا تغريني. أنا ابنُ صاحب دكّان بسيط، وأمّي سيدة أمّية تسكن في أقصى الريف، ما لي وللسياسة.

– وأبوك؟

– ما به؟

– ربما تخسره كما خسره أخوك الأكبر.

– كانت السلفية غريبة على الناس عندما قرّر والدي مقاطعة شقيقي ونسيانه. تعلّمتُ من الحركة الإسلامية شيئاً من السياسة، وكيف نبشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تبغضهم. أظنّ أني لم أتعلّم من الحركة أفضل من هذا.

– النفاق؟

– تظنّه نفاقاً؟

– أن نبشَّ في وجوه قوم وقلوبنا تبغضهم.

تأمّل الأخ يونس الحافة العليا للأفق، وتأملتُ سنام جبل صبر البعيد. السيارة تمضي. أنظر من النافذة وأعدّ النساء على جانب

الطريق. عددت أكثر من عشرين امرأة، واحدة فقط كانت منتقبة، كانت تقف بالقرب من مصنع الأحذية، عند المدخل الغربي للمدينة. توقفت السيارة بين المصنع والمدينة، كان الطريق مزدحماً. أمسك بمقود السيارة بيمناه وأسند ذراعه اليسرى على حافة النافذة.

قال وقد استعاد طرافته فجأة:

– إيش قلت لي؟ ابن حجر العسقلاني من عندكم؟

تبادلنا النظرات.

في ساعة أخرى كنا سنقهقه حتى نسقط أرضاً. سحبت ابتسامة ميّتة، وفعل هو الشيء نفسه. نظرت إلى الخارج، فعل هو الشيء نفسه. عبر رجل بين سيارتنا والسيارة الواقفة أمامنا، نظر إلينا وضحك عالياً بلا سبب، أو لسبب لا نعرفه. انفجرنا ضاحكَين، ضحكنا حتى اهتزت السيارة، كنّا نضحك مثل السكارى، ضحكنا كأنّنا نحاول إخراج أشياء ثقيلة من أعماقنا، نتطهّر. كنا نضحك، كانت عيناه تدمعان وهو يضحك ويقول بصوت متقطع: "ابن... حج... حجر"، وأنا أضحك وأكاد أختنق ولا أجد الكلمات. أختنق: "م... ن عند... نا. هاهاها".

أنزلني عند موقف الباصات وواصل طريقه إلى دكّانه. بلغتُ الغرفة بعد صلاة المغرب. صلّيت واستلقيت على فراشي. رأيت كتابة وخطوطاً على السقف، لم أكن قد رأيتها من قبل. جملة واحدة بخط الأخ يونس تقول: "إنما يتعثّر من لم يخلِص". هل هي مصادفة؟ لماذا لم تقع عينِي عليها في الأيام الماضية؟ هل كنتُ أرى الأشياء التي أريد أن أراها فقط؟ نقلتُ بصري إلى جدران الغرفة. الكتابة في

كل مكان، عبارات مكتوبة بمختَلِفِ الأحجام، كلّها تشبه خطّ الأخ يونس. فوق فراشي كتابة تقول: "أنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة".

ألزموا الخيال صدق الحقيقة؟ غمغمت.

قمت أتحسّس دفتري السرّي. وجدته في مكانه، بحثت عن شيء غريب فيه فلم أجد.

كما لو أنني سقطت في حفرة ودخلتُ عالماً آخر، أو استعرت فجأة عينين أُخريَيْن. ازدحم رأسي بالأفكار ولم أدرِ ما الذي عليّ فعله. فتحتُ النافذة الوحيدة، وكانت تطلّ على الحي من الأعلى، من جهة الغروب. وقفت إلى جوارها مسنداً ظهري إلى الجدار وحدقت في الحيطان الأخرى. اخرجي أيتها العبارات والحكم والكلمات، اخرجي أيتها الوصايا وعودي إلى موطنك. بقيتْ في مكانها ثم تلاشَت رويداً رويداً. دارت الأرضُ بي، وجلستُ. فتحت كتاب الهندسة الفراغية وحاولت أن أفعل شيئاً من أجل ابنة السلطان أو زوجته. أتدبّر شأن رجل آخر من رجال الحركة الإسلامية. الرجل الذي لم أجرؤ على سؤاله: لمن تريد المساعدة، لابنتك أم زوجتك؟

طرحت الكتاب جانباً وأخذت دفتراً من دفاتري، أظنّه كان دفتر العربية. رسمتُ أشياءَ غيرَ مفهومة، شخبطت قليلاً، كتبْتُ كلماتٍ متداخلةً مثل: يونس، الإخوان، الحاج علي، السلفيون، بُحيرى، القانون الثالث... أشياء كثيرة، لا أدري فيمَ كنتُ أفكّر وما إذا كنتُ بالفعل أفكّر. فجأةً بدأت خطوطي تأخذ أشكالاً. رسمت شكلاً بدا

كأنه فتاة ساجدة. عندما تحققت من الرسم تزايدت ضرباتُ قلبي. هرعت إلى باب الغرفة وأغلقته. أطفأت النور، واستغفرْت الله. كان قمر شعبان في الأجواء. بعد دقائق من إطفاء النور امتلأت الغرفة بضوء شهر شعبان، أعظم أضواء السّنة.

أمسكت بالقلم مرّة أخرى، فتحت الدفتر وبحثت عن تلك الصفحة الآثمة. أكملْتُ الرّسم، رسمْتُ رجلاً يقف خلف المرأة. كان رسماً مروّعاً، بصقت في يدي وتحسست ذلك الشيء الذي يُدخِلنا النار. وقبل أن أصل إليه كان قد أخرج ما في جوفه من إثم. هو الآخر مثلي ومثل الأخ يونس يرغب في إخراج ما في وديانه من متاهات. خرج الماء المجهول من الحوض العميق وبلّل بنطالي. أردت أن أواصل الرسم ولكن رغبتي انهارت فجأة. لقد خرج الشيطان من وكره ونامت النار.

عليّ الآن أن أتدبّر أمر هذه النجاسة. أين سأغتسل؟ يغتسل الأخ يونس أحياناً في حمّامات المسجد بالماء البارد. أما أنا فسأنتظر حتى ينتهي الأسبوع وسأرش نفسي بماء الوادي. سأصلّي باقي الأيام على نجاسة. فعلتها من قبل، وسأفعلها مرّة أخرى. الطّهارة قصةٌ محلُّها القلب، قلت لنفسي. حفنة من تراب الصحراء طهّرت جنود الخليفة. أشعرتني كلمة الخليفة بالهلع. سرعان ما وقف شبح الأستاذ نبيل أمام عينَيّ، كان يفكّر في فتح البلدان وإعادتها إلى الله. لا بدّ أنه من جنود ذلك الخليفة، في جيبه حفنة من تراب الصحراء، وفي قبضته سيف. وهناك نساؤه المكنونات، لو أن واحدة

منهنّ وشت بسرّي إليه لهلكت. وهل تشي النساءُ بالرجال إلى الرجال؟ الحمقاوات مَن يفعلن. استرحت للخاطر.

أخذني الكابتن منيف إلى سينما المنتزه لنشاهد فيلم "المعلّم الثّمل". كان فخوراً على نحو خاصّ بذلك الفيلم.

"الكونغ فو مثل النبوّة لا يموت بموت المعلّم"

قال ونحن نقف أمام الباب.

عرفتُ منه أن الفيلم أنتج في عام ١٩٧٨. يلعب جاكي شان دور البطل، وكان لا يزال مراهقاً خارق القدرة.

"صنعوا هذا الفيلم ليسدّوا الفراغ الذي تركه بروس لي"

قال ونحن نبحث عن مكان في القاعة.

لا توجد خسارات ولا هزائم، هناك بدائل في مكان ما. كلّ شيء يتدفق في المستقبل، حتى الأنبياء يتدفقون وهم هناك في مكان ما. أغلبهم التزموا الصمت وتركوا كتبهم تناضل بدلاً عنهم. نعود إلى الطبيعة ثم تطلِقنا من جديد بأشكال أخرى، في كائنات أخرى. ربما ليست الطيور والذئاب سوى بشرٍ ماتوا في الماضي. انطلق الفيلم. يهربُ فريدي وونغ، أو جاكي شان، من منزل أبيه. كان شابّاً طائشاً لم يحتمل قسوة التمارين التي فُرضت عليه. في طريقه يضربه الجوع فيلجأ إلى مطعم شعبي ثم يحاول الإفلات من دفع الحساب. حاول الهربَ فأوقفه مالك المطعم وعصابته. دارت معركة أنقذه منها كهلٌ ثمِلٌ كان يجلس في زاوية. أخذه الرجل الثمل في طريقه. في مكان بعيد عن المدينة علّمه الأساليب القتالية للخالدين الثمانية، وكلّهم سكارى.

بعد انتهاء الفيلم ذهبنا إلى مطعم الكوري في وسط المدينة وطلبنا فاصوليا المجمّش. بعد دقائق وصل الطلب. كانت الفاصوليا مغطاة بطبقة رفيعة من البيض الأومليت. لم يتوقف الكابتن منيف عن الحديث حول الخالدين الثمانية، حتى إنه وضع إصبعه في منتصف الطبق وهو يهذي: عاش الخالدون الثمانية في خمس جزر في بحر بو، كانوا سبعة وامرأة. أخرج إصبعه ووضعها في فمه وسألني: "هل لاحظتَ كيف تعلّم وونغ كلّ الأساليب عدا أسلوب المرأة؟ رفض أن يعترف لها بالبراعة. الصينيون مثلنا، نحنُ متشابهون. الأوروبيون أيضاً، ربما. من يدري، أنا لم أزرْ أوروبا". تحدّث منيف منتشياً. لفت حديثُه الآخرين فرفعوا رؤوسهم ونظروا إلى مكاننا. ربما لأنه قال أسلوب المرأة. أما أنا فكنت قد بدأت أفكر في المرأة التي سأسلّيها بمسائل الهندسة الفراغية ما إن أعود إلى الغرفة المعلّقة. سأعترف لها بكل شيء، بالبراعة والقوة وأشياء لا تخطر لها على بال.

– تعرف الأستاذ نبيل؟

سألتُه.

– مدرّس اللغة العربية؟ أم الأستاذ نبيل معلّم الكاراتيه في النادي الأهلي؟ أم الأستاذ نبيل وكيل المحافظة؟ أم الأستاذ نبيل مدير مكتب التربية؟ أم أم أم...

– مدرّس اللغة العربية.

– ليس كثيراً. تعرفت عليه في مطعم الشرق. يأتي أحياناً مع الأخ يونس وأحياناً مع الشباب. أحاول ألّا أكونَ صديقاً لأيّ زبون. أنا ابن

صاحب مطعم، ولا بدّ أن يبقى كل زوّارنا مجرّد زبائن.

– هل لديه بنتٌ في الثانوية العامة؟

– في الثانوية العامة؟ لا أظنّ. الرّجل لا يزال شابّاً.

– ربما تزوّج مبكّراً.

– حتى وإن كان. لنفترض أنه تزوج في الثالثة والعشرين وأنجبت زوجته بعد عام. سيكون عمره الآن في حدود الأربعين، وستكون ابنته في الثانوية العامة. ممكن جدّاً، ولكن لا أظنّ.

– ربما زوجته في الثانوية العامة؟

– إذاً لا بد أن تكون زوجة ثانية. بمعنى أن تكون الآن في الثامنة عشرة من عمرها. المعلم نبيل رجلٌ مُبجَّل في الحركة الإسلامية، له مكانة وسمعة. هناك مستويات داخل الحركة لا يتجاوزها العُزّاب.

– وما علاقة الزواج بالعمل التنظيمي؟

– الزوجة غطاء أمني.

– تقصد أن وجودها في البيت يصرف الأنظار عن الزوّار؟ لم أفهم قصدك.

– هذا موضوع معقّد. نصيحتي لك أن تبتعد عن هذه الحكاية كما فعلت أنا. التحقت بالحركة الإسلامية بعد عودتي من السعودية، قبل خمسة أعوام من الآن. ثم انسحبت تدريجياً. في السعودية كانت الحياة مختلفة. الأناشيد، المخيمات، المعاهد، الزيارات، الكتيبات، المبيتات، التمارين الرياضية، وحتى الجهاد. هنا في اليمن سياسة ودهاليز. تركت كلّ ذلك وتفرغت للكونغ فو.

– إذاً ربما هي زوجته الثانية.

– أو الثالثة.

– مستحيل.

– شوف يا عزيزي. إذا ذاق الرجل طعم المرأة الثانية فلن يقف أمامه شيء. الأمر يشبه القتل أو السرقة. قد تتوب إذا قتلْتَ مرّةً واحدة، ولكن بعد الجريمة الثانية فلا يمكنك أن تعيش إلا قاتلاً. تتفجر بداخلك شهوةٌ من المجهول، تُغرِقك معها وتسيطر عليك. ما يحدث هو أن الدائرة السوداء ستتدفق وتلتهم الدائرة البيضاء. هل تتذكر ما قلته لك من قبل عن الدوائر المتداخلة للضوء والظلام؟ القوى الخمس التي تتدفق بداخلك ستصبح كلّها قوى هدّامة من النار إلى الماء. هذا ما تعلّمته من الكونغ فو، وهو تفسير لكلّ شيء. ستصبح شخصاً هداماً ولا سبيل لإصلاحك لأن البقعة السوداء ستفرض إرادتها. كل الأديان، حتى الكونغ فو، تأمر بقتل القاتل بعد الجريمة الثانية، إن لم يكن بعد الأولى. ما من سبيل لإصلاحه بغير الموت. أما الكونغ فو فيشدّد دائماً على أنه فن للدفاع عن النفس وليس للعدوان. العدوان انتهاك، والانتهاك يجلب معه لذة من نوع خاص، كالقتل والمضاجعة. وكل ذلك إدمان لا تصلح معه المواعظ ولا حتى العقوبات.

– تعدد الزوجات مسألة أخرى، تجوز شرعاً وعرفاً، ويمارسها كبارُ الصالحين.

– المبدأ واحد في الحالتين. واحدة من القوى الخمس ستحكم سيطرتها عليك. بعد الزوجة الثانية يتضاءل المرءُ حتّى يصيرَ بحجم عضوِه، ثمّ يصبح عضوُه أكبرَ منه. سمعنا عن رجال نكحوا الجبال

عندما لم تعد النساء تكفيهم. لقد فعلوا ذلك حقاً وليس مجازاً. في الكونغ فو تعلّمنا كيف نزيح الجبال من مكانها، ونمزّق السماوات التي بلا عدد. المتصوفون أيضاً. تعرف قصة الصوفي الذي قال لو أن قطباً قال لهذا الجبل امضِ لأطاعه، ثم اهتزّ الجبل وهمّ بالمضيّ لولا أن القطب مسح على ظهره. بماذا افتتح الإسكندر كل الشرق؟ أظنه فعل ذلك بعضوه. هناك طاقة سوداء بداخل الرجل. إذا فتح لها الباب ستخرج، وإذا خرجت فإنها لن تشبع. الطبيعة تستجيب لتلك الطاقة السوداء وتخضع لها. يصير ممكناً أن يطيعك الجبل ويمضي تحت إرادتك، وينحني لتنكحه إن شئت.

– إذاً هي زوجته الثالثة.

– أو الرابعة.

– أو الرابعة؟

– لماذا يشغلك هذا الأمر؟

صحْت بصوت غليظ، كما لو أني أوجه أوامري إلى الطبيعة: "شاي بالحليب لو سمحت".

ورأيت الإسكندر يقف عند تخوم الهند ويهدّد الشرق بأسره.

في الغرفة المعلّقة فتحت الدفتر ورسمت مرةً أخرى.

كانت يدي ترتجف إذ أرسم امرأة من الممكن أن تكون متزوجة. رسمتها في لحظة سجود وخلقتُ رجلاً خلفها. هكذا ينبغي أن ترسم امرأة متزوّجة: في لحظة طهارة. ولكي أبرّئ نفسي من الخطيئة كتبت فوق رأس الرجل: الأستاذ نبيل. ليفعل الأستاذ نبيل بزوجته الثالثة أو الرابعة ما يحلو له، ولتصلِّ هي له إن شاءت، هذه

حال الدنيا كما يبدو. كان شأناً عائلياً وإلهيّاً في الآن ذاته. كنت مجرد شاهد عِيان يوشك أن يُغمى عليه. رسمت له عضواً طويلاً، مددته قليلاً، غير أنّ يدي المرتعشة جعلته يخرج من ظهرها. أمر مروّع ما حدث، كادت تنزف من فقراتها السفلى. أغلقت الدفتر ووضعته تحت فراشي. قمت وصلّيت ثم قطعت الصلاة بعد السجدة الثانية. من مكاني، ولا أزال على سجادة الصلاة، تحسّست ما تحت فراشي واستخرجت الدفتر. طالعت الرسم مجدّداً، ولمّا وقعت عيني على الشيء خارجاً من ظهرها تقيّأت. تقيّأت على سجادة الصلاة. صرت رجلاً ضعيفاً. يصير المرءُ ضعيفاً حين تشغلُه امرأةٌ ليست له.

بقي الدوار في رأسي لأيام. رأيت الناس، كلّ الناس، وكأن شيئاً يخرج من أسفل فقراتهم. كنت كلّما حدقت في شيء يبدأ الكون في الدوران، ولا تنقضي النوبة حتى أغمض عينيّ وأجلس. مضيت إلى المدرسة في الصباح التالي وفي رأسي تقفز الآية: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}.

لم تكن النار هي ما يشغلني بل الدائرتان البيضاء والسوداء في أعماقي، النبي والشيطان، الجانب المضيء والآخر المشرق، قدرتي على ممارسة الألوهية كما علمني شمس الدين والرذيلة كما تعلّمتها بنفسي. للنبي لذّتُه وللشيطان أيضاً، أحببتهما معاً، كنت أصلّي وأستمني، أعرِبُ القرآن وأحلم بامرأة متزوّجة.

ها أنا أقفُ على رأسي وأتحمّم من الينابيع كلّها. كانت ليلة البارحة مليئة بالمرار، حتى إني رأيتني محمولاً على الأكتاف يمضي بي الرجال إلى مكان مجهول، ومنادٍ في أعلى الجبل يصيح

بالناس: "يا ويلها أين تذهبون بها". رأيت الأستاذ نبيل هُناك في الأسفل، الناس سائرون إليه، أنا على أكتافهم، وهو يفكّر في فتح الـمُدن، وفي شيء بزوجته أسعده بالأمس.

في طابور الصباح ضرب محمد الـمحيّا كتفي بإصبعه. التفتُّ إليه فقال مبتسماً وخجولاً: قملة صغيرة. أحسست بالارتباك، كأني استفقت من سُباتي. القملة هي القملة، لا يمكنها أن تكون صغيرة أو كبيرة. أراد الـمُحيّا أن يخفّف وطء الدنيا على كاهلي. ما الذي حدث لي؟ حتّى القمل. في طريقنا إلى الفصل حاول محمد المحيّا تلطيف الأجواء بعد أن لمح ظلاماً في عينيّ. كأنّ القملة أهانت كبريائي، جعلتني أبدو صغيراً أمام زميل يثق بقدراتي. قال إنه يزرعُ نفطاً في غرفته وقد يستخرجه قبل نهاية العام. شرح لي خطّته. ملأ طستاً كبيراً بالتراب والفحم، ودسّ في قاع الطست عظام كلاب وخرفان ودجاج. كان يصبّ على الطست قطرات من الزيت كل مساء، عشرين قطرة، ويعرضه لحرارة الفانوس ثم يقف عليه بقدميه. سألني إن كنت أرغب في مشاهدة مزرعته. نسيت أمر القملة. ترددت في قول نعم ولا. كان المحيّا فنّاناً مخفيّاً يرسم الرجال، خصوصاً المعلّمين. وكان متأكداً أن النفط سيخرج من داره قبل نهاية العام. سيكون نفط دجاج. فكّرت في أن أعرض عليه الصورة التي رسمْتُها البارحة. كان سيتعرّف على الأستاذ نبيل، وسيرى المرأة الساجدة ويقول: رجل يخرج النفط من ظهره. لطالما سمعْتُه يهمهمُ أنّ الشّبيه خُلق للشّبيه. لم أكن أفهم دوافعه ولا تشبّثه بالفكرة تلك، ولا لماذا كان يردّدها أمامي لا مع الآخرين.

يخربش أثناء الحصص، يرسم للرجال مؤخراتٍ من نور، وللنساء نهوداً من نار، يكتب تحت أشكاله التي يرسمها: "ظلمات بعضها فوق بعض"، وتارة "نور على نور".

وقف بُحيرى وشرح.

جاء معلم الإنجليزية وقال.

دخل أستاذ الرياضيات وكتب.

وتحدّث معلّم الأحياء عن الطلبة الذين يصيبهم النسيان لأنهم يعبثون بمذاكيرهم. أشار إليّ بطرف عصاه، كنت أجلس في مؤخرة الفصل. قال مبتسماً: "مثل الأخ". وضحك معه الطلبة. كنتُ في مكان آخر.

لكزني شمس الدين الابن فقلت إني مريض. كنت مريضاً بالفعل، وكانت الأميبا تنهش أمعائي. للأميبا أقدامٌ كاذبة، ذلك أكثر ما كان يخيفني منها. مخلوق كذاب يسرح ويمرح في الأحشاء. كان معلّم الأحياء يرسم الأقدام الكاذبة ويمسحها وأنا أحسّ بدبيبها. قال شمس إن والده يريد أن يراني ليقرأ عليّ من أشعاره. اعتذرت إليه. أثناء فترة الراحة خرج الطلبة وجلست وحدي في الفصل. لا أدري كيف عرف بُحيرى بالأمر. جاء إليّ بشوشاً كعادته وسألني عن صحتي. أخبرته عن الأميبا فنصحني بالعسل.

"اخلطه بالماء الدافئ، السمسم، الحبة السوداء، والزنجبيل"، قال.

اعتذرتُ إليه عن تأخري عن دروسه فقال: "لا عليك، إن كان لك اهتمام فنحن ندرس حاليّاً كتاب **مصطلح الحديث** لابن عثيمين.

لن نفرغ منه قبل نهاية العام. الأربعاء للعقيدة والخميس للحديث".

كان يوم خميس. غفوت بعد المدرسة حتى نزلت الشمس إلى عالمها السفلي. بين المغرب والعِشاء استمعت إلى الشيخ بُحيرى. كان متربّعاً، عريضاً، بهيّاً، يملأ ما بين الليل والنهار. تحدّث عن أنواع التدليس في رواية الحديث. قد يكون المدلّس راوية ثقة، فالتدليس وإن كان مشكلة علميّة إلا أنه لا يسيء إلى مروءة صاحبه. أغلب المحدثين، قال بُحيرى، مارسوا التدليس بطريقة أو أخرى. أن تروي عمّن فوقك بِعَن وأنّ، تقول حدّثَني أحمد عن محمّد، فأنت توهم المستمع بأن أحمد سمع عن محمّد. حدثني أحمد، قال حدثنا محمد، هكذا تكون الرواية خالية من التدليس.

عدت إلى غرفتي، كنت أمشي مثل غريق. سكنتني تلك الفتاة التي لا أعرف لها اسماً، ولا أدري ما إذا كانت زوجةَ الرجل أو ابنتَه. آليت على نفسي أن أمزّق الدفتر اللعين. من دلّس عليّ بشأنها؟ حين وقعت عيني على الدفتر، على الرسمة الأخيرة، انتفض العضوُ اللّعينُ وعوى. أحسست بالخجل من نفسي ومن الفتاة التي أهنتها. أعدت الدفتر إلى مكانه ورحت أمسح القذارة من بين أصابعي. بعد أقلَّ من نصفِ ساعة وصل الأخ يونس. ألقى التحية وظلّ واقفاً بين ضلفتي الباب. راح يستنشق ويحرّك أنفه في الهواء. اتّجه إلى الشباك وفتحه حتى سمعت وقع النحاس على الجدار. التفت إليّ وقال وهو يكتم ابتسامة لعينة:

"لا تنساش تفتح الطاقة".

لم أقلْ شيئاً، ولا يمكن مجادلة الأخ يونس بأيّ مسألة حتى لو كانت على مستوى العادة السرية. يرفض الأخ يونس تعبير "العادة السرية" ويرى أنها مراوغة لغوية سخيفة، وأن الكلمة الحميرية القديمة "ترهيط" تليق بالفعل. فالهاء والطاء من الحروف الثقيلة التي إذا دخلت على الكلمة فإنها تحرس معناها من التحريف. اختارهما الحميريون، قال، ببراعة لخلق إيقاع صوتي للفعل. فإذا قلت "ترهيط" فإن صوتاً حقيقياً يخرج من الكلمة مصطحباً رائحته معه، مانحاً الفعلَ ما يليق به من الرجولة والعنفوان. ما أحقرَ الحميريين وأذكاهم، يقول الأخ يونس. لدى الحاج علي رواية أخرى للكلمة. كان يقول: إذا استمنى الرجال وهو جالس فقد رهّط، أما إذا استمنى واقفاً فإن الكلمة المناسبة هي "ضَرَبْ مِرهاطْ". الذّكر لا يُلمس إلّا وقوفاً، مثله مثل الشّعرِ عند العرب: لا ينبغي للشاعر أن يقولَ إلّا واقفاً.

ما من أحد يدري أين تعلّم الحاج علي اللغة والنحو، ولا يمكن التنبؤ بمستوى أخلاقه. ففي أحيان كثيرة لا يمكن أن يصدر عنه هذا الكلام، فقد يبدو كهلاً محتشماً يزن كلماته لأيام عديدة. كان يستعرض معارفه أمام طالبات الثانوية عندما يقفن أمام دكّانه في زيهنّ المدرسي الحميم، في الأبيض والرمادي الداكن. أسرّ إلي يوماً عن رغبته في مضاجعة فتاة منهنّ شريطة أن تضع كتبها تحت رأسها.

"أقوِّم على الكُتب حقهن، مش عليهن والله".

يخشى الحاج علي، كما قال، على لغة الآباء. هرب من الحديث عن شهوته إلى الكلام حول اللغة. أدان اللغة المسخ التي تعلّمنا إياها المدارس، مثل استبدال الفعل "يقوّم" بـ"ينتصب". قال إنها ستؤدي إلى أسر بلا أطفال، أو ذرّيّة كلّها نساء. وإنّ الرجال سيكبرون بمفاصل مرتخية وفالتة. ثم استغفر الله فغفر الله له من توّه. لا يمكن لذنوب الحاج علي سوى أن تُغتفر، فما من رجل في تلك البلاد كان أطيب قلباً منه. وأيّاً كانت الكتب السماوية التي أنزلها الله فإنّ الحاج علي، وَفقاً لها كلّها، يستحق الغفران.

سألته عن الأستاذ نبيل، إن كانت له بنت في الثانوية العامة. تشاغل الحاج علي كأنه يبحث عن الإجابة أو يحاول أن يخفيها. وكعادته فتح الثلاجة ثمّ أغلقها. لم يفدني بشيء، لكنه قال إن بيوت المطاوعة مملوءة بالنسوان.

مضت الأيام، ذهبت مجدّداً إلى درس الحديث في مسجد بُحيرى. وصلت متأخراً وصليت المغرب وحدي في ركن المسجد. كنتُ طاهراً على طريقتي. بينما أقرأ التشهد وأرفع إصبعي وصلني صوت الأستاذ بُحيرى.

"أما شروط قبول الرواية فهي: الإسلام، العدالة، التكليف، الضبط حال السماع. أما العدالة فتعني السلامة من الفسق ومن خوارم المروءة كالخمر والزنا والبدع والعقائد الضالة".

جلستُ في مكاني واستمعتُ إلى الدرس، كنتُ آنذاك رجلاً مخروم المروءة. ما من شكّ في ذلك. وعندما خرجت من المسجد ورأيت الدنيا، تلفّتُّ يَمنةً ويَسرةً ولم أدرِ ما الذي سأفعله بكل هذا

العالم أمامي. كان البشر يملؤون الشوارع والدكاكين وكانت أصواتهم العالية تقول إنهم كلهم، بلا استثناء، مخرومو المروءة. سلكت طريقي إلى محل لبيع الزلابية بالقرب من السينما، ثم قرّرت أن أشتريَ تذكرة دخول. قاعة كبيرة مقسّمة إلى صالة وبلكون. أردت أن أهرب من ذنوبي إلى حيث تكون الذنوب هي كلّ شيء. اتّبعَتْ السينما تقليداً صارماً، تختار مساء الخميس فيلماً طويلاً يتيح لها أن تقطعه بعدد من الاستراحات. كانت الاستراحة تأخذ ربع ساعة تعرض فيها تجميعة لمشاهد جنسية من أفلام عديدة. تلك هي هدية السينما لعمّال الحراج وشغّيلة اليومية مساء كل خميس. عندما تحسّست فتاةٌ شيءَ عشيقها صاح رجلٌ من البلكون: وحدووه. فتضاحك الناس، كانت أصوات ضحكاتهم واهنة كما لو أنهم في لحظة قذف. كانت الأمّة كلها في ساعة قذف. تذكرت ما كان الأخ يونس يقوله عن هذه السينما: يقذف الشخص على ظهر من يجلس أمامه. يخرم الرجل مروءة جاره، فكّرتُ. خرجت مغادراً، وفي الخارج تقيّأت الزلابية والبطاطا. الرائحة التي صعِدَت من القيء لم أعرفها قطّ. كانت رائحة رجل انخرمت مروءته، رجل شهد كفراً بواحاً وهو مُقوّم.

وقفت أمام باب موسى، وهي بوابة غربية للمدينة القديمة. تأملت الفراغ الذي يحيط بالباب. ثم سلكت طريقي في شارع الجمهورية، الطريق الذي سيسلكه الأخ يونس قريباً في زي أبي حذيفة السلفي. وصلت إلى غرفتي وكانت الساعة تداني التاسعة والنصف. فتحت النافذة وجلست على فراشي. استخرجت الدفتر

وبحثْتُ عن الفتاة. رسمْتُها مرّة أخرى. هذه المرّة رسمتها واقفة إلى الحائط. لم أكن جيّداً في الرسم ولكن ما الرّسمُ؟ هو ما نتخيّله لا ما نضعه على الورقة.

وقفتُ خلفها وهي مستندة إلى الحائط. لم أشأ أن أسلبها بكارتها، ولا أن أجرحها. تحاشيت أن أرسم لنفسي مؤخرة، وبدلاً عنها رسمت صندوقاً. كانت فتاة رائعة تعرف قصائد البردوني ورأسها مملوء بالحكايات مثل شهرزاد، وفوق هذا كانت تحبّ الهندسة الفراغية، وربما كانت ابنة رجل من كبار القوم أو زوجته.

هل أنا مخروم المروءة بالفعل؟ رسمت شكلين متلاصقين بلا أعضاء جنسية. لماذا لا أفكّر في الحب، في مجرّد الحب؟ وما هو الحب؟ ليست القصائد والغزل والأشواق سوى تعبيرات مهذبة عن الرغبة في المضاجعة. تصبو كل الأغاني والقصص الرومانسية إلى لحظة قذف. وبما أني بتّ مخروم المروءة فسآتي القصّة من آخرها.

لا أدري كيف سقطت في النوم ونسيت أن أخفي الدّفتر الخطر. ارتجفت في نومي. أحببتُ فتاةً وقبل أن أبلّغها حبّي ضاجعْتُها ونسيت الكلمة. صحوتُ من نومي فزعاً. لم يكن الأخ يونس هناك. ربما بات عند أصحابه من الإخوان، أو إخوانه السلفيين، أو خرج مع زبائنه الأمويين. حمدت الله أنه ليس هناك ولم يرَ الدفتر. قلبت الأوراق إلى أن وصلت إلى صفحة بيضاء فكتبت قصيدة. أتذكر أشياء كثيرة من تلك القصيدة، كانت نصّاً عامراً بالحماسة، حماسة رجل نجت حبيبته من فضيحة على يديه. آنذاك أردتُ أن أطهّر نفسي بالشعر. كتبتُ في مطلع الصفحة: عن المتقارب قال الخليل/ فعولن

فعولن فعولن فعول. ثم كتبت على المنوال نفسه. استراحت نفسي لأول مرّة. لقد طهّرتني القصيدة، وحين وقفتُ أمام الغرفة وتبولت في الفراغ رأيت في ظلام تلك الليلة شيطاناً عارياً خرج من عضوي وهرب إلى الجبل. راح ينهب الجبل صعوداً حتى بلغ قمّته، ذلك المكان المسمّى جبل العروس، من هناك يهبط السيل، وإلى هناك تصعد الخطايا. وقف الشيطان العاري على أكَمَة العروس وراح يعوي تحت سمع الله وبصره. لو شئتُ في الساعة تلك أن أقول لدجاجة قومي من موتك لقامت. ولو أذّنت لضجّت ديوك الحي وواصلت الضجيج حتى قيام الساعة.

ما كان لرجل استعاد مروءته للتوّ سوى أن يفعل شيئاً واحداً، شيئاً واحداً لا ثانيَ له:

أن ينظر إلى السماء الدنيا وكأنه لا يعرف شيئاً.

10

قلت لشمس الدين الأب حين سألني "هل تخاف من ذنوبك؟" إن الوضوء يطهّر الجوارح ويغسل الذنوب.

وكذلك يفعل الشعر، قلتُ بعد لحظة صمت، وتضاحكتُ.

– أين قرأت هذا؟ لا أسألك عن الشعر، أعني الوضوء.

– "ألا أدلّكم على ما يمحو به الله الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطى إلى المساجد".

– حسناً، حول هذا سنُدندن. و"الصلوات الخمس مكفّرات لما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر"، يقول حديثٌ آخر. هذه الأحاديث على كرمها تضع شرطاً عصياً على العبد، وهو ترك الكبائر. شرط عصيّ ليس لأننا لا نقدر على تركها بل لأننا لا نعرف ما الكبيرة وما الصغيرة. بغِيٌّ رأت كلباً يطوف حول بئر وقد استبدّ به العطش فخلعت خفّها وسقته فغفر الله لها. امرأةٌ مؤمنة حبست هرّة فلا هي أطعمَتْها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض فدخلت النار. ما الكبيرة؟ ما الطاعة العظمى؟ حبس الهرة كبيرة، وسُقيا الكلب فضيلة توازي التوحيد؟ أيعقل هذا؟

أجبته، وكأني أسمع هذا الكلام لأول مرّة:

– هذه الأحاديث عند البخاري وهي صحيحة.

كانت ملامحه تتداخل فجأة كأنما يفقد شغفه للكلام حين يسمع اسم البخاري.

قال:

– إذا قال الله لن أغفر لك حتى تترك الكبيرة فما الذي سيغفره إذاً؟ صغائر الأمور وتوافهها؟ أهكذا يكون جلال الله وكرمه؟

تأمّل في قاع عينيّ وكاد يرى مروءتي. أكمل وقال:

– حين تهجر الكبيرة فأنت تغفر لنفسك بنفسك. إن للخطيئة لذّةً، ولذّتها البكاء وانتظار المغفرة. ما يجعلنا نعود إليها بين الحين والحين هو ظنّنا الحسن بربّ العالمين. ليس صحيحاً أن النار حفّت بالشهوات والجنّة بالمكاره. النار والجنة محفوفتان بالشهوات، والشهوات ليست طريقاً إلى الهلاك. التحدي ليس هو الهلاك. يهلك العباد حين لا يجدون معصية يقترفونها فيعجزون عن إدراك حقيقة الله ومهابته.

– هل هي دعوة إلى الخطيئة من أجل اختبار وعد الله بالمغفرة؟

– الله أفضل من يفي بوعده، وما خلق النار ليعذب بها. خلقها ووسعها ثم عرضها على الناس ليعلموا أنه العدل، وأن الظلم مسألة لا تهاون معها. الجنة يا بنيّ لكل الخلائق، لمن أراد أن يدخلها. الكريم لا يغلق بابه في وجه أحد. قال له أحد الصالحين إن كنتَ لن تمنح جنّتك إلا لمن أطاعك فستبقى خاوية على عروشها.

التقط أنفاسه ومسح شيئاً من على جبينه بطرف شاله، ثم واصل حديثه:

– دخلت علينا وعيناك مليئتان بالإثم. دعني أخبرك ولا تغضب من كلامي: لا شكَّ لدي أنك ارتكبت ذنباً في الأيام الماضية، وأنّك مصرّ عليه. لا أظنّ أنّك قادرٌ على تركه. يقول الحبيب ما من عبد إلا وله ذنب يأتيه الفيّنة بعد الأخرى حتى يلقى الله. فإن كانت المغفرة

مقرونة بترك الذنوب فلن ينالها أحد سوى العارفين. والعارفون يا بني ليسوا بحاجة إلى المغفرة، ليس لأنهم بلا ذنوب بل لأنهم يحبون الله بلا شروط، وهم مستعدون للجنة والنار بكل رضا. لم يتساوَ لديهم الذهب والمدر وحسب بل الصغيرة والكبيرة، فوجدوا الباطل في الحق والحق في الباطل. يا بني إذا دنوت من الله رأيت حقيقة أخرى.

– كأنك تقول إن الخطيئة تطهّر العبد؟

– الخطيئة، ما ألذَّها من كلمة. ردّدها في صحوك ومنامك، فلولاها يا بُنيّ لما عرفنا الأنس بالله. ارتكبْها في شبابك وتجاهلْها في شيخوختك ثم صالحْها قبل موتك.

– أرتكبها في شبابي؟

– ارتكبْها في شبابك، وكِل أمرَها إلى الله. كنْ خطّاءً وامضِ في سبيلك. أياً كان عِظَمُ الذنوب فهي أصغر من الله، شريطة ألّا تكونَ ظلماً لإنسان. دع الغفّار يؤدِّ عمله.

– لكن الخطايا تلوث القلوب وتقهر العبد.

– إن قهرتك ذنوبك هلكت. ذلك أنك – وتمهّل شمس الدين في كلماته – لا تثقُ بربّ العالمين. ثقْ به ليجعلك فرداً ربّانياً تقول للشيء كن فيكون. فإذا ما أصبحت ربّانياً فسوف تمحو خطاياك بنفسك، بإذن منه تعالى. قف هناك واغفر لنفسك.

هلكتُ ورب الكعبة، قلتُ لنفسي.

كان شمس الدين يحدّق في عينيّ بعينين باردتين. كان ابنه منصتاً ويهزّ رأسه. بالأمس حضرت درس الأستاذ بُحيرى في

الحديث وهناك أدركت أني رجلٌ مخروم المروءة، فهربت إلى السينما وعاشرت مخرومي المروءة لبعض الوقت. والآن يرى شمس الدين آثامي ويبشّرني بالهلاك. صبّ شمس الدين القهوة لثلاثتنا. غيّرت رائحة الزنجبيل أجواء الديوان وفرّت الشياطين. كان شمس الدين قد توقّف عن الحديث وبقي صوته يتردد بين جدران ديوانه.

ثم قال محاولاً احتواء هلاكي:

– خبّرني عن ذنبك، أهو امرأة؟

هززت رأسي وتركت شفتيّ تفلتان مني. هو امرأة، وليس امرأة. ماذا أعرف عن ذنبي؟ مسح شمس الدين على لحيته المحنّاة. قال دون أن يكون قد سمع مني جواباً:

– وهل المرأة ذنبٌ يا بنيّ؟

سمعنا صياحاً في الحيّ، صوت رجل يحلف بالله.

– الذنب ما حاك في قلبك وخشيتَ أن يطّلع عليه الناس.

قلتُ لشمس الدين.

– وهل تخشى أن يطّلع الناس على ذنب ارتكبته مع امرأة؟ أتظن الناس، كلّ الناس، بلا ذنوب؟ وهل من رجل في الدنيا لم يَدنُ من امرأة؟ ما الفن والأدب والحروب والرسالات وكل ما إلى ذلك؟ أليست مجرد قصص لرجال مع نساء؟

ثم نظر إلى ولده وسأله:

– هل أفشى لك بسرّه؟

فهزّ شمس الدين الابن رأسه نافياً.

– إذاً هو ذنب. لا تصبح المرأة ذنباً إلّا إذا أخفى الرجل قصّتها، ولن يخفي قصتها إن لم يكن ظالماً لها أو لنفسه. تطهّر من الذنب وحدّث الناس عنه.

– إن الله ليغفر الخطيئة ما لم يجاهر بها صاحبُها.

– المجاهرة شيء، والاعتراف أمرٌ آخر. إن لم تستطع أن تتطهّر منها فستقضي عليك.

– وهل هناك من وسيلة أخرى للطهارة غير الإفصاح عن المعصية؟

– ألم تقل إنك قرأت في البخاري حديثاً عن الطهارة بالوضوء؟

– ولكنك قلتَ إن ذلك لا يكفي.

– أنت لم تستوعب كلامي إذاً. إن وقعتْ ذنوبك وأنت ذاهب إلى الله فهي لا شيء، وإن أتيت عليها وأنت شارد في الدنيا كالبعير، لا تقيم لله وزناً، فسوف تمضي خطيئتك معك وستحيط بك. ألم تقرأ الحديث عن كثرة الخُطى إلى المساجد؟

– بلى، أعرف الحديث.

– كلّ الخُطى إلى الله مباركة، وما المساجد سوى أماكن. أينما أخذتك قدماك فثَمَّ وجهُ الله. الله لا يسكن بين الجدران. امضِ وحيثما تدركك السعادة قفْ وتلفّت، ستراه. وقبل أن تتلفّت تأكّدْ أنه لاهبٌ في صدرك لا يخبو، أنه يشغلك أكثر من خطاياك.

ثم سألني:

– ائتمنَكَ أحدُهم على زوجته فوقعت في غرامها. أتلك هي خطيئتك؟

تجمّد الدّم في ذراعيّ وبقي سيّالاً في أطرافي السفلى. حاولت أن أهرب من عينَي شمس الدين، من حدسه، ومن صوته الذي يملأ كلّ شيء. عاد الصوت الغليظ مرة أخرى، رجل في الخارج يواصل الحلفان بالله. أنا هنا لأنّ شمس الدين الابن دعاني، قال إن والده راغبٌ في الاستماع إلى قصائدي، وإنه سيُسمعني من أشعاره. أخذني إلى وادٍ آخر. توغّل في ذنوبي وكشفها، ثم بشّرني بهلاكي إن لم أكن جديراً بالخطيئة. كأنّ الخطيئة اختبار للقوة. استخرج خطيئتي من أعماقي وطرحها عارية أمام عيني. كانت خطيئتي عاريةً وها هي الآن أكثر عرياً. قال إني لن أفلت منها وسأرتادها الفيّنة بعد الأخرى، إنها ستحيط بي إن لم أكن قادراً على ترويضها واحتوائها. قال إني هالك، ثم قال إني ربما سأجد الله في تلك الفتاة. طرحني في باب الجحيم واستعادني ساخراً، مغمغاً: "ما تظنّه الجحيمَ ليس سوى وجهِ الله". المرأة لا تودي بالرجل إلى المهالك بل إلى الحق، ولا تلقي بصاحبها إلى النار بل تفتح له فتوح العارفين. كيف أفصح عنها؟ شمس الدين الابن يلتقط كلّ كلمة، ماذا لو قلتُ لهما إني أرسم زوجة الأستاذ نبيل في دفاتري، وأستمني على اسمها، وإني ربما أسميتها دِينا.

– هل قرأْتَ شيئاً من **ترجمان الأشواق**؟

بدّد سؤاله الظلمة الحالكة التي أحاطت بي.

– لا.

– نزل مولانا ابن عربي في منزل صديقه الشيخ زاهر الأصفهاني. بعد أن رأى منه الأصفهاني ما رأى من الأدب والبلاغة عهد إليه

بتعليم ابنته. لا ندري ماذا تعلّمت الفتاة من حكمته وأسراره، ولكنه عشقها وتشبب بها وتعبّد الله من خلالها. لو كتم حبّها لأصبح مذنباً وخائناً مثلك الآن. شيوخنا لم يكونوا يرون في المرأة رجساً ولا حتى جسداً، بل فيضاً من فيوض الله. لم يجد ابنُ عربي الله في شيء أكثر مما وجده في تلك الفتاة، حتى إنها ألهمته الترجمان والفتوحات، وربما أكثر من ذلك. إذا لوحت لك المرأة فلتمضِ إليها وستجد الله. كان بعض ساداتنا يمجدون القرب من المرأة حتى الفناء فيها، ففي أعماق ذلك الفناء وجدوا الحقّ وانفرد بهم الحقّ. مضى موسى إلى الجبل لينفرد بالله دوناً عن الناس، ليكونَ كلّه لله ويكون الله كلّه له. أمّا ساداتنا فوجدوا الجبل في مكان آخر. الجبل قد يكون امرأة أو كلباً يلهث من العطش. إذا وجدت الله ستعجز عن شكره، ولن يكون أمامك وأنت على متن الجبل سوى أن تقول: إلهي إني عاجز عن شكرك فاشكر نفسك عنّي.

ثم قام شمس الدين من مجلسه وطاف قليلاً بالبيت متأملاً رفوف مكتبته وهو يغمغم بصوته المهيب:

”حجبهم بالاسم فعاشوا،

ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا“.

في غرفتي رسمت تلك الفتاة مرّة أخرى. كانت عيناها في تلك الليلة أوسعَ من كلّ الليالي، وكانت جالسة وتلوّح بيدها. مضيتُ إليها وبالكاد كانت قدماي قادرتَيْن على حملي. أردت أن أقول لها إن ربي قد هزم ربّك الليلة وغفر لي. ولكني خشيتُ إن أنا قلتُ ذلك فقد أسأت فهم الله مجدّداً، وفاتَتْني حقيقتُه.

11

دخل شهر رمضان وازدحمت المدينة. أغلقت السينما أبوابها احتراماً للشهر الكريم، وصفّدت كلّ شياطين الرّيف. تبقى شياطين المدينة طليقة لأنها شياطين شوارع.

أوقف الأستاذ بُحيرى دروسه ولم أكن قد حضرت معه سوى مرّات قليلة. كنتُ أحرص على الجلوس خلف عمدان المسجد حذراً من عينيه. لبُحيرى عينان تريان بنور الله. أولئك المخلصون لإيمانهم بمقدورهم رؤية ما أخفيه، هذا ما برهنه شمس الدين الأب عمليّاً. بُحيرى السلفي لن يكون شيئاً آخر، الإيمان يمنح القدرة على رؤية العوالم السفلية. عبد الله البعداني كان قادراً، اختبرته أكثرَ من مرّة. حتّى الأستاذ نبيل كان قادراً على رؤية ما وراءَ العينين. هل كان الكابتن منيف ليختلف عنهم؟

سقطتُ من القرية إلى جزيرة من المؤمنين، كلٌّ يصلّي على طريقته. ربما ليس إلى الله ولا إلى الحقيقة، ولكن إلى سرّه بكل تأكيد. أخافني شمس الدين الأب وجعلني أتخيّل العالم عامراً بالعارفين. آه، قالت لي أمّي وهي تزوّدني بالنصائح: "لا تقلْ لأهل المدينة لا. قلْ نعم. يوماً ما ستقولُ لا، لا تستعجلْ عليها". ليتني قلتُ لا منذ البدء. "نعم" تفتح كلّ الأبواب دفعة واحدة. قرويّ مثلي لم يكن بحاجة إلى سوى بابٍ واحد، بابِ غرفته. وإلى نعم واحدة، يقولها في حضرة رجل سأله إن كان يملك ملخّصات في الهندسة الفراغية.

قبل رمضانَ بيومٍ واحد وصلتُ إلى المدرسة متأخّراً، كانت البوابة قد أغلقت فجلست في كفتيريا الدعوة أنتظر. شربت الشاي، حدّقت في العربات والناس، حتى إني تعرّفت على السيارة التي كسرتْ ساق والدي عندما كنتُ لا أزال غلاماً تائهاً في القرية. لم يسبق لوالدي أن وصف شيئاً بدقّة عالية كما فعل مع السيارة تلك. كانت الشّيء الذي هابته قريتنا لردح من السنين. قال لنا آنذاك إن السيارات وباءٌ أُرسل على بني آدم. لاحظت أمّي أن والدي تحاشى الإشارة إلى الله لأوّل مرّة.

الشتاء يمرّ قطرةً قطرة، على مهل، كأنه العمر كلّه.

وقعت عيني على جهة خفيضة من سور المدرسة، هناك حيث نقفز ونفرّ. وضعت المدرسة حارساً على تلك الجهة، كان يساعد الطلبة على اجتياز السور لقاء بعض الريالات. وإذا ما حاول طالب خديعته فإنه يرفعه إلى كتفيه ثم يلقي به من على السور. أو يفعل التالي: ينزع نعلي الطالب ويلقي بإحداها إلى الأسفلت وبالأخرى إلى ساحة المدرسة.

تحاشى عبد الله البعداني الحديث إليّ. كان قد دعاني قبل أيام لحضور البيان في جامع النور. قال إن الشيخَ حمود سيلقي البيان بنفسه وسيكون حول شكر الله. وعدته بالحضور ونسيتُ الموعد. لعبد الله قلبٌ طيّبٌ ولكنه لا ينسى. راح منه النسيان حين قيل له، قبل أعوام، إن أهل زوجته حملوها على الأكتاف وعادوا بها إلى القرية وهم يتصارخون كأنهم غِيلان. تجاهلْتُه أنا أيضاً وجلسْتُ أنظر إلى الناس. مرّ أمامي رجلان أجنبيان، واصلا سيرهما بمحاذاة سور

المعهد المقابل للمدرسة. راحت عيناي خلفهما إلى أن حادا يميناً وأغلقا باباً خلفهما. شممت رائحة عبد الله، كان يقف إلى جواري وينظر. لم نتبادل أيّاً من الكلمات. أبعدْتُ عينيّ عن عينيه. هذه مدينة مكشوفةٌ فيها أسرارُ الناس. فكّرت في إحراق غرفتي، في أن أصبّ الزيت وأشعل النار. أنجو بنفسي. لا أريد أن أفكّر في زوجة الأستاذ نبيل مجدّداً، لا أحتمل منظر أنفه. يشبه أنف القائد محمد الفاتح، وأنوف كثير من القادة الفاتحين، يشبه أنف جنكيز خان. أخاف من هؤلاء كلّهم، حتى من البعداني. ليسوا عاديين ومسطّحين مثلي، للرجل منهم أعماق ليس لها قرار. ما إن تقترب من الرجل حتى تجده جماعة. أليس فيكم فردٌ آحاد، بشر بلا دهاليز؟

في الغرفة، قبل الغروب، كنتُ فقط أحدّق في السقف. حدّقت فيه حتى اختفى وظهرت السّماءُ الزّرقاء. كانت ترتعش بعض الشيء كأنّها ترغب في أن تفشي سرّاً. مرّت عصافيرُ بلا ألوان. دِينا، دِينا، دِينا. كانت العصافير تغنّي في طريقها إلى الجبل.

– سمعتُ أن السلفيين سيشترون المعهد.

سألت الأخ يونس حين عاد للنوم.

– وماذا سيفعلون به؟

أجابني وكان يبحث عن نظارته.

– قالوا إن اليمن الأسفل ليس فيه مدرسة للحديث.

– لو المتحدث مجنون فالمستمع عاقل.

قال الأخ يونس وهو يمسح نظارته، ويواصل لمّ أغراضه. ثم راح ينظر إلى حوائط الغرفة ويغمغم:

– العبارات التي على الجدران امسحْها أنت، أو اتركْها.

– هي مقولات عامّة عن الإخلاص. ليست أسراراً سياسية.

– الإخلاص ليس شأناً عامّاً.

قال وهو ينظر إلى شيء في الحقيبة.

راح بنفسه يمسح دعاء الرابطة من على الحائط المحاذي لفراشه. كانت فرُشُنا على الأرض، لم نكن نملك أسرّة. اختار من الدعاء كلمات بعينها ومسحها: هذه القلوب، التقت، تعاهدت، نُصرة شريعتك. ترك الباقي.

عرف الأخ يونس اسم المؤذّن الذي سيخلفه. فاروق الشرعبي، سبق له أن درس في كلية دار العلوم الشرعية في الحديدة. كان صوفيّاً ولكنه مع الليالي نسي حقيقته. جاء في موعده في الأيام الأخيرة من الشتاء، وكان أوّل ما قاله لي وهو يضع قدمه في الغرفة التي صارت تخصّه:

”آه كم أعشق منظرَ الكتب هذا“.

ثم عرّف بنفسه وتوقّف عند اسمه. قال إن والده تنقّل ستة أشهر بين القرى يبحث له عن اسم، ولمّا عاد منكسراً قالت له الجدّة لنسمِّه فاروق. أسموه فاروق على اسم صاحب دكان القرية، وكان رجلاً أشعثَ قتل الطاهش ثلاثَ مرّات وسقط ميّتاً في طريقه إلى الحجاز. انتظر والد فاروق فتاة، كانت كل النجوم تقول إن رحم زوجته تخبّئ فتاةً. كل النجوم بما فيها تلك التي نادراً ما تقول شيئاً.

”وعندما ولدتُ“، قال فاروق وسكت.

وبعد أن استكمل إخراج الأشياء من حقيبته قال:

”رفعَتْني جدّتي إلى محاذاة عينيها وشمّت ما بين فخذَيّ ثم حدقت في مؤخرتي لبرهة. استدارت إلى والدي قائلة: لنتمهّلْ في مسألة الاسم وننتظر. غمغم أبي أمامها، وكان يهابها. قال: ولكنه ذكّر. توسّعت عينا الجدة حتى صارتا بحجم الشمس والقمر وكان ذلك نذير سوء. فقال الوالد، وقال كلّ من كان بالغرفة آنذاك: كما قالت الحاجّة، سننتظر. لم يكن جدّي على قيد الحياة في تلك الساعة، ولو كان لا يزال حيّاً لقال: صدقت الحاجّة، عجائب الله لا تنقضي. كان جدّي حين ينظر في عيني جدّتي يدرك أن عجائب الله ليس لها انقضاء“، قال فاروق مبتسماً وشارداً.

أذّن فاروق للصلوات، أذّن وأيقظ الرجال أولاً ثم الديكة ثم سائر الخلق. خلط بين المقامات، كان يدخل في الصبا ويخرج من نهاوند، وحدَث في ليلة أن تداخل مقامان عند حرفين فكادت السماء تهوي. كان فاروق يعلم حقّ اليقين أن الحروف موصولة بالعرش من جهة وبمنازل القمر من جهة أخرى. ولو تداخلت منزلتان في لحظة صفاء، وكان المؤذّن يهبط من مقام إلى آخرَ، لاهتزَّ عرشُ الله.

لم يَسمح لي بالأذان في الأسابيع الأولى فقد كان يريد أن يعوّد الناس على صوته، كان يريد لمقاماته أن تستقرّ في الحيّ، وفي ضمير الناس. بخلاف الأخ يونس فقد كان فاروق يؤذّن كل الأوقات ولم يكن لديه من عملٍ سوى الأذان. الحقيقة أني لم أكن أحبّ أن يراني الناس بصحبته فقد كان مؤذّناً خالصاً ولم يكن له من مهنة

أخرى في الدنيا، والناسُ تحبّ المؤذّنين وتحتقر من يسايرهم. كان طموحُه أن يؤذّن في مسجدٍ أكبرَ وفي حيّ أوسع. وكان أحياناً يهذي وهو مستلقٍ على فراشه وأنا منكبّ على دروسي، يقول كلاماً على شاكلة: "أتمنّى يا أخي لو كل منارات تعز وُضعت الواحدة فوق الأخرى إلى أن تبلغ عنان السماء، ثم أصعد أنا إلى قمّة المنارة السبعين وأصدح بأذان يسمعه الجنّ والإنس، أذان يهزّ عرش الرحمن".

ثم يسألني:

– هل تعرف أن تعز بها سبعون منارة، وأنها كانت تسمّى بلاد المنارات؟

فأهزّ رأسي وأجامله بكلام لا يدري كلانا ما علاقته بالموضوع.

ذاتَ مرّة قال لي الحاج علي وهو يناولني طلبي في كيس شفّاف:

– أذان الإخوان غير.

– الصوفيون أذانهم أدفأ.

– أيوه بس أنا اشتي أذان يقفّزني من النوم. الصلاة عماد الدين ماهيش مطمطة.

عندما لاحظ الحاج علي أني أهمّ بالمغادرة استدرك وقال:

– شكله من مواليد برج الحَمَل.

– من تقصد؟

– أقصد المؤذّن الجديد.

– لا أدري والله.

– شوف أنا برجي الميزان. الميزان لا ينفر إلّا من الحمل.

– والله يا حاج هذي القصص لا تدخل رأسي.

– الأبراج أقدم من المدرسة حقّك بعشرة ألف سنة، قال ما يؤمنش.

وضحك. ثم قرقَر كأنه يناجي نفسه أو يستغفرها:

– صاحب الميزان قلبه من ذهب.

ونظر إلى ما بين قدميه وقد أخجله مديحُه لقلبه.

كنت أعرف أن فاروق الشرعبي لن يكون صديقاً للحاج علي. نهران مختلفان. الحقيقة أن الناس ظلّوا ينادون المؤذّن الجديد باسم المؤذّن القديم. ثم اعتادوا اسمَه الجديد وأبقوا على الاسم القديم لغرفته: غرفة الأخ يونس. سيطر الأخ فاروق على المواقيت، وجعل الناس أكثر انتظاماً بالصلاة. لا أدري من الذي جاء به إلى المسجد، لا الناس الذين يبنون المساجد، ولا أولئك الذين قدّم إليهم الأخ يونس استقالته. كنتُ أحاول أن أحصل على الإجابات دون الحاجة إلى إلقاء الأسئلة. طبيعتي القروية كانت صارمة. في القرية تعيش الأشياء على السطح وإذا اضطُررنا لطرح سؤال فذلك سيعني أننا بصدد الكشف عن سرّ ليس في مقدورنا احتماله. لا نحبّ كشف الأسرار في القرية. حتى الرجال، وهم ثرثارون بالفطرة، يبقون على الأسرار طيّ الكتمان. كنّا نرى القرية كما لو أنها سفينة في بحر الله، وأن علينا أن نعمل كلّ ما ينبغي من أجل الحفاظ على ذلك الاستقرار، ولا نزعج سفن الله وبحاره. من ذلك ألّا نطرحَ الأسئلة العويصة ولا نبالغَ في التذكّر. وأجملُ ما في حياة

القرية أنّ كلّ شخص كان يحاول أن يقرأ الأسرار في عينَي الآخر أو في زلات كلماته ثم يكتم ما رآه. شيء من الغموض في حياتنا جعلها أكثر روعة من حياة المدن. كان لكلّ قرية سكينتُها الخاصّة وسرُّها المكنون. حتى مواشينا كانت تشبهنا، ونادراً ما كنّا نبحث لأبقارنا عن ثور في قرية أخرى. كان ثيراننا مطيعين وأقوياء، وعندما كنّا نربط أبقارنا الشابة أمامهم كانوا يهبّون إليهنّ ويحرثونهنّ حرث الطغاة. كانت البقرة تتلقى نصيبها بكل خضوع وطاعة عدا بقرة بن عيسى، الرجلِ الجبّار الذي حج عشر مرّات إلى منتصف الطريق وعاد. كانت تدور حول نفسها وحول شجرة النكاح راغية ومزمجرة إلى أن يرتعد الثور ويولي هارباً. وكان بن عيسى يفك وثاقها أمام عيون القرية كلها، ثم يدفعها أمامه ويركلها متوعداً: "حرام وطلاق ما أركبك إلّا أنا". كان الصّبية يتحلقون حول الشجرة ويشاهدون. يتصايحون أو يسبّحون. حتى إن الجدّات، في شبابهن، كنّا يدلّعن أزواجهنّ قائلات: "الثور حقّي". ولكن ذلك تغيّر على جيل آبائنا، وهم الرجال الذين تركوا نساءهم وذهبوا إلى الخليج. ولما آبوا من السفر بعد أعوام كان التيه يملأ أعينهم، ولم يعودوا جديرين بذلك الدلع.

استجبْتُ لدعوة عبد الله البعداني، صاحبِ كفتيريا الدعوة، وذهبْتُ إلى جامع النور في شمال المدينة. تجمّع التبليغيون في وسط المسجد بعد صلاة العصر، ثم زحفوا على مؤخراتهم حتى صاروا تحت المنبر. كانوا زهاءَ العشرين وكنت الحادي والعشرين. جلس الشيخ حمود على كرسي فوق سجّادة الإمام. كانت

السجادة متآكلة في موضع السجود وعند القدمين. همس البعداني في أذني قائلاً: "هذا الكرسي خاصّ بالشيخ، نحمله معنا من مسجد إلى آخر". لم يكن في الكرسي ما يميزه عدا أنه من خشب. الأعمدة منتشرة في أرجاء المسجد، وهناك دائماً رائحة عفن قادمة من مكان ما، وسكينة آتية من كلّ مكان. تحدّث الشيخ حمود عن مقام الشكر. قال إنه أفضل العبادات، وهو مخّ الطاعة. ثم نظر إليّ مباشرة وقال: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}. كنت أعرف أنه لن يكمل الآية. يأخذ التبليغيون الجانب الطيّب من القرآن، الكلام الذي يفتح الأبواب، والنصوص التي لا تغرق السفن. أخذ الحديث عن الشكر ساعة كاملة، وكان الشيخ حمود يقول الفكرة ثم يلحقها بقصة من سيرة عيسى بن مريم وغيره. كانت قصصاً رائعة لا يمكن لطالب في الثانوية العامّة إلّا أن يصدّقها لما فيها من الجمال والطيبة. نحن نصدّق القصص الطيبة لأنها مليئة بالتعاطف والنبل. حتّى الخرافاتُ التي يرويها حكّاءٌ طيبُ القلب أفضلُ عندَنا من عشْرِ حقائقَ مُرّة. يحبّ السلفيون قصّة النبي إبراهيم، النبي الذي أفاق من نومه وقرر قتل ولده. غير أن التبليغيين يجدون ضالّتهم في قصة إسماعيل، الضحية الطيّب، لما فيها من يقين وفداء. كلٌّ يجدُ في القرآن ضالّتَه. دارت الفكرة في رأسي وأنا أسمع قصصاً جيدة عن الشكر، ولست أتذكر كيف انتقل الشيخ حمود من مقام الشكر إلى مقام الثناء. ولكنه بين المقامَين قال إن رجلاً صالحاً من بني إسرائيل مرّ على قرية فوجد جميع أهلها موتى وهم مستلقون على وجوههم. ألقى السلام عليهم وسأل: هل فيكم من يردّ على

سؤالي؟ فقال رجلٌ من الموتى: نحن قرية آتاها الله كلَّ شيء وبدلاً من أن نشكره تجاهلناه فصرنا إلى ما ترى. سأله الرجل الصالح: ولماذا أنت لم تمُت؟ فقال الرجل: كنْتُ رجلاً شاكراً وذاكراً ولكني لم أكن أنكر على قومي ما هم فيه من الجهالة والغرور فألقاني الله في هذا المصير فلا أنا بالحي ولا أنا بالميّت.

بعد أن انتهينا من البيان وقمنا، أمسك الشيخ حمود بيدي وتجوّل معي في المسجد. واصل حديثه عن شكر الله كأنّه أراد أن يبلغني رسالة تطمين عن ذلك الإله الذي يعرفه أكثرَ مني. قال إن الله لا يسلب النعم التي منحها للعبد، فهو ليس شيخ قبيلة، غير أن الشكر ينمّيها والنكران يبخسها. كنتُ أستمع إليه وأنظر إلى موضع قدمي، إذ لم أكن على استعداد لنقاش مسألة معقّدة مثل الشّكر. فقد ذهبت مع الإخوان والسلفيين إلى كل وادٍ وشعب ولم يأتِ أحدٌ منهم على الشكر. مع السلفيين كنتُ أمُنّ على الله بعقيدتي، وكنت حين أمضي بين الناس أقول لله الذي في السماء: أنتَ الآن تعلم أنه ما من أحد يثبِتُ لك ما أثبتّه لنفسك سواي. ومع الإخوان فقد كان الله في كل مكان، يريد المزيد من الرجال، وكان متألماً لضياع ممالكه في الشرق والغرب، وكنتُ أعده بأن أبذل قصارى جهدي. وفي مدرسة شمس الدين ذهبتُ بعيداً، حدّ أن أتوقّع الشكر من الله لأني عصيْتُه رافعَ الرأس.

لم تكن ندوة الشيخ حمود مجرد محاضرة في الدين، كانت خروجاً في سبيل الله. أوضح لي الشيخ حمود الأمر دون أن يخوض في التفاصيل، وكنت أعرف الكثير عن حياة جماعة التبليغ وأساليبها

وفلسفتها. قال إنهم بائتون في المسجد ثلاثَ ليالٍ، وتمنّى لو أنني أعاود الخروج معهم في قابل الأيام. توقّف ونظر إلي مبتسماً وهو يقول: ما رأيك بالخروج في سبيل الله مستقبَلاً إلى الهند؟

قضيت الليالي الثلاث مع جماعة التبليغ في مسجد النور. كنّا نتعشى بين الثامنة والتاسعة، وكان البعداني يجلب لنا العشاء من المطاعم القريبة. أردت أن أسهم في دفع تكاليف العشاء لكنهم رفضوا ذلك. قال البعداني إن ميزانية هذا الخروج قد جُمعت مسبقاً، ولم يقل ممّن. في الليلة الثالثة كانت التوبة هي الموضوع. قال الشيخ حمود في بيانه: وقفت امرأة إلى جوار التنّور وفي حضنها رضيعُها. كلّما توهّج التنور تنحّت جانباً. وبينما هي كذلك إذ رأت رسول الله قادماً فخرجت إليه وسألته: ألستَ تقول إن الله أحنُّ على ابن آدم من الأم بولدها؟ فقال بلى. قالت: فالأم لا تلقي بولدها إلى النار. فبكى رسول الله. وبكينا تلك الليلة. بكينا حتى تمنينا لو أننا متنا من فورنا وحُملنا على الأكتاف إلى الله الذي ينتظرنا ليأخَذنا بعيداً من التنّور.

حين استلقيتُ للنوم كانت القصّة تغلي في رأسي. رأيت المرأة تبعد رضيعها عن التنّور، لمحتُ جانباً من عنقها. كانت بيضاءَ رشيقةً، وكان حليبها ينزل من بين كتفيها ثم يتدفق في تلك الوديان الرهيبة حتى يصل إلى الحلمات. وبين فقراتها يسيل خيطٌ من عرَق البادية حتى يبلغ الوادي. كان اسمها دِينا. استويتُ جالساً. كان الليل يعوي بين المدينة والجبل، يعوي كامرأة اسمها دِينا. مسحت خدي ونظرت إلى عمدان المسجد المتناثرة وإلى

الرفاق النائمين بين الأعمدة وإلى الليل. سمعت طنيناً من جهة القمر.

الظلام الذي غطّى المدينة آنذاك جاء من الجنوب حيث البحر. وكانت الكلاب تئنّ وتغمغم في الحيّ الذي أطلق عليه أهلُه حيّ المغتربين. لقد هدَأَت الرِّجْل في الخارج، وكلما مرت سيارة بين الفينة والأخرى قامت كلابُ الحيّ ونبحت ثم عادت إلى نومها.

استلقيتُ مرّة أخرى وتركتُ عينيَّ تدوران في ظلام المسجد. فكّرت في الله الذي وجدته في حيّ المغتربين. كان متواضعاً وعلى استعداد لشكر الناس إن هم شكروه أولاً. كلما اشتعلت النيران هبّ من عليائه وركض بالناس بعيداً، ولو شاء لأطفأها ولكن لأسبابه لا يفعل. تزايدت نبضات قلبي عندما تخيّلت الله على شكل دِينا، وارتجفتُ. ما الذي دهاني.

تتداخل الأفكار والخيالات في رأسي وسرعان ما تفيض الموجة السوداء على جارتها البيضاء ويختلط لديّ النبي بالشيطان. تحرّك لساني بالاستغفار، أمّا الصور فكانت تتداخل في جمجمتي إلى أن صارت دِينا شجرة ثم أفعى ثم كلبة. وكانت الدنيا تدور، تدور، تدور.

في تلك الليلة غفرَ اللهُ ليَ الذّنوبَ التي نسيتُها، وأبقى على الذّنوبِ التي تؤلمني.

غرفة لجدّتي

12

تداخلت الأيّام ولحق بجدّتي مكروه. صارت ترى الذين ماتوا.

جاء أحدُ أعمامي صباحَ السبت إلى المدرسة ووقف ينتظرني أمام بوابتها الحمراء وهو لا يعرف من أيّ الجهات سآتي. أبقيت أمر الغرفة سرّاً عن كل العائلة. لمّا رآني العمّ غانم هرع إليّ لاهثاً كأنه خرج للتو من الغمام. أمسك بيدي وساقني معه حتى وقفنا على الأسفلت. ظلّ يتلفت في كلّ اتّجاه حتى ظننتُ أنه سيلقيني من شاهق. كانت ثوانٍ موحشة عامرة بكل الاحتمالات. وقبل أن يفتح فمه كنت قد رأيت وجوه كل العائلة، ورأيت وجه أمي سبع مرات.

– اشتدّ المرض على جدّتك.

يقصد أمّه.

– جدّتي مريضة؟

– ألم يخبرك أحدٌ عن مرضها؟

– كنت هناك قبل أيام. قيل لي إنها متعبة ولا تريد أن ترى أحداً.

– كانت متعبة. هي الآن تكاد لا تنام. تعاتب نفسها وتتحدث مع الغيب. منذ أيام وهي تكرّر اسمَك حتى في غفواتها القليلة.

لـمّا رأتني جدتي أرادت الوقوف ولكن عمّاتي الخمس الجالسات حولها أمسكنها. كلّ واحدة منهن قالت كلمة أو كلمتين. لم نعرف، لا أنا ولا جدّتي، ماذا قالت العمّات.

كانت شاحبة وذاهلة وكان جدّي يخرج من غرفته المظلمة ليلقي عليها نظرة ثم يعود، لا يدري ماذا رأى ولا ما الذي سيقوله غداً

للناس.

كانت جالسة.

جلستُ على ركبتيّ بين يديها، وضعتُ كفّي على خدّها فوضعَت كفّيها الاثنتين عليه، كأنها تحاول النجاة. قالت واللعاب يتطاير في كلماتها:

– غلطوا الملائكة، غلطوا.

كانت تعيد الجملة والخوف يتقافز بين وجنتيها.

– جاؤوا ليقبضوا روح غزلان بنت عبده فأخذوا روح وهيبة بنت فارع.

قلتُ، محاولاً مواساتها ومجاراتها:

– سيعيدون روح وهيبة إن شاء الله، الله لا يقبل الغلط.

– ماهيش أول مرّة يا ابني. ماهيش أول مرّة. غلطوا بنصف الخلائق.

– صحيح. صحيح. في رمضان أخذوا عشرة أرواح بالغلط وأعادوها. الله لا يقبل الغلط يا جدّة.

أبرقت عيناها، نظرت إلى بناتها وقد غمرتها السعادة دفعةً واحدة مستريحة إلى القول الفصل الذي جئتُ به. ضغطَتْ على كفّي وقبّلَتْها. تريثْتُ حتى أطلقْتُ كفّي، ثم قبّلْتُ جبينها وأنا أتلو من سورة يونس: {قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ}.

كرّرْتُ الآية مراراً ولمّا توقفت بعد المرة العاشرة نهضتْ جدتي شيئاً فشيئاً وهي ممسكةٌ بيدي إلى أن استوت واقفة ومحنيّة. جرّتني خلفها إلى المفرَج، وهو الديوان المطلّ على الوادي، وكانت

شمس الجبل قد بلغت كبد السماء. أشارت إلى المكان الذي تخرج منه الشمس قائلة:

– يأتون من هناك كلَّ ليلة، وإذا قبضوا روحاً يهربون بها من هناك – أشارت إلى سبيل ضيق بين الغرب والجنوب – ويواصلون مسيرهم حتى السماء. الكلب علي الراعي والقحبة زوجته يسقيانهم الماء واللبن ويدخّنان لهم الجبن.

صمتت لثوانٍ وعيناها على مكان في الجبل، ثم قالت مزمجرة:

– الكلب علي الراعي والقحبة زوجته هما من يدلّانهم على أرواح الناس.

علا صوتُها فجأة:

– القحبة زوجته أرادت أن يركبها عمُّك غانم. عمُّك غانم تربيتي، رفضَ. هي الآن تعاقب الخلائق كلّهم.

همست لي إحدى العمّات: "جدّك يريدك". وجدته في مكانه مستلقياً على فراشه، في غرفته التي تطلّ على الجانب الواسع من الوادي، كأنه هناك منذ آلاف السنين، لا يسقم ولا يشيخ. قبّلْتُ رأسَه وجلسْتُ بين يديه.

كان مَهيباً بلحية بيضاء، وكانت غرفته مظلمة على الدوام ولم يكن النور الذي يدخلها من كوّة صغيرة قادراً على إنارتها. استلقى على سريره ذاك منذ سنين طويلة واضعاً رأسه بمحاذاة النافذة الصغيرة، يتسقّط أخبار الوادي وأخبار كل البلاد من خلال الأصوات والأحاديث التي تصله عبر النافذة. أمّا باب غرفته فكان يأمر بإغلاقه في النهار ويتركه مواراً في الليل. وإذا حدّثك عن القرية وما جرى

فيها فإن الشيء الوحيد الذي ستفعله وأنت تستمع إلى صوته هو أن تنظر إلى تلك النافذة وعلى شفتيك ابتسامةٌ لا تدري من أين جاءت.

كان الراديو تسليته الوحيدة، يستمع إلى إذاعة القرآن الكريم وبرنامج "نور على الدرب"، يحفظ الأسئلة والإجابات ويلقيها على من يأتون لزيارته إن كان مِزاجه يسمح.

كانت له تسليةٌ أخرى صباح كلّ أحد. إذ يقف أطفال القرية أمام داره في طابور طويل ثم يدخلون الواحد تلو الآخر ويسلمون عليه ثم يقبضون مصروفهم الأسبوعي بعد أن يعرّفوا بأسماء آبائهم. لا يهتم جدّي لأسماء الأطفال، وكان يقول إنه من الأفضل أن نتركهم لسنوات بلا أسماء حتى نطمئنّ إلى أخلاقهم أولاً، علينا أن نمنحهم ألقاباً بدل الأسماء، ألقاباً تناسب أشكالهم وسلوكهم. كان غانم لقباً لعمّي، ولم يكن له اسم. قال جدّي للناس: لو شئتُ لأسميته هزبر، ولكنه ولدٌ عاقل يحرص على القِرش. لم نكن نعرف، نحن الأبناء والأحفاد، الاسمَ الحقيقيّ لعمّي غانم.

Papa ich habe dich sehr lieb,
Und Mama dich auch[2]

2 تركت النص مفتوحاً فجاءت طفلتي هيلين – كانت تبلغ من العمر آنذاك سبعة أعوام – وكتبَت هذه الجملة بالألمانية. وتعني: بابا أحبّكَ جدّاً، ماما أحبّكِ أيضاً.

كان جدّي حريصاً على أن يزوره الأطفالُ صباحَ كلّ أحد، صار ذلك الطقس من علامات القرية. يخرج الأطفال من داره سعداءَ يتقافزون ويتشاتمون في طريقهم إلى سوق يوم الأحد، ولم يحدث قطّ أن احتال أحدهم على جدّي وأخذ مصروفه مرّتين.

”القحبة زوجة علي الراعي تعلّم عزرائيل علينا لأن عمّك غانم مارضيش يركبها. القحبة زوجة علي الراعي“.

علا صوتُ جدّتي أكثر وأكثر ثم انفجرت بكاءً وتيبّست أطرافها وسالت الرغوة من جانبي فمها. قال جدّي وهو يسحب يده من تحت رأسه: ”روح اقرأ على جدّتك“، فقرأت عليها سورة يس حتى ختمتها. هدأت روحها واستراحت، ثم غرقَتْ في سُبات عميق طوال ذلك النهار. كانت تفيق لثوانٍ قليلة لتتوعد القحبة زوجة علي الراعي ثم تعاود النوم. تأكد جدّي أنها مسكونة، وسمعته يغمغم قائلاً إنه يعرف الفاعل. عدْتُ إلى غرفة جدّي وأغلقت الباب خلفي. سألني إن كنتُ أعرفُ شيوخاً صالحين في المدينة فقلتُ إني تعرفت على كثيرين منهم، وإني حضرت دروس بعضهم. تحول إلى جانبه الأيسر كأنّه أراد أن ينسى كل شيء.

كانت جدّتي الشّهاب الذي ألقته السماء فوقع على كتفيه وهو يتحسّس طريقه إلى الوادي فارّاً من جبل. مضى نصف قرن بالتمام على تلك الليلة حين وعدها بأن يذود عنها الإنس والجن وسيل العروس. بقيت جدّتي تتذكر ذلك الوعد كلّما سمعت برقاً أو قال المنادي: ”السيل السيل“.

– إيش رأيك يا جد لو نخلي الأستاذ بُحيرى يقرأ عليها قرآن؟

جدّي لا يحب سوى مزاحه، ولا توجد نكات، عدا نكاته، قادرة على إضحاكه. استعاد وضعه السابق وتحسّس ضلفة النافذة الحديدية محاولاً إدخال المزيد من النور حتى يتمكّن من رؤية ملامحي.

أدركت خطئي فقلت مستدركاً:

”الأستاذ أبو يزيد، هو في الأساس شيخ سلفي درس في الحرم وحصل على إجازات من الشيخين ابن باز وابن عثيمين“. اخترعت اسم أبي يزيد للتوّ.

– بُحيرى والا أبو يزيد؟

– لا، إحنا نسميه بُحيرى، بس هو اسمه أبو يزيد.

– وإيش اسمه؟

– أبو يزيد.

– أسألك أيش اسمه تقول لي أبو يزيد.

اكتشفت أني لا أعرف اسم الشيخ بُحيرى، وما كان جدي ليسمح بأن يضع شيخٌ مجهولُ الاسمِ كفَّه على رأس زوجته.

– وغير أبو يزيد حقّك هذا؟

– الشيخ شمس الدين.

– وهذا إيش اسمه؟

– اسمه شمس الدين، والله.

تكدست الكلمات بين شفتيّ وسقطتْ جميعُها إلى قاع الغرفة المظلم. إذا أخطأت للمرة الثالثة فسيطردني كما فعل من قبل حين منعني من دخول داره لشهرين. أعرف الطريقة التي يرى بها جدّي العالم، والقنوات التي يسمح للناس من خلالها بالاقتراب منه.

استفزّه الاسم، اسم شمس الدين. ليس للدين شموسٌ ولا سيوف، لا براهين ولا بدور. من يحملون تلك الأسماء سيعيشون داخل الدين سيّاحاً يشغلهم طنين أسمائهم عن إدراك مُراد الحق. يسرقون جلال الله وبهاء دينه ويضعون ذلك كلّه على أسمائهم. كان

ذلك مذهبه الذي وضعه لنفسه، وكان يقول لأبنائه من أراد منكم أن يسرق لابنه اسماً فليفعل ولكن لا تأتوا بهم إلى داري وهم يحملون أسماء كاذبة. لطالما حدثتنا جدّتي عن حياته مع الأسماء. باع ذرة لرجل من أهل الجبل، ولما عرف أن الرجل اسمه بدر الدين أرسل ابنه غانم خلفه. ولما عاد سأله جدّي عن الذرة فقال غانم إنه تعارك مع الرجل وإن الذرة تطايرت شذرَ مذرَ، فابتسم جدّي ابتسامةَ رجل ذاهب إلى الحجاز.

– وغير شمس الدين هذا؟

– الشيخ حمود، شيخ من جماعة التبليغ، زاهد وعابد ولا أزكّيه على الله.

– وما جماعة التبليغ هذي؟

– جماعة زاهدة تأسست في الهند، ويقال في باكستان، تدعو إلى...

تركني جدّي أبحث عن الكلمات المناسبة ولكني لم أجدها. كانت الأشياء قد تداخلت عليّ. ترددت في الأشهر الماضية على السلفية، التبليغ، الصوفية، الإخوان، وحتى الكونغ فو. لم أسأل نفسي ماذا يريد كل هؤلاء، كان حديثهم عن الله هو كل ما يعنيني. ما الذي يريدونه بذلك الله؟ وإلى ماذا سيوصلهم؟ تلك الأسئلة كنت أنحّيها جانباً. عليّ أن أشرح لجدّي شيئاً عن جماعة التبليغ، فهو رجلٌ مهزوم، ألقته الأيام إلى أرذل العمر ثم فتكت بزوجته. ما من هزيمة ينالها المرء في الحياة أثقل من هذه.

قلتُ له، وقد ابتلعت ما يكفي من ريقي:

– جماعة زهد تأسست في الهند أو باكستان، تدعو الناس إلى حبّ الله وإقامة فرائضه.

فكّر في كلامي، ويبدو أن أكثر شيء شغل تفكيره في تلك الثواني القليلة هو الهند أو باكستان.

– اذهبْ مع عمّك غانم إلى مدينة بيت الفقيه وهاتوا لها قارئاً مِن هناك.

– قارئ معين، أم أيّ قارئ؟

– القارئ سليمان بن إبراهيم، درس على يد مقرئين من بني فرَج.

قال جدّي، وكان فيما يبدو يستحضر رحلاته إلى تلك الربوع.

انطلقنا في حافلة كبيرة، توقفت الحافلة في وسط صحراء مترامية الأطراف ونزلنا لنرى واحداً من أسوأ المشاهد في العمر. كانت سيارة بيجو محمّلة بالمسافرين قد دخلت بين عجلات شاحنة محملة بالمازوت. تقيّأ بعض المسافرين، وفقد رجل وعيه وسقط أرضاً. أما سائق الحافلة فكان يدور حول حافلته ويرش إطاراتها بالماء ولا يبدو أنه يعرف ماذا يريد.

عاودنا المسير ووجدنا بيت الفقيه.

تبادلت مع العمّ غانم كلمات قليلة. لم يكن غانم مستريحاً لكل الدنيا، كان دائم الشرود، يضحك إذا عرف أن هناك نكتة ستقال، فإذا قيلت يتشاغل بأي شيء. وجدنا سليمان بن إبراهيم، كان نحيلاً وأسمرَ مثل سائر الناس هناك. دلّونا على منزله، فقدّم لنا الرجل القهوة والماء وسألنا إن كنا قد تغدينا. أخرج عمّي من جيبه

حزمة أوراق مالية قائلاً: هذي مصاريف الطريق. تحدث سليمان عن نفسه قليلاً وأشار إلى منزل قريب قال إن صاحبته أصيبت بالمسّ وإنه استطاع أن يستخرج منها الشياطين بعد قراءة لم تستمرَّ أكثر من ثلاثة أيام. "شياطين من الجبل" قال سليمان وأشار بيده إلى خلف رأسه كأنه أراد أن يقول صنعاء. غير أنّ التهامي لا يتفوّه بذلك الاسم أمام الأغراب.

قرأ على جدتي أسبوعاً كاملاً. كان صوته يتغلغل في الجدران، وعمّاتي يتجمعن خلف الباب ليستمعن إلى قراءته.

قالت عمّتي الكبرى إنها برأت من وجع في ركبتها بعد يوم من وصول القارئ، وقالت عمّتي الصغرى إنها لم تعد ترى البحار في المنام. أما جدّتي فقد توقفت عن الهيجان والصراخ، وكانت تنصت إلى القراءة وبالكاد تتفوه بكلمة.

وبينما كان سليمان بن إبراهيم يستعد لمغادرة الدار، وبحضور أعمامي وعمّاتي، أمسكت جدتي بكفه وسألته بكل أدب واحتشام إن كان يعرف القحبة زوجة علي الراعي.

"لا بدّ من بُحيرى".

قلتُ لعمّي غانم.

فقال وهو ينظر إلى عنكبوت في السقف:

"كلّم بُحيرى".

نحو عشَرة أيام غيبتني عن المدرسة. كنتُ مرتبطاً عاطفياً ووجودياً بالدراسة، وعندما رأيتُ تهامة وقد تركت المدرسة خلف ظهري خُيّل إلي أنها نهاية الرحلة، أنها الحبشة. خلف التوتر البادي

على ملامحي كانت هناك سعادة مدفونة. وبقدر اشتياقي إلى غرفة الدراسة، إلى الأذان على مقام نهاوند، وإلى سبورة الفصل، كان صوتٌ من الداخل يدفعني بعيداً. حتى إني سمعته في بعض الليالي البيضاء يقول: اخرجْ من القرية الظالم أهلُها، وإن عدت إليها فلا توبة.

كان شمس الدين الأب يمشي في منامي، مستنداً إلى عكازه، ينفخ في الهواء ويهذي كالسكران: إن وجدت منهلاً أعذبَ منّا فامضِ في سبيلك.

قبل أن يبلغني العمّ غانم بتفاقم مرض الجدّة كان الأستاذ نبيل، لأسباب عجزتُ عن استكناهها، قد بدأ في تجاهلي. لم يعد يراني. الأستاذ نبيل كان الرجل الوحيد من الذين عرفتهم آنذاك من تبدو أعماقه ضحلة. عندما مشيت خلفه وذهبت إلى مقرّ الجماعة لأعرف أكثر، لأصير من رجاله الذين يجهزهم لفتح البلدان، فإن أعماقه صارت بلا قرار، بدت في صورة هاوية.

رحتُ مرّتين أو أكثر إلى مقرّ الجماعة، في الأولى شممت رائحة دِينا تتدفق من جدران البناية الرائعة ومن سجّاد الدّرج. دِينا أعجوبة لا أراها إلا حين أدنو من رجال الله، وتكون فتّانة ولبوة. في الثانية غابت تلك الرائحة وخطر شيء آخر على البال لا يمكنني أن أتحدّث عنه هنا. ساعتئذٍ، وبعد أن جلستُ للدرس، قال الأستاذ نبيل إن المشركين حاصروا بني هاشم في شِعب مكّة فخرج المسلمون في مظاهرة لها دبيب كدبيب الطحين. تبسّم ضاحكاً في منتصف حديثه، وراحت عيناه تدوران هنا وهناك إلى أن وقعتا على شابّ

بالغ الصمت، على خده تفّاحة، وسمعناه يهذي كالوسنان: ”سلام الله عليهم في الأوّلين والآخرين، كانوا أول من يهبّ وآخر من يؤوب“ إلى أن اختفت تفّاحة الشاب.

كنا مجموعة من عشَرة تلاميذ، خائفين ومنكمشين كقطط السهل. وكان الله في عليائه السعيدة، على عرشه العملاق، يعرفنا واحداً واحداً. ولم يكن فينا من أحد يفهم اللهَ مثل الأستاذ نبيل. فكّرت في كلماته، كانت تبدو بالغة التعقيد، وأحياناً غاية في التفاهة، وراعني أن للطحين دبيباً.

في ذلك المساء، وبعد أن عدتُ من المقرّ، وجدت الأخ يونس يلمّ ما بقي له من متاع في الغرفة. بقيت الكلمات في صدري على هيئة سؤال خشيت إن أنا قلته سأبدو طفلاً. ما عليّ سوى مواصلة الادّعاء أنّي فهمت أشياء البالغين تلك. إلى أن استجمعت قواي وقلتُ للأخ يونس وقد استراح أخيراً واستعدّ لينام ليلته الأخيرة:

– هل كان يقصد الهاشميين أم الإخوان؟

ضحك يونس ضحكةَ رجل منتشٍ وحزين. استدار على جانبه الأيسر واضعاً كفيه تحت خدّه، وبدا لي كأنّه مستغرق في النوم منذ ساعات. دسّ مخدّة بين فخذيه وضرط. لم أسمعْه يضرط من قبلُ، ليس على ذلك النحو المهيب، كأنها ضرطةُ الوداع، آخرُ اعتراف يقدّمه رجل عن جماعته السابقة. لم أسمعه يشخر من قبل. ليس بتلك الطريقة المبجّلة. علا شخيرُه. في الفجر اختار مقام الحجاز وأذّن بنغمة لم أسمعها من قبل، ولم يقم لأذانه ديكٌ

واحد. كان قد أصبح منذ الليلة الماضية رجلاً آخرَ: يؤذّن على مقام الحجاز، يضرط عند السؤال، ويشخر إذا نام.

أدركت الديوك ذلك، ولم تتأخر مثل سائر البشر حتى تأخذ الحقائق مجراها. سألتُ نفسي، وأنا باهتٌ ومرتاب: لماذا تنقلب الدنيا بين عشيّة وضحاها؟

لو مات الأخ يونس هذه الليلةَ، وهو طالعٌ من جماعةٍ داخلٌ في أخرى، فبأيّ اسمٍ سيناديه الله؟

سيناديه بأمّه، قال صوتٌ في صدري. لا يعترفُ الله بسوى الأمّهات.

كان الأخ يونس يعلمُ أنّه لن يموتَ قريباً، فهو لم يضحكْ بعدُ بما فيه الكفاية. لا يموتُ الرّجلُ الطيّب حتّى تنتهيَ ضِحْكاتُه.

13

ساعدتني الرحلة إلى تهامة على القفز على خطيئتي.

ما إن عدت إلى المدرسة حتى اتصلتُ بأيامي السابقة وكأنني لم أنقطع. ولـمّا جاء الثلاثاء كنتُ قد غبت عن أربعة من لقاءات الأستاذ نبيل. رآني في وقت الراحة، ألقيت السلام عليه وعلى مجموعة من المعلّمين فتشاغل بفرك خاتمه. كان له خاتم من عقيق، شعره أجعد بعض الشيء، جبهته تلمع أول النّهار وقيل في المواسم أيضاً. جلستُ في موضع قريب من مكان المعلّمين واسترقت النظر إلى الأستاذ نبيل، سألت نفسي عن احتمال أن يكون شعر زوجته أجعد، أن تكون فطساء الأنف مثلَ زوجها. إذا كانت حديثة العهد بالزواج فستكون بلا شكّ مختلفة عن هذا البعل الرهيب. مع الأيام، همستُ لنفسي واثقاً كلّ الثقة، ستصبح جعداءَ وفطساءَ مثل زوجها، يتشابه أيُّ زوجين في الدنيا بعد زمن. أسقط في قلبي، ماذا لو أن الأستاذ نبيل هو من يتبدّل ويتحوّل ليصير شبيهاً بزوجته؟ قطع خيطَ أفكاري صوتُ تلميذ يسبّ آخرَ بجدّته، والآخر يرد عليه بأخته. ورأيتُ أن سباب الأخوات يمنح المدرَسة عمقاً رائعاً، ويساعدنا على احتمالها. وعيناي تطيشان في ساحة المدرسة قلتُ لنفسي كم سيكون هؤلاءِ التلاميذُ مخلوقاتٍ لا تطاق، بل كائنات قذرة، لو لم يكن لديهم أخوات.

سرعان ما أَلِف فاروق الشرعبي غرفته، أذّن وأيقظ الناس وبعض الديوك، خصوصاً ديوكَ البيوت القديمة، وتلك التي جيء بها من

القرى. ذلك النوع من الديوك ليس له موقف جمالي أو فلسفي واضح، وغالباً ما يقلّد انفعالات ربّ البيت. تفهّمت ذلك الأمر ولم يكن من السهل عليّ أن أخوض في حديث كهذا مع فاروق الشرعبي، سيخبر الناس عن جنوني. لم يكن بالرجل السهل. لاحظت من الساعات الأولى أنه حكّاء ماهر وكان ذلك مكمن خطره.

راحت الفتاة تتلاشى من بالي شيئاً فشيئاً، كما لو أن أمرها لم يعُد يهمّني. سألت عبد الله البعداني، وأنا أنتظر أن تفتح البوابة، كيف استطاع أن ينسى زوجته فقال كلاماً غريباً.

– انسَ المرأة بالمرأة.

– تقصد اعشق امرأةً جديدة لتنسى السابقة؟

ضحك وقال:

– لا أدري ماذا أقصد ولكن هذه هي القاعدة.

الحقيقة أنّ مرض جدّتي سيطر على مشاعري كلّها. فقد كانت تخصّني بحبّها دوناً عن الآخرين. انتظرتْ ولادتي بضعَ سنوات، حتى إنها كانت تستيقظ مفزوعة من نومها في الأيام الأخيرة لحمل أمي.

كانت تحدّثني عن تلك الأيام قائلة:

”أبوك رأس المال وأنت الربح. التاجر يحب الربح أكثر من رأس المال“.

كانت أول من رآني حين خرجت للدنيا. في تلك اللحظة أقسمت بالله قائلة: ”هذا ابني“ ومنعَتْهم من ختاني. كانت أمي قد ولدت طفلاً ومات فور ولادته. أمي تقول إنه وُلد ميتاً، وجدّتي تقول إنه مات عندما رأى الخلائق. اختارت له جدّتي اسماً لا ينتمي إلى

الدنيا ولا هو من أسماء يوم القيامة. لم يمضِ سوى وقتٍ قصير، ربّما أيام، حتى ذهب الاسمُ طيّ النسيان، وأسعد ذلك الأمر جدّتي. كانت تريد أن توقف دورة الأقدار، وما دام هناك اسمٌ يعرفه الناس فإن الأقدار ستبقى دوّارة.

بقيتُ بلا ختان، وكانت جدتي تعلّمني كيف أطيل الجلدة حتى تغطّي رأس عضوي، ثم تربطها بخيط رفيع قائلةً: "لا تجعل الشمس تراه". كنت أخاف عليه من الشمس، وحتى الآن لا أزال أخاف عليه من شمس الشتاء.

حين بلغْتُ العاشرة من عمري أخذوني إلى عيادة في المدينة وختنوني، وعلى الفور ذهبوا بي إلى بيت جدّتي. بقيتُ هناك، كنتُ ألبس الزّنان الواسعة، أمسك بالزنة من الأمام صانعاً خيمة أو بهواً واسعاً لشيئي الجريح. بقيت على تلك الحال ثلاثة أشهر حتى لاحظ جدّي أني صرت أمشي محنيَّ الظهر. كنت حين تهدأ الشمس أجلس أمام الدار فتأتي بنات القرية ويطلبن منّي أن أريهنّ الجرح. وإذا قالت إحداهنّ إنه صار أفضل حالاً من الأمس تتصارخ الأخريات: لا، لا، أمس كان أحسن. وكنت أغمغم، مدّعياً الحزنَ والآلام: أمس كان أحسن. وهكذا يكون بمقدوري أن أعرضه عليهنّ في الغد. كنت أخشى أن ينتهي ذلك العرض بعد أن تجفَّ الجراح. كانت هناك طفلة في العاشرة، في مثل سنّي، اسمُها دِينا. كانت الطفلة الوحيدة التي تتجرّأ على لمسه وتقليبه بين يديها يميناً وشمالاً. تفعل ذلك مراراً ثم تنظر إلى الطفلات الأخريات قائلةً إنّ الجراح ستستمرّ عامين أو أكثر. كانت تلك المواساة هي أعظم ما

حصلْتُ عليه في سنواتي العشْر الأولى، وما سيعينني على احتمال ألغاز الدنيا فيما بعد.

استسلمت لكل الأشياء التي تأتي من كل مكان. كنتُ أذهب مع السلفيين إلى دروسهم، شاركتهم رحلة إلى عدن. كان الربيع على أُهْبة الوصول. في حافلةٍ تتّسع لزهاء خمسةٍ وعشرين شخصاً أخطأت خطأ فادحاً إذ قلت في مداخلة: "من اعتقدَ بحجر نفعَه ربُّ الحجر". هبّ السلفيون جميعُهم من أماكنهم، تقافزوا حتى لامست رؤوسهم السقف وكادت الحافلة تخرج عن الطريق وتُلقي بنا في بريّة بلا ملامح. أوقف السائق حافلته ونزل ليتفحص الإطارات، كان يدور حول الحافلة مثل ثعلب تائه. وكان السلفيون يحدقون فيه من نوافذ الحافلة كنسوة ذاهبات إلى وليمة. نزل أبو بكر، رجل اسمه أبو بكر، وتحدّث مع السائق. اشترط السائق على أبي بكر أن نغيّر الموضوع فصعِدَ الرجل إلى الحافلة وقال وهو يسند كفّه إلى السطح: من يحفظ أبياتاً شعرية أو أمثلة عن النار؟ ولمّا لم يجدْ جواباً سأل مبتهجاً، وكانت الحافلة قد أخذت طريقها: ما أفضل نعيم أهل الجنة؟ وتقافزت الإجابات من كل مكان: رؤية الله. الكوثر. صحبة النبي. لقاء الأحبة. العسل واللبن. الشباب الدائم. وكان أبو بكر يهزّ رأسه نفياً إلى أن سمع صوتاً من خلفه، أظنه كان صوت السائق، يقول: افتضاض الأبكار. آنذاك أبرقَتْ عينا أبي بكر، وسال العرَقُ في آباط كلّ الإخوة، وقال أبو بكر وهو يحاول ابتلاع ريقه دفعةً واحدة: الله الله يا إخوة.

عدتُ إلى غرفتي ثم لبّيت دعوةً من جماعة التبليغ. خرجتُ معهم في سبيل الله إلى مدينة إب القديمة. نزلنا في مسجد يطلق عليه التبليغيون "مسجد أويس القرني" ولا يعرفه أحد من أهل المدينة بذلك الاسم. استقبلَنا تبليغيون أقحاح، كانوا يمشون ويتطوّحون كالسكارى. أوقفوفنا أمام الباب وطلبوا منّا أن نتلفّت فتلفّتنا. ثم دخلنا نحمل فُرشنا على أكتافنا. أعلى مكان الإمام كان مكتوباً بخط الرقعة مع انحراف في آخر الكلمات يجعلها قريبة من الخط الفارسي:

"لا تنظر إلى صغر ذنبك ولكن انظر إلى من عصيت".

بعد الليلة الثانية عدت وحدي إلى تعز، تعذّرت بمرض جدّتي. علّموني في ليلتين أن أنتظر الموت. أسندت رأسي إلى النافذة وحدّقت في فراغ العالم. كان سائق البيجو يفتح مواضيعَ شتّى مع الركّاب، كلّها حول الدنيا التي بلا صاحب. وكان صوت أويس القرني يأتيني من القرى البعيدة:

"كيف الزمان على رجل إن أصبحَ ظنَّ أنه لا يُمسي، وإن أمسى ظنَّ أنه لا يُصبح".

تكرّر غيابي عن المدرسة، أمّا فاروق الشرعبي فلم يكن يأبه لغيابي. عندما كنت في مسجد أويس القرني خطرت لي فكرة سخيفة بعض الشيء: قررت أن أتحاشى عينَي الأستاذ نبيل، عينَيه فقط. خشيت أن أصارح نفسي بالأسباب وأنا في بيت الله. ولمّا تعذّر عليَّ الأمر قررت أن أتحاشى الرجل بالكامل، وليس عينَيه فحسب. مرّ أسبوعان كاملان لم يرني فيهما الأستاذ نبيل.

كنت أقول لفاروق الشرعبي إنّي سأصلّي في غرفتي ورجوْتُه أن يردّ على من يسأل عني بهذه الكلمات: "يعيش مع أقرباء له في المدينة القديمة ويأتي نادراً". بعد أيام عاد فاروق الشرعبي من الصلاة غاضباً، قال لي إنه كذب بما فيه الكفاية وليس مستعداً لإحراق سمعته ولا تحمّل الذنوب من أجلي. آنذاك وقفْتُ أمامَه واقتربْتُ منه حتى كاد أنفي يلامس أنفه وقلتُ له:

"أتدري من يسأل عني؟ هل تعرفُ شيئاً عنهم؟".

فارتعدَت شفتا الرجل الشرعبي وهزّ رأسَه منتظراً أن يسمع صوت قنبلة.

قلتُ له:

"الإخوان المسلمون".

راحت عينا الشرعبي ترمشان وسمعتُ أزيزاً في صدره، وخريراً عميقاً. أشفقت عليه ولم أدرِ ماذا أفعل.

وببلاهة قلتُ له:

"أفتح لك علبة تونة؟".

لم يخطر على بالي في تلك اللحظة سواها. كان موقفاً نبيلاً من الرجل أن هزّ رأسه رافضاً وشارداً. ولو فتحت له علبة التونة في ذلك النهار لكان كلُّ شيء قد تغيّر في حياتي إلى الأبد. أو الله عالم إلى أين كانت ستمضي بنا الأيام.

وبينما كنت أنتظر الموت على طريقة أويس القرني هزّني صوتُ الحاج علي وهو يسلّمني أقراص الروتي الخمسة:

– طالت الغيبة. أنا قلت إنك نقلت السكن والا رحت عند السلفيين مع الأخ يونس.

– انشغلت شوية بمرض جدّتي.

حدثته عن مرض جدّتي، كان يستمع وعيناه تمتلئان بالدموع شيئاً فشيئاً، ولمّا اقتربتا من الفيضان طلب منّي التوقّف، وتشقّق صوتُه. كأني كنتُ أحدّثه عن قصّة من ماضيه، ثم عاودَت عيناه اللمعان كأنه برأ فجأة. خطر على بالي أنه يعرفها، أو أنه أحبّها في شبابه. يحتمل الرّجلُ أيَّ شيء عدا مكروه يضرب حبيبته الأولى.

– خلّي أويس القرني يقرأ عليها من سورة الشعراء.

– أويس القرني؟

سألتُه مستغرباً.

أجاب الحاج علي وقد استعاد لهجته العليمة، وكان إذا انتقل إلى الفصحى يبهر المستمع:

– نعم أويس القرني، الرجل المسكين الذي يصلّي تحت الأشجار وتحوم حوله الدواب. الرجل الذي – وهو يشير إلى جانب وجهه – في خده الأيسر لمعة بيضاء، ولو قال للأرض دوري لدارت.

– الأشياء لا يحرّكها سوى الله.

قلتُ بصوتٍ خفيض ومغلوب.

– ثم إن أويس القرني مات قبل قرون.

أضفْتُ.

دار الحاج علي حول نفسه، ذهب إلى رفوف دكّانه، أنزل أشياء ووضع أخرى. وكعادته حين يربكه شيء، أو يشغله، فإنه يفتح

ثلّاجته ويغلقها. راح يغمغم: "عبدي أطعني تكنْ ربّانياً، تقول للشيء كن فيكون". كأنه كان يحدّث الجدار. وقعت عيناه على دفتر سميك من فئة المئتي ورقة، كان الدفتر مكبّلاً بخيوط سميكة بنفسجية اللون. سلّمني الدفتر قائلاً:

– هذا الدفتر حقّك جابته واحدة من البنات وطلبت مني أن أسلمه لك.

– واحدة من البنات؟

سألته شاكاً وخائفاً.

– أيوه، كانت تتلعثم ولا دريت إيش تشتي تقول. لقطت اسمك من فمها بالعافية.

فتحْتُ أزرار قميصي وخبّأْتُ الدفتر خلفي، أغلقْتُ الأزرار. لم يستغرب الحاج علي من صنيعي فقد رأى في حياته أشياءَ لا تخطر على بال. قال لي، ناصحاً وأميناً:

– دور على أويس القرني وخليه يقرأ على جدتك.

تلعثمت أمام الحاج علي، أعطيتُه هزّة من رأسي، وأدركت أن العَرق كان يسيل بين أصابع قدمي. نهض كل الماضي القريب فجأة وراح يطوّحني في كلّ اتّجاه. اهتزت أحلام الأيام الماضية بداخلي، وأوشكْتُ أن أتقيّأ كلَّ ما سمعته في الدروس والمساجد. أنا غريبٌ في هذا الحي، لا مكانَ لي ولا عشيرة. حتى الأخ يونس، الذي يملك لمعة في خده الأيسر ومن الممكن أن يكون هو أويس القرني، كان قد ترك الحي وذهب إلى الناس الذين يشبهونه، وهناك صار سعيداً يلقي النكات عن الأمويين. تداخلت بيوت الحي

في قاع عيني وتشابهت. كنتُ أمضي، وكانت الأرض قد أصبحت وادياً من الطين اللزج. خرجَت النساء إلى البلكونات لينظرن إليّ وأنا أحمل فتاةً على ظهري. سمعتُ الرجال والنساء يبربرون، النساء يتهامسن يا إلهي ما أحسنها، والرجال يغمغمون: من أين جاء هذا الديك اللعين بهذه الدجاجة الفاجرة. أما الذين كانوا في سنّ جدّي وجدّتي فقد رفعوا بنادقهم فوق أكتافهم وراحوا يطلقون الرصاص في الهواء باتّجاه الفراغ المؤدي إلى صنعاء. ماجت الدنيا واهتزت، وبرزت من أعلى الجبل ريشة طويلة، كأنها طالعة من عمامة ولي. كنت وحدي، وما أشدَّ أن أكون وحدي. بين الخطوة والأخرى تحسّست الدفتر، كان في مكانه، صار جَناحَين، طار بي إلى السّماء الرابعة وألقاني في طريق البيت المعمور. قلبي الذي جئتُ به من القرية، وكان حتى البارحة يتطاير في صدري مثل اليمام، صار ينبِض في سروالي وفي نعالي. كانت رحلة مرهقة أخذت مني قرابة خمسمئة عام: من دكّان الحاج علي إلى غرفة فاروق الشرعبي. كان فؤادي، بعد أن تطاير في كل جسدي وبلغ حدود نعالي، معلقاً بأمنيّتين لا ثالثَ لهما: أن أصل إلى الغرفة، وأن يكون الأخ فاروق الشرعبي قد أخذتْه غفوةٌ طويلةٌ في المسجد.

استجاب الله لأمنيّاتي. هدأت الدنيا، وصعِدَت الشمسُ مرّةً أخرى إلى السّماء الثالثة وهناك واصلتْ سيرها بوقار إلهيّ، وخلفها إبل ومواشي ذلك العالم. فتحت الدفتر، كأنّني أشقّ صدري وأنظر إلى قلبي. حين وقعَت عيناي على البياض والسواد تفجّرت الدماء من كل خلايا جسدي وأغرقتني. في تلك اللحظة كنت ولداً غارقاً في

دمائه، ولم تكن دمائي لذيذةً هكذا من قبل. لم يكن دفتراً، كان كشكولاً منوّعاً، وكان واضحاً أنها ملأت العديد من صفحاته بصورة عشوائية كي تخفي سرّاً. ليس هو الدفتر الذي أرسلته إليها. قلّبْتُ الصفحات صفحةً صفحة. الصفحات العشر الأولى كانت عامرة بمقاطعَ من أشعار صلاح عبد الصبور ومحمود سامي البارودي. توالت الصفحات، تلخيصات لبعض دروس الأحياء والكيمياء، القليل من الرياضيات والهندسة. تباعدت الصفحات. في الصفحة الثلاثين تقريباً وجدْتُ هذا النص:

> يغلي الماء حولي ببطء، وفي يوم ما سأموت دون أن أدرك. أحاول تذكّر هذه الحقيقة كلَّ يوم حتى لا أسقطَ في الموت دون علمي. لماذا أخبرك بهذا الأمر؟ لأنّك طلبْتَ منّي أن أحكي.

انتهت الحكاية هُنا.

قلّبت الصفحات بهلع، أريد أن أعرف ما الذي يجري. كان ذلك كلّ ما قرأته خارج ملخّصات الدراسة. لم تقل شيئاً، ولم تسأل عن شيء. كانت فقط تروي قصّة بلا تفاصيل لشخص يريد قصّة وسيملؤها هو بالتفاصيل. الحقيقة أنها تركت فراغاً في الصفحة المقابلة ثم شغلت الصفحات التالية بكتابة عشوائية وتلخيصات طالبة مجتهدة.

هل أكتب لها شيئاً؟ سأكتب شيئاً، لمَ لا. ما الذي سيجري؟ حتى إن وصل الدفتر بطريقة ما إلى قبضة الأستاذ نبيل فما الذي سيفعله؟ سيفتك بي؟ ستخرج القصة إلى العلن، وستكون مهينة

لكبير في جماعة دينية. أمّا هي فقد تعايشت مع النيران، ولا بدّ أنها ستجد مخرجاً. النساء دائماً يجدن مخرجاً، وفي النهاية هناك الدموعُ، وهي مدافعُ النساء الـمُذْنِبات.

قمت من مكاني وأغلقت باب الغرفة كأني أستعدّ لارتكاب جريمة. وبلا شعور أغلقت النافذة الوحيدة وأشعلت النور. أغمضت عيني وتنفّست، ألقيت إلى رئتي بما أحتاج إليه من الهواء. كتبتُ تحت كلامها:

> هل تعرفين قصة الضفدع نوح؟ سقط شهابٌ على بحيرة فأحالها إلى لهب. ماتت كلُّ مخلوقات البحيرة عدا ضفدع واحد. قرّر الضفدع أن يُبقي عينيه مفتوحتين، وحال ذلك دون خروج روحه. سبح في الجحيم، كان أسرع من الموت، وصارت النار بين ذراعيه وتحته فحماً. صعِدَ على اللهب إلى أن بلغ البر. أطلق على نفسه اسم نوح، تيمّناً بالنبي الذي نجا من الطوفان. ثم راح يجوب الأرض حاملاً معه تلك التجربة.

شئتُ أن أكتب أكثر ولكنّ فكرةً قفزت إلى أناملي وأوقفتني:

ماذا لو أنّ تلك الفتاة لا وجودَ لها، وأنّ أحدهم يريد الإيقاع بي، أحدهم مثل الأستاذ نبيل؟

أغلقت الدفتر، أحكمت وثاقه وأعطيته للحاج علي بعد صلاة المغرب. صليت المغرب في الغرفة. الطريق من الغرفة إلى دكّان الحاج علي أخذ مني لمح البصر. قال الحاج علي إنه لا يعرف الفتاة، وبعد إصرار منّي قال إنه يميّز صوتها وبمقدوره أن يشير إليها من بين كلّ المنتقبات.

لكنه قال إنها لا تأتي كلّ يوم، وإذا جاءت فإنها تقف خلف التلميذات وتطلب الأشياء بصوت رقيق ومكسور.

وإذا سألها أن تعيد ما قالته فإنّ فتاة أخرى تتدخّل قائلة:

"قالت تشتي..."

وتُكمل الجملة إلى آخرها.

14

صلّيت العصر في بيرباشا، إلى الغرب من مدينة تعز.

استندتُ بعد الصلاة إلى أحد أعمدة المسجد، وسألت نفسي أين تُريد ولم أسمع منها جواباً. وقف رجلٌ، ربما كان سلفيّاً أو من جماعة التبليغ، ليلقيَ موعظة. سمعته يقول: "لا يغرّنّكم قول الله: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا}. فإنّ السيئة وإن كانت واحدة فإنّها تتبعها عشر خصال مذمومة: أولها إذا أذنب العبد ذنباً فقد أسخط الله وهو قادر عليه. ثانيها أنه فرّح إبليس لعنه الله. ثالثها أنه تباعَد عن الجنة. رابعها أنه تقرّب من النار. خامسها أنه قد آذى أحبّ الأشياء إليه وهي...".

أدركني النوم، أو النعاس، أو الموت, أو الضلال، أو دخَلتْ سحابة بين عيني، أو هي الدنيا جلست على صدري، أو هي اللغة توقفت عن العمل فجأة، أو أنّ حديث الرجل عن الخطيئة أيقظ الشياطين في روحي فضربوا على قلبي حجاباً ورفعوا الأستار. رأيت بشراً يتدافعون إلى المسجد حاملين جثّة على أكتافهم. اصطفوا خلفها أو أمامها للصلاة. من أين جاؤوا؟ لم أستطع الوقوف، أو إنهم لم يكونوا إلّا في منامي. تحدث الرجل الذي وقف عند رأس الميّت، كان صوته رهيباً، حتى إنّ عناكب السقف ونمل الأعمدة تشبثت بأماكنها وكادت تهوي إلى الأرض.

"يا بنَ آدم ما تصنع بالدنيا، حلالها حساب وحرامها عقاب".

تحسست طريقي إلى باب المسجد. وبينما كنتُ ألبس نعالي سمعتُ هاتفاً قادماً من زاوية بعيدة يقول: "يا أبا حرب هل لك من حاجة فإني ذاهب إلى الآخرة".

في يوم من أيام طفولتي، وإذ كنتُ أنظر إلى فراغ بين جبلين، قلتُ لشُروق ابنة الدلّال عبد الله: "سأسمّي ولدي حرباً"، فأخذَتْ عوداً من الأرض وكسرَتْه أمام عينيّ. كان أبوها بائعَ بزّ متجولاً، وكان كلما أخافته قرية وقف على تخومها وأخذَ عوداً من الأرض وكسرَه.

جاءت الحرب، ثم سدّت الغيوم ذلك الفراغ بين الجبلين. وبقي الدلّال عبد الله وابنته شروق يطوفان القرى حاملين البزّ. ويوماً ما زلّت قدما الرجل في قرية اسمها سنبلة فهوى إلى الوديان تاركاً خلفه ابنته تحمل البزّ على كتفيها والجبال على يمينها ويسارها. ستواصل شروق رحلتها بين القرى والجبال، كما وعدتني، إلى أن يجتمع خمسة من الملائكة الأشداء وينفخوا في الصور نفخةً واحدة فيرجع والدها الدلّال، وتعود الحرب من حيثُ جاءت.

من أين عرف الهاتف قصّة ذلك النهار؟

هرعتُ إلى دكّان الأخ يونس، أشياء جسيمة تركض خلف ظهري، تقبض على فقراتي، وتنفخ في أذني. الله، الوطن، الثورة. ضجيج وريح. صرت أسمع الأصوات، ولم يكن ذلك بالنبأ السارّ الذي أزفّه لنفسي. لقد أصبحْتُ مجنوناً، وما من تفسير آخر.

الأصوات تركض بين عينيّ، تتكدّس في الأذن اليمنى، أحاول طردها فتفرّ إلى اليسرى. رأيت الأخ يونس أمام دكّانه، كان يتحدّث

إلى ثلاثة أمويين، وكان أحدهم يفرك بعض الشعرات على الجانب الأيمن من رأسه ويخاطب الأخ يونس:

"الحمد لله أنك بقيت كما أنت حتى وأنت أبيض".

كان يشير بإصبعه إلى ثوب الأخ يونس.

نظر يونس إلى ساعته وغمغم:

"بقي على صلاة المغرب نصف ساعة".

ترك شقيقه في الدكّان وأمره بأن لا يُقرض الأمويين حتى وإن حلفوا. تركه يبحلق في الكلمات وفي الفراغ وقد تدلّى شدقه الأسفل حتى وصل إلى لبّ الأرض. سرعان ما توافد الأمويون على الدكّان، وهم أبناء ذلك الحيّ القريب من المطار القديم. وكالعادة ما إن وقفوا هناك حتى نسوا ما جاؤوا من أجله وراحوا يعدّون القوارير الفارغة ثم انصرفوا. تساقط مطرٌ ناعم من السماء إلى أن وصل الأمويون إلى منازلهم.

قصدنا مطعم الشرق الأوسط.

استأذنت الأخ يونس في الانصراف لبضع دقائق لإنجاز شيء ما. كان مطر الأمويين خفيفاً كعادته. وقبل أن نفترق انفجرتْ ضحكةٌ عظيمة طالعة من السوق القريبة من المسجد. رحت أنظر إلى عيون الناس لأرى ما إذا كانوا يسمعون ما أسمعه.

مضيتُ إلى فارس الحبشي، وكان رجلاً يجلس في دكّانه مرتدياً قبعةً من الخيزران ويقرأ الجرائد. لمّا رآني نحّى الجريدة جانباً، فتح درج مكتبه وأخرج حزمة أوراق مالية من فئة العشرين مغمغاً: "هذي ألفين ريال"، وعاد إلى القراءة. يقرأ فارس الحبشي الجرائد

منذ ما شاء الله من السنوات، وهو ينتظر شيئاً ما. ربما ينتظر أن يرى اسمه أو اسماً يعرفه، أو خبراً يقفز إليه من الجريدة هاتفاً يا فارس الحبشي يا فارس الحبشي.

حتى تلك اللحظة لم يكن قد وجد الشيء الذي ينتظره.

لا أدري كيف تعرّف عليه والدي، ولا ما الذي يقوله الرجلان حين يجلسان للحديث. فلم يكن الحبشي ليشترك في حديث مع رجل لا يلبس قبعة من الخيزران. أما إذا كان مضطراً للاستماع إليك، إن أتيته بخبر يستحق الانتباه، فسوف يخلع قبعته ويضعها على طاولته، أو على رأسك، إلى أن تفرغ من حديثك ثم يستعيدها منك ويضعها على رأسه. ينفخ فيها ثلاثاً قبل ذلك.

طلبتُ منه أن يسلّم على والدي ويشكره على المصروف فهزّ رأسه. كان ينظر إلى عنوان في الصحيفة ويبتسم. ولمّا لاحظ أن شبح جسدي لم يتلاشَ من أمام دكّانه صرفني بإحدى كفّيه. وما إن ابتعدت عنه بضع خطوات حتى نادي عليّ طالباً مني أن أعيد المدرَة وأكواب الشاي إلى المطعم. كان المطعم الذي يعنيه قريباً من دكّانه، يملكه رجلٌ عاد من السعودية وترك لحيته تكبر ثم حنّاها من الأطراف. كانت أعظم وأشهر لحية في بيرباشا وكان الناس يكنّون لها احتراماً وتبجيلاً لأنها نمَت بعد عودة صاحبها من السعودية وليس قبل ذلك.

وضعت الصحن بما فيه على واحدة من طاولات المطعم، فلمّا رآني الـمُلتحي ألقى إليّ بابتسامة معتبرة فتحرّكت لحيتُه يَمنةً ويَسرةً ثم استقرّت في مكانها. كان يتفرّج على طفل يقف على

كفّيه ويحرّك قدميه في الهواء. راح الملتحي يقترب منه ثم أمسك بقدمَيْه وقال ضاحكاً:

– قول أنا كلب، قول أنا كلب.

فيردّد الطفل:

– أنا كلب، أنا كلب.

يزيد ذو اللحية:

– قول توبة، قول توبة.

يقول الطفل:

– توبة، توبة.

ترك الرجل قدمي الطفل تقعان على الأرض وجاء ليفحص المدرة. أغمض عينيه وحرّك كفّه على حافتها ليتأكد من أنّ كلّ شيء على ما يرام. ثم عدّ الأكواب فوجدها أربعة، ولكنه قال هامساً: خمسة.

ركض الطفلُ بعيداً وهو يصيح: "المطاوعة مخانيث".

وكان الرجل ذو اللحية يهز رأسه والخيلاء كلّها على جبينه.

قال الكابتن منيف، ونحن في المطعم، إنه يعرف قارئاً موثوقاً قد يساعد على شفاء جدّتي.

كنت متحفّظاً بعض الشيء بعد تجربة شيخ بيت الفقيه الذي نسيتُ اسمه. بقي الأخ يونس صامتاً وكلما ذكرنا اسماً هزّ رأسه وقال الله المستعان. لم تكن تلك الكلمات تنتمي إلى لغة الأخ يونس في السابق، وفيما يبدو كان يحاول تقمّص رجل اكتملت سلفيته. كنا متأكدين، الكابتن منيف وأنا، أنّ يونس سيقضي حياته مع السلفيين غير أن السلفية ستبقى على ثيابه فقط. كان الأخ

يونس شابّاً طيّباً، به لمعة أو جرح على خدّه الأيسر ولو دعا لأيّ امرئ في الدنيا فلن يُستجاب لدعائه. أحبّ الدنيا، ولو أدارت ظهرَها له لمضى خلفها حتى نهاية العالم. حتى الدنيا التي أحبّها أبقاها في الخارج. كان يملك حقيبة متوسطة الحجم في سيارته، دسّ فيها نحوَ عشَرة سراويل. حين يشتاق إلى القمر والبحر، هذه كلماته، ينتظر حتى ينزل الليل من السّماء الدنيا ثمّ يطوف بسيارته على أصدقائه في المدينة. يفتح باب سيارته، يضغط على الكالاكس مرّات إلى أن يرى وجهاً عند النافذة. كانوا يعرفون الكالاكس الخاص بالأخ يونس ويتوقعون صيحته الشهيرة: "هَيّا المخا". وإذا تلكّأ أحدهم أو اعتذر يردّ عليه الأخ يونس: "انزل، مقاسك عندي".

لا يعرف الأخ يونس رجلاً يشفي بالقرآن، ولا يريد أن يخوض تلك التجربة مرّةً أخرى. لطالما اصطحبه سكّان حيّ الضحى بعد صلاة العشاء إلى منازلهم وطلبوا منه أن يقرأ القرآن على مرضاهم.

قبل أن يترك الحي بوقت كافٍ قرأ على أمّ لثلاثة أطفال، وعندما بلغ منتصف سورة الملك تقيّأت المرأة كلَّ ما في جوفها من دم. استنتج مبكراً أن ترتيل القرآن يُذهب معناه، وتوصّل إلى استنتاج آخر يقول إن القرآن ليس كتاباً للتداوي. لم أكن متحمّساً لتلك العقيدة، خضتُ معه نقاشات كانت تنتهي بأن يغيّر الموضوع فجأة. كنتُ قد شغلتُ نفسي بهذه المسألة من قبل وقرأت الكثير حولها. قرأت عن علاقة القرآن بجهاز المناعة، وعن المخدِّرات الطبيعية التي يفرزها الجسم حين يسمع صوت القارئ. جاء في كتاب قديم

أنّ القرآن لما قرئ له، وزمزم لما شرب له، وأنّهما لا يخذلان غريباً قطّ. على بسطات الشوارع وجدتُ كتباً رخيصة حول المناعة والطب البديل. سبق لي أن قرأت على النساء في القرية، وعلى بعض المواليد الذين خرجوا إلى الدنيا بزرقة في الشفاة أو صفرة في العيون. كنتُ أقرأ ولا أسأل. وكانت أمّي فخورة بما أفعله، ذلك أنّ ابنها يحفظ القرآن ويحظى بالاحترام. عدا ذلك فلم تكن ترجع إلينا من القرية بخبر يزيدنا فخراً.

نطق الأخ يونس أخيراً وطرح علينا سؤالاً:

تعرفون حديث "الفاتحة هي الفاتحة ولكن أين قلبُ عُمر"؟

كنتُ أعرف تلك القصة، قصة الرجل الذي قرأ الفاتحة على مرضى المدينة ولم يبرأ منهم أحد. وكانوا من قبل يتعافون إذا ما قرأ عليهم الخليفة. تعجّب الناس من الحادث، همهموا وغمغموا إلى أن صارحهم رجل منهم: ممَّ تعجبون يا قوم؟ الفاتحة هي الفاتحة ولكن أين قلبُ عُمر.

أجاب الأخ يونس عن سؤاله:

– القرآن هو القرآن. كان الناس في المدينة المنورة يتعافون احتراماً للخليفة.

– احتراماً للخليفة؟

تساءَلْتُ مستنكراً.

– لا ننسى أن الخليفة عمر حكم في ظروف صعبة، وكانت سلطته تستند إلى مسألتين: كونه خليفة للنبي، ولفقهه في الدين. إذا استخدم القرآن من أجل التداوي وعجز في مهمته تلك

فإن الناس ستشكّ إمّا في أهليته لتمثيل النبي وإمّا في صحة كتاب الله. إذا كان الخليفة بكل مهابته والقرآن بكل عظمته غيرَ قادرين على شفاء رجل من الحُمى، فإنّ المدينة كلّها ستضطرب ومن خلفها الجزيرة. في آخر الأمر سيقود ذلك الحدث إلى زعزعة الدولة الإسلامية التي تحاصرها القبائل من كل مكان. بعد أن استقرّت الدولة توقف الناس عن مجاملة القُرّاء، واكتشف القرّاءُ أنفسُهم أنه ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء. انتهت تلك الأسطورة في مهدها.

لا يتحدّث الأخ يونس كسلفي. واصل حديثه:

– على المرضى أن يذهبوا إلى المستشفيات، ولن أغير موقفي حتى لو خالفتُ كل السلفية. ما يُقال شيءٌ وما جرّبته بنفسي شيءٌ آخر. لم أشفِ مريضاً واحداً، وفي كل مرّة كنتُ أحسّ بإهانة شخصية لي، وأحياناً أسقط على ركبتي إلى الأرض حين أعرف أن الطفلة التي قرأت عليها بعد صلاة العشاء ماتت حين انتصف الليل. من حسن حظي أني لم أكن خليفة للمسلمين وإلّا لسارت بأخباري الركبان.

حاول الأخ يونس إخراج ابتسامة إلى العلن غير أنها بقيت في مكانٍ ما بين شفتيه.

قلتُ محتدّاً:

– أستطيع أن أقول إنك أضعت طريقك إلى السلفية الحقّة. القرآن كتابٌ للشفاء النفسي والجسدي. لكي يحدث الشفاء التامّ لا بدّ

من اكتمال عناصر الشفاء الثلاثة: قارئ صالح، نصّ صحيح، ومريض يؤمن بما يقدّم له من علاج.

فتح الأخ يونس عينيه وفمه وأذنيه وقال ببلاهة:

– وهل كنتُ قارئاً فاسقاً؟ هل كان المرضى الذين ماتوا أناساً قليلي الإيمان؟ هل قرأت عليهم نصوصاً مزيّفة؟

تدخل الكابتن منيف وفضّ النقاش بمزيد من التنظير:

– أعتقد أن المسألة ليست متعلقة بالقرآن ولا بالتقوى، بل باعتقاد المريض نفسه. لا أقصد ثقته بالمداوي بل بالوسيلة نفسها. وفي نظري أن المريض الذي يتعافى هو المريض الذي يعتقد بفاعلية الطقوس. فمثلاً في الصين يقرأ رهبان الشاولين على المرضى بعض التراتيل فيشفون. رهبان الشاولين هم بوذيون في الأساس، وما يقرؤونه على المرضى ربما يكون محض هراء. أعرف قصصاً كثيرة عن أناس شفاهم القرآن، وآخرين شفاهم الإنجيل، وأكثر منهم شفوا بالاستماع إلى التعاليم البوذية والكنفوشيوسية. آخرون أفادتهم طقوس الشامانات في غابات الأمازون. سمعتُ أنّ امرأة ماتت بعد أن شربت من زمزم، وأخرى شُفيت لأن جنيّة لمسَتْها. وسمعتُ عكسَ ذلك. الشّفاء ينبع من داخلك وليس من خارجك. ربّما كان إيمان المرأة الأولى بماء زمزم أقلّ من إيمان الأخرى بلمسة الجنّ.

حدّق فينا الكابتن منيف، كان دائماً ما يأتي بكلام جديد، يقوله دفعةً واحدة ثم يحدّق فينا، يختصرنا على مهل. كنّا نستسلم لحديثه على نحو غريب.

مضى يقول:

– لا يمكن أن تكون كلُّ هذه الأديان المتناقضة، أعني بالتناقض هنا تصوّرها للإله، طالعةً من المصدر نفسه. وليس من المنطقي أن نجري مسابقة بين الأديان ثم نمنح الدين الشافي درجة أفضل من الدين غير الشافي. لذا تبدو العملية نسبية وتستند في الأساس إلى الخبرة النفسية والذهنية للمريض. كما قلتُ فإن المريض نفسه هو من يُقرّر ما إذا كان سيشفى أو لا. فمثلاً المريضة التي سمعت قصصاً وأساطيرَ عن الخليفة ستشفى لأن القصص التي سمعتها لم تترك لها خياراً آخر. لا أظنّ أن المريضة التي كانت تهلوس تحت تأثير الحمى فكّرت في استقرار دولة الخلافة. ما ذهب إليه الأخ يونس ممكن فهمه. لا أظنّ أن الأخ يونس جاهز لمهنة المداواة بالقرآن. هذه صنعة لها قواعدها وفلسفتها. فشلك في التجربة لا يعني أن الطريق الذي مضيت فيه لا وجود له.

بقينا صامتين، فقال مبتسماً وهو ينظر إليّ:

– إذا ذهب الأخ يونس إلى جدّتك التي لا تعرف عنه شيئاً فلن يحدث أي شيء. دعونا نتخيل المسألة كالتالي: قرأ يونس على أول مريض، وبعد أيام كان المريض لا يزال طريح الفراش في حالة رثّة. تلك القصة انتشرت في كل الحي وتناقلتها الشفاه إلى الحي المجاور، وربما تهامس الناس عن أخلاق المؤذّن الذي فشل في علاج مريض من الحُمى. حسناً، ثم ذهب يونس إلى المريض الثاني ولم يفلح. القصة الأولى ستقضي على سُمعة الأخ يونس والثانية على سُمعة الدين والثالثة على المسألة برمّتها. يحتاج

النبي في أول ظهور إلى أفعى تلقَفُ ما يأفِكون، إلى أن يصيبَ من الطلقة الأولى. الأنبياء لا يُعطون فرصة ثانية. لو فشلت عصا موسى أمام الأفاعي لانتهت رسالته. حين يتعلق الأمر بالعقائد فإن خطأً واحداً يكفي لإنهاء كل شيء.

ثم قال، وقد أخذت نبرتُه طابعاً أكثر جِدّية:

– إذا أردت أن تشفي جدّتك فابحث لها عن قارئ مُحاط بمئات القصص الناجحة التي سمع عنها الناس. لا تعتمد على ما يقوله هو عن نفسه. القرّاء الناجحون هم رجالٌ أذكياء لديهم خبرة مع المرض، يختارون مرضاهم بعناية ولا يقرؤون على من هبّ ودبّ، لا يلقون عصيّهم على الأمراض التي يعلمون أنه لا أمل فيها.

واصل حديثه:

– ربما تكون جدّتك مصابة بالخرَف أو العته. ومهما فعل القُرّاء فإنها ستسألهم في النهاية عن القحبة زوجة علي الطويل.

– زوجة علي الراعي.

قلتُ مصحّحاً.

وبدلاً من أن نضحك توقّفنا عن الكلام.

ثم ذهبنا معاً إلى صلاة العِشاء.

حين وقفنا للصلاة فكّرت في أمر وحيد، الكتب التي يقرأها الكابتن منيف. الحقيقة أني كنت أقرأ الكتب، أستعيرها، وأسرقها أحياناً. لم أجد المعاني التي يملكها الكابتن منيف. كان يكبرني بأقلَّ من عشَرة أعوام. بالكاد أنهى سنة دراسية واحدة في علوم القرآن في السعودية، ثم أكمل دراسته في جامعة صنعاء في فرع الدراسات

الإسلامية. بعد تخرّجه تفرّغ لأشياءَ لا أعرف عنها سوى الكونغ فو والمطعم.

سألته ونحن نغادر المسجد عن الكتب التي يقرأها فقال وهو يركل حجرة كانت في طريقه:

– لا أقرأ الكتب، ولا أيّ كتاب.

– أنتَ تمزح.

– أبداً والله. ولا أعتقد أنّي بحاجة إلى قراءة الكتب. عمَّ تتحدث الكتب؟ إمّا عن الناس وإمّا عن الغيب. أعيش بين الناس وأعرف عنهم أكثر ممّا تعرفه الكتب. أمّا الغيب فمعرفتي به تداني معرفة الكتب. من رأى الغيب؟ لا أحد. من يفهم الغيب؟ لا أحد.

– ولكن الكتب هي طريق المعرفة، لا يمكنك أن تأخذ المعرفة من مشاهدة الناس في الشوارع.

– بلى. أنت زرْتَ بيتي أكثر من مرّة، والأخ يونس يعرف كلّ حجرة في بيتي. هل رأيتما أيّ كتاب أو مجلة؟ بالطبع لا. اسألني في أي شيء وسأجيبك. لست عالماً بكلّ شيء ولا بأيّ شيء. أنا فقط تحررت من وهم الكتب وادعاءاتها.

– الآداب مثلاً، الروايات والشعر والتاريخ، لن تجدها بسوى الكتب.

– بالعكس ما يوجد في بطون الكتب من الأدب أقلّ بكثير ممّا يجري على شفاه الناس. المعلقات السبع أقلّ قيمةً مما يكتبه سائقو الباصات على النوافذ. الكتاب ميّت، ما إن يولد الكتاب حتى يموت ولكن الشفاه تبقى حيّة. أجلسُ في المطعم كلّ يوم بضع ساعات أسمع وأرى. أرى الحكمة والفن والشعر والمسرح، مسرح

الدنيا الحي. أرى الأشياء التي لا تصل إليها الكتب. خبّرني بربّك، من هو الكاتب؟ هو شخص أغلق الباب على نفسه وجلس يكتب عن الناس. يكتب عن حياة هرب منها، وعن مخلوقات أغلق الباب في وجوهها.

كان الأخ يونس شارداً ولا أظنّه سمع شيئاً مما سمعته أنا، أو فكّر فيه. كان قد انزلق إلى طريقه الجديد، وبدا مرهقاً كلّ الإرهاق.

عدت إلى المدرسة خاليَ الوفاض لا أدري ما الذي عليّ فعله من أجل جدّتي. رفضَ جدّي نقلَها إلى المستشفى خوفاً من الفضيحة. فالمستشفيات ليست سوى أماكنَ للحُمّى والقيل والقال. وهي، الحمدُ لله، لا تعاني إلّا من النسيان ورؤية الموتى. لا يريد لتلك القصة أن تجريَ على الأفواه. نصحني شمس الدين الابن بشيخ صوفيّ من أصدقاء والده، وسرد عليّ الأستاذ بُحيرى أسماء شيوخ يعالجون بالقرآن، كما قال الأخ عبد الله البعداني إن بمقدوره معالجتها بواحد من الأجزاء الثلاثة التي يحفظها.

تسامع زملائي في المدرسة بمرض جدّتي. وفي شهر مارس قرّر المدرّسون إجراء مناورة امتحانية شبيهة بامتحانات آخر السنة. وزّعونا على فصول المدرسة. أمامي جلس تلميذ طويل محنيّ الظهر، اسمه مُراد الصوفي، وهو ابن طبيب بنى عيادته في سوق للبهارات. كنتُ قد سمعتُ عن الدكتور الصوفي أخباراً تصلح للروايات والسينما، فقد كان يجري فحوصات كاملة على زوجته وأولاده كلّ ثلاثة أشهر، كان ينتظر السرطان. ولد في برج السرطان وولدت زوجته في برج العقرب وفهم من ذلك أن المرض الخبيث سيصيب

أحد أفراد الأسرة. هناك في سوق البهارات نصب أجهزته وجلس ينتظر الأقدار. وكلما سمع صوت دويّ في الخارج هزّ رأسه ونال من الدنيا.

قبل الامتحان بدقائق قدّم مُراد الصوفي يده وصافحني باحترام، ثم سألني بخجل إن كنتُ لا أمانع في مساعدته فهززت رأسي مرحّباً. وقبل أن يجلس على مقعده قال إنّه يعرف عن مرض جدّتي وإنّه تحدث إلى والده بشأنها.

في الرابع من ذي الحجة اصطحبت جدّتي مع ثلاث من عمّاتي إلى عيادة الدكتور الصوفي. كانت جدتي لا تزال قادرة على المشي إذا ما حصلت على عون من الجهتين. ما إن وصلَتْها رائحةُ البهارات والسمك المجفف حتى خرجت رغوةٌ من بين شفتيها. سألتْ إحدى بناتها إن كانت قد صلّت العصر، فأكّدنَ لها جميعاً أنها صلّت. غمغمت جدّتي: "الحمدُ لله".

كانت العيادة واسعة بعض الشيء. الحوائط مليئة بلوحات تحكي عن جسم الإنسان، ولا أثر للسرطان على جدران عيادة الدكتور الصوفي. السكينة سيدة المكان، وكانت السكرتيرة من النبل بمكان حتى إنها كانت تقوم وتصب الماء للمرضى ثم تعود إلى مكانها. كان اسمها نجلاء، ولنعليها وقعٌ يشبه نزول الليل في شعبان. عندما صبّت الماء لجدتي سألتها الجدة إن كانت متزوّجة فضحكت الفتاة واغتابت الرجال. انتظرت جدّتي حتى جلست الفتاة على مقعدها ثم قالت لها بلهجة حكيمة وهادئة:

– أزوّجك الحاج حقي والا ابني غانم وانت شتعرفي قيمة الرجال؟

فزّت الفتاة من مكانها وهرعت إلى غرفة الطبيب. تضاحكت امرأتان كانتا هناك، وغرقت عمّاتي خجلاً. بعد دقائق كانت جدتي تجلس بين يدي الدكتور الصوفي الذي وقف حائراً لا يدري ما الذي عليه فعله. عدنا بكيس من الدواء كادت إحدى عمّاتي أن تلقي به من نافذة السيارة. حذّرني جدّي في تلك الليلة من أن أتصرف مع جدتي دون إذنه. أدناني منه وقرص أذني بشدّة وهو يغمغم:

– رُحت تفضحنا في سوق الشنيني. أنت داري إيش يعني الشنيني؟

كانت جدّتي تحدّق في الوادي من نوافذ الديوان الخمس وقد انحلّ عنها الخوف. ولم يكن قد بقي من النهار في وادينا سوى بقعتي ضوء أو ثلاث بالقرب من النهر. وكان ملائكةٌ ثلاثةٌ يتقافزون من قرية إلى أخرى، وكلّما أرادوا أن يقبضوا روحاً بحثوا عن صاحبها ولم يجدوه. نظروا يَمنةً ويَسرةً وتساءل أحدهم ما إذا كان أصحاب هذه القرى الصغيرة قد ابتكروا حيلة للفِرار من الموت؟ وقال ملكٌ ثانٍ: أو غيّروا أسماء مرضاهم وكهولهم؟ ثمّ هزّ الملاك الثالث رأسه، وفكّر لو أن بمقدوره أن يغادر هذا العمل المرهق ليعيش فلّاحاً على هذه الأرض يزرع وينجب، وكلّما دنا أجله غيّر اسمَه وأسماءَ أبنائه حتى لا تهتديَ إليه ملائكةُ الموت.

15

لوّح لي الحاج علي ففهمت أنه يخبّئ شيئاً ما. تثاقلت في طريقي. الوصول إلى الحاج علي ليس بالأمر الهيّن. كانت روحي ثقيلة، كأنها مصنوعة من الحجر. وضعت الشيء تحت قميصي. وحين أغلقت أزراري لم يتغيّر شيء في الوجود.

ما إن ترك الأخ يونس الغرفة حتى أحسست بنظام مشاعري قد انقلب رأساً على عقب. لم تعد الفتاة إيّاها شهية كما كانت أيّامَ الأخ يونس. وما كان يونس صديقاً وحسب، كان الناس. ولم يكن يكذب حين يقول الناس وصلوا، وهو يشير إلى صدره.

الحقيقة أني حين أسمع صوت فاروق الشرعبي أسأل نفسي عن الجدوى من خلق الدنيا. أما فاروق نفسه فكان رائعاً، يعرف الجدوى من خلق الدنيا، ويعرف أيضاً الجدوى من عدم خلقها. ولولا خوفُه من أوجاع ظهره لحمل كلّ الإجابات على كتفيه.

وضعت الدفتر على فراشي وتشاغلت بتحضير غدائي. كانت أطول عملية تحضير صحن تونة في العالم. قمت بتقطيع البصل الأحمر، توقفت وخرجت لأفرك عينيّ اللاهبتين. عاودت تقطيع البصل إلى منتهاه، حتى تلك النواة اللامعة التي لا يجرؤ أحدٌ منّا على لمسها. ثم الخيار. بحثت عن حبّة الطماطم ووجدتها بالقرب من فراش الأخ الشرعبي، قريبةً من رأسه. غسلتها أمام باب الغرفة ثم قطعتها. فتحت علبة التونة بالسكين وخلطتها بكل تلك الأشياء، فامتلأت الغرفة برائحة البحر. سال زيتها على الأرض،

جففته بأوراقٍ ومناديلَ وأشياءَ لا أدري ما هي. كانت تونة تايلاندية، ولم يكن في حيّ الضّحى آنذاك من رجل أو امرأة يعرف أين هي تايلاند. أن تأكل شيئاً قادماً من الغيب، من بلاد لا يعرفها أبوك ولا جدّك، لهي جسارة ما بعدها جسارة.

استغرقت ساعةً كاملة في الأكل. استلقيت على ظهري، حدّقت في السقف، وحدّق السقف في ما أكتمه بصدري. قرأت جُملاً على السقف لم أرَها من قبل: اليأس ليس من أخلاقنا. هذا الدين لا ينفع معه فضل مال ولا فضل جهد. كتيبة الله سائرة.

غفوت.

كانت غفوة عادية لم أرَ فيها من شيء يستحقّ الذكر عدا مجموعة من المجاهدين تحاصر كتيبة من الصّرب، وعلى مدّ البصر اختبأت مجموعة أخرى بين حقول القمح في هيئة كمين. كان القائد يردّد كالوسنان: لاحت رؤوس الحراب، تلمع بين الروابي. واصل الإنشاد وكان رفاقه المجاهدون يهزّون رؤوسهم. توقّف وسأل أحد رجاله عن الروابي: هل هي الجبال أم السحاب؟ فقال المجاهد: الروابي هي الرؤوس. عاود القائد الإنشاد بصوتٍ خفيض.

كلما أُغلقَ بابٌ للجهاد فَتحَ الله باباً آخر، قال المعلّم بُحيرى قبل أيام. كان يسألني عن مرض جدّتي وكنتُ أسأله عن الصِّرب.

بعد انتهاء واحد من الدروس في مسجد بُحيرى التفّ حوله بعضُ طلبة العلم وكنتُ منهم. سألناه عن باب للجهاد فنصحنا بالانشغال بالعلم. قال مطمئناً إن يد الله تعمل في الخفاء فدعوها تعمل، وإن الحقّ لا تنقصه السيوف ولا الرجال. كنا نبحلق فيه، نبحث عن ثغرة

في كلماته. وكان يغمغم تاركاً أسئلتنا تلهو في الفراغ. وإذ نحن كذلك، وضع أحد طلبة العلم يده على كتفي فتدفّقت القُشَعْريرةُ في كلّ جسدي. خشيت أن تكون يد الله قد باشرت العمل.

صار الناس في المدينة يتحدثون عن سراييفو، باتوا قادرين على تخيلها رغم أنها أصغر بكثير من تايلاند التي لا يعرفها سوى بعض الـمُغتربين. لم يكن شمس الدين الابن متحمّساً لكل تلك الحكاية، وكان يرى أن قدر الإسلام الغربة والابتلاء. وإذا ما أثير النقاش ووصلنا إلى سؤال ما العمل، كان بعضنا يقترح جمع المال وأغلبنا الجهاد، وكان شمس الدين يتجنّب الحديث عن ما العمل. إلى أن قال مغمغماً:

– حين أنظر إلى وجه بُحيرى أرى وجه كارادیتش.

قلتُ له محتدّاً:

– لا تترك صراعك مع السلفيين ينسيك أنّك مسلم.

لكنه واصل الغمغمة قائلاً:

– ما فعلَه المسلمون بأنفسهم أكثر مما فعله بهم الصِّرب. صدّقني لو أتيحت للأستاذ بُحيرى الفرصة لفعل بنا مثلهم.

– بكُمْ؟

– أقصد بكلّ من يختلف معه.

– ولماذا سيؤدي الاختلاف مع مدرّس مثل بُحيرى إلى القتل؟

– لأن بُحيرى لا يرى سوى منزلة واحدة لله، ولله منازلُ وأحوال. إذا استمعت بعناية إلى ما يقوله ستلاحظ أنه وضع على عاتقه مهمّة أن يدفع كل البشرية في طريق واحد.

– ومن سيختار طريقاً آخرَ فإنّ مصيره القتل؟
– أو أشياء أخرى لا تقلّ بشاعةً. أنت تعرف هذا.
– أنت تبالغ يا شمس. ارتيابك من بُحيرى يجعلني أخاف منك. أنت تعبّر عن رأي جماعتك لا عن رأيك.
– وما هي جماعتي؟
– أنتَ صوفي يا شمس.
– وأنتَ سلفيّ.
– أنا لستُ سلفيّاً.
– وأنا لستُ صوفيّاً.

كان النقاش مع شمس الدين الابن مرهقاً، كنّا نحسبه مزوّداً بعلوم أبيه، وكان ذلك ما يخيفنا منه ويحبّبه إلينا. وفي مرةّ، مرة واحدة فقط، ونحن في طابور الصباح تمنّيت لو أنه يموت، يموت الآن، ليرى الحقيقة.

أفقتُ من غفوتي على صوت الأخ فاروق الشرعبي يضع قدميه في الغرفة. كان أول شيء فعلته أن اتخذت وضعاً آمناً حاشراً نفسي في الزاوية كما لو أن الرجل جاء ليحقّق معي. قال إنه لم يشأ أن يوقظني لصلاة العصر، وكانت تلك الشفقة منه كافية لإيقاظ كلّ شيء بداخلي: الحب، الألم، سراييفو، تايلاند وأمور لا حصر لها.

فهمت في الساعة تلك لماذا خلق الله فاروق الشرعبي، ولماذا خلق الدنيا، ولماذا توقف عن إرسال الأنبياء إلى الشوارع منذ ألف سنة. قال فاروق إنه سيرتاح قليلاً حتى المغرب ورجاني أن أوقظه قبل الصلاة بوقت كافٍ.

فتحت الدفتر، فراغ كامل، صحراء مترامية الأطراف بلا ملامح. لا أثر لبشر سوى سطرين في الصفحة الأولى. ما إن بدأت بتقليب الصفحات، بحثاً عمّا يمكن أن تكون الفتاة قد كتبته لي، حتى سمعت أصوات الرياح. تحركت الأوراق من تلقاء نفسها، كأنّ البحر قد دخل في النهر، والنهر في الظلام، والظلام في الغيب.

"أرجو أن تلبّي لي هذه الرغبة". قرأتُ على رأس صفحة.

على صفحة أخرى بعيدة:

"إذا انتصف الليل قفْ بالخارج قريباً من غرفتك، مزّقْ أوراق هذا الدفتر على مهل، ضَعِ الأوراق فوق بعضها، ثم أشعِلْ فيها النّار. اجعلها ناراً بطيئة، لتكن ناراً تشبه نيران الأمّهات. هذه ليست حيلة لأعرف أين تقيم. أنا أعرف أين ومع من تقيم، وحتى لماذا. فقط أمنيّة في صدري، أرجو أن تلبّيَها".

انتصف الليلُ فخرجتُ.

كانت المنازل مطفأة عدا منزلين أو ثلاثة. وقفت أمام غرفتي وأوّل ما فعلته أن فكّرتُ في الله. فكّرت في أسمائه وصفاته، وفي ما يحدّث به نفسه وهو يراني الآن.

كعادة ليالي شهر مارس كان لا يزال في الأجواء شيءٌ خفيف من الشتاء. تقافزت أسماء الله على لساني كما يحدث لي حين أقف في الظلام. لم أكن خائفاً ولا مرتبكاً، عشرات الأسماء الحسنى تجري بين شفتي. أشعلت النار في الدفتر السرّيّ، وجلست أنتظر. ما من إشارة على إنسان في تلك الأنحاء. حال الظلام دون رؤية الرماد، وحين جلست ومررت يدي على الأثر تحرّك سربٌ من

الأصوات بين أذنيّ: الهادي، البديع، الوارث، الصبور، المانع، الواسع، الرافع. توقفت الأسماء عن الركض بين أذنيّ، ونادى منادٍ في أذني اليسرى: يا أبا حرب، إنما التوبة أن تنسى ذنبك.

أسمع أصواتاً بين حين وآخر. إذا جاءت لا أدري ما الذي سأفعله حيالها. أحياناً كنت أخرج إلى الحيّ، أمشي بين المنازل حتى أصلَ إلى مكان قريب من المدرسة أو أجتازها، إلى أن تسكن ضوضاء رأسي. أما إن زارتني الأصوات في الليل، مثل تلك الليلة، فأتشبّث بأسماء الله، أحصيها، أقلّبها، أضيف إليها اسمَيْن أو ثلاثة من عندي، إلى أن يدركني النّعاس.

اخترعت لله في تلك الساعة اسماً، قلتُ: يا مسكينُ أغِثْني.

16

طلبت جدّتي طلباً غريباً، أن آخذَها إلى المقبرة ومن هناك أريها السماء الدنيا. قالوا لها إنّ المرء بمقدوره رؤية السّماء الدنيا من أيّ مكان فاهتاجت وطلبت منهم أن يتوقفوا عن الهراء. ولما سألها العم غانم إن كان بمقدوره أن يقوم بالمهمة نيابةً عنها نهرَتْه قائلة:

"ماذا تعرف عن السّماء الدنيا؟ أنت لا تعرف سوى بيت القحبة زوجة علي الراعي".

جاء العمّ غانم مجدداً إلى المدرسة. كان الغضب قد ملأ صدره فراح يضرب البوابة بقبضتيه إلى أن خرج إليه الحارسُ وتعاركا. وعندما تمكّن الناس من فضّ العراك تذكّر العمّ الغانم ما جاء من أجله.

سرعان ما جاؤوا بي إليه، فلمّا رأيته أدركت أنّ وراء نظراته المنفلتة أمراً جللاً. أجلسني في سيارته إلى الخلف منه مباشرة. قال مغمغماً، وهو يحرّك سيارته، إنه لم يعد يحتمل سماع اسمي.

جثوتُ على ركبتي أمام جدّي فوضع يده على رأسي وراح يغزل بعض الشعرات ويغمغم بكلام لم أفهم منه شيئاً، كنت فقط أردد مثل الأبله: "تمام". ضربني ضربةً خفيفة على رأسي بأطراف أصابعه وقال: "روح لجدّتك".

احتضنتني جدّتي وهي تبكي، كانت ترتدي نعال ابنها غانم. غادرنا المنزل، نزلَت دَرجاتِه الثماني والعشرين ببطء. حاولْتُ أن أسندها ولكنّها أبَت. بدت لي في تلك اللحظات وقد استعادت

عافيتها. في عينيها رأيت إصراراً على هزيمة إنسان ما، ربما كان إنساناً من طفولتها، أو إشاعة. ربما رغبتْ في هزيمة نفسها فحسب. كانت سعيدة ونحن في طريقنا إلى المقبرة، وكانت كلّما ألقت النظر إلى ما بينَ قدميها ورأت نعال ابنها غانم تبتسم. سألتها عن سبب ابتسامتها فقالت إن نعاله لا تعرف سوى طريق واحد، فوضعْتُ يدي على فمها كي لا يسمع المارّة باقي الكلام. أبعَدت يدي ورمقتني غاضبةً وكادت تقع على الأرض. اعتذرْتُ إليها وقبّلت جبينها ونحن نقف في وسط الطريق. واصلنا السير إلى المقبرة.

هناك وقفنا، كانت تشير إلى عدد من القبور، وكانت تسمّي أصحابها. ذكرَت أسماء أناس دفنوا في الأمكنة تلك، منهم رجال لم يموتوا بعد. وأشارت إلى قبر بعيد قائلةً: "وهناك دفنُ جدّك" فضربتني القُشَعْريرةُ حتى شحمة أذني.

جلسَتْ على حافة قبرٍ قالت إن ملكاً قديماً ينام فيه، ثم قامت عنه وقالت خذني إلى قبر جبريل. سألتها عمّن يكون جبريل فقالت وهي تقبض على يدي وتعيد وضع قدميها في النعلين: "جبريل، جبريل حق اليهود".

تلفتُّ يَمنةً ويَسرةً وسألتها إن كانت لا تزال تذكر المكان الذي دُفن فيه جبريل، فقالت: جهة الغروب، جهة الغروب، فوق قبر سلطان.

جلسنا على قبر أسميناه قبر سلطان. ألقت عليه جدّتي السلام، وقالت وهي تدني شفتيها من شاهدِ القبر:

"الحاج قضى ديونك وانت داري ليش".

أرادت أن تخبرني بالسرّ الذي يؤلم سلطانَ في قبره، غير أنها تردّدَتْ وتلعثمت ثم غيّرت دفّة الحديث. كادت أن تكشف سرّ أهمّ رجل في حياتها.

لم نجد من أثر لقبر لجبريل، ولكنّا لم نيأسْ وواصلنا البحث عنه.

كانت تحدّق في السماء الدنيا والغسق قد حلّ في الوادي. سألتها إن كانت تعرف مقبرة أخرى فأشارت إليّ بأن أصمت. لم تردْ أن تسمع سوى صوت نفْسِها. حدّقنا معاً في السماء الدنيا، في سماء الوادي وسماء الجبل.

أغمضتُ عينيّ لوهلة فسمعتُ صائحاً من السّماء يناديني:

"يا أبا حرب، سُق نفسك إلى الله. سُقها باكية إلى أن تضحك. يا أبا حرب، إذا ضحكَتْ نفسُك من نفسك فثَمَّ وجهُ الله".

أمسكتُ بيد جدّتي وسألتها إن كانت تسمع شيئاً فابتسمَت وواصلت التحديق في السماء الدنيا وهي تتمتم:

"أسمع كلّ شيء، أسمع كلّ شيء".

طلبتْ مني أن أجلس في مكاني وأنشغل بالنظر إلى السماء، وقامت. راحت تطوف بالقبور، تحدّق فيها، وإذا تعرّفت إلى قبرٍ جثت على ركبتيها ووشت له بسرّ. حدّثت قبور الرجال عن النساء، ووشت لقبور النساء عن الرجال، ثم غادرنا المقبرة وفي جوفها ضجيجٌ ليس له قرار.

نامت جدتي تلك الليلةَ دون انقطاع.

قبل أن أغادر في الصباح رجوت جدّي أن يسمح لي بإحضار قارئ. هزّأني ونهرني ثمّ توقّف عن الكلام لحظاتٍ وقال وهو يدير وجهه

بعيداً عنّي:

”آخر محاولة“.

تردّد الأستاذ بُحيرى بعض الشيء ثم قال إنه سيبلغني بعد الحصة الخامسة بموافقته من عدمها. جاء إليّ والحمرةُ في عينيه. تمشّينا قليلاً بين الفصول ولم نتبادلْ أيّاً من الكلمات. قبل أن نبلغ بوابة المدرسة سألني، بعد أن تأكّد أنه ما من أحد بالقرب:

– ولماذا لا تقرأ عليها أنت؟

– قرأتُ عليها ولم تفدها قراءتي.

– ماذا قرأت عليها؟

– قرأتُ عليها من سورة يس.

– لماذا لم تقرأ عليها من سورة الملك؟ ألا تعرف أنها سورة خاصمت عن صاحبها وأخرجته من النار، وأنها تحرس صاحبها في حلّه وترحاله؟

واصلنا المسير وعند اجتيازنا البوابة ألقى التحية على الواقفين هناك وردّوا عليه بأن هزّوا رؤوسهم وحرّكوا شفاههم. ولمّا صرنا بالخارج تلفّت يَمنةً ويَسرةً، ثم حادَ يميناً وأنا معه؛ قال كأنّه يحدّث نفسه:

”إن رجلاً ممّن كانوا قبلكم مات وليس معه من كتاب الله إلّا تبارك. فلمّا وضع في حفرته وجاءه الملَك ثارت السورة في وجهه“.

لم أجد من شيء أقوله ونحن نتحدث عن سورة المُلك. الحقيقة أني كنتُ أعرف عنها الكثير، وكنا نقرأها في مدرجات الجبل حين ترسلنا الأمّهات لحراسة القات. ويقرأها الكهول لبعضهم إذا ما

أحسّوا بالموت يتمشّى بينهم. كنّا نسمّيها في القرية بالدرع، ولا أظنّ القرى الأخرى قد وجدت لها اسماً آخر.

فتح بُحيرى باب سيارته فقلت له، مرتبكاً، إني أسكن خلف المدرسة. هزّ رأسه واعتذر عن النسيان ولكنه أبقى الباب مفتوحاً. صعِدتُ إلى السيارة فانطلق في الطريق الهادئ إلى أن وصلنا إلى مفترق طرق.

كانت مدينة تعز آنذاك تتحسس طريقها بين عشرات الطرق، ثم فيما يبدو اختارتها كلّها.

– سمعتُ أنك تزور الشيخ شمس الدين؟

سألني وعلى شفتيه ابتسامة ليس لعمقها قرار.

كان سؤاله مفاجئاً ومخيفاً. كنتُ أعلم أن الرجل يعرف الكثير، وأنه ليس ذلك السطح الأبيض الذي يمشي أمامنا بوقار وابتسامته لا تغيب عنها الشمس.

أعيش على سطح المدينة الخارجي، وهذا ما كان عليّ أن أصارح نفسي به، ولا أدري ما الذي يجري تحت سطحها، في القيعان. مطلعَ العام شاهدت فيلم "البحّار الذي جاءت به السّماء" في سينما بلقيس، في شرق المدينة. كان الطفل يشاهد من ثقب في الجدار ما تفعله أمّه مع البحّار الغريب. ظننتُ آنذاك، بما أن المشهد لم يهزّ ضميري، أني أصبحت ابنَ مدينة. كنتُ أسابق نفسي لأثبت لها كلّ يوم كم أني صرتُ مدنيّاً. أدركَت أمّي ذلك في عينيّ، وصارت تحدّث صديقاتها عن ابنها الذي عزف عن أكل القرية. "لم يعد جسده قادراً على احتمال طعامنا"، تقول أمّي. وقال أبي

لصديق كان يلمّح إلى قريبة له إنّ ابنَه أحبّ فتاة في المدينة. ولمّا سأله عنها قال إنها واحدة من فتيات هذه الأيام، نادراً ما يعرف المرء شيئاً عن أنسابهنّ.

أجبْتُ الأستاذ بُحيرى:

– دعاني مرّتين أو ثلاثاً للغداء في منزله.

– شمس الدين كبيرُ الصوفيين في المدينة، تعرف ذلك؟

– أعرف.

– دعاك شخصيّاً، أم ولده هو مَن دعاك؟

– أعني شمس الدين الابن هو مَن دعاني.

كان امتحاناً شفوياً.

في الامتحان الشفوي عليك أن تُبديَ أمرين اثنين: سرعةَ البديهة، واحترامَ عقل الممتحن. المعلومات التي ستقولها في إجاباتك ليست بأهمية هذين الأمرين.

– والأستاذ نبيل أيضاً؟

– ماذا عنه؟

– دعاك إلى لقاء الثلاثاء؟

– نعم لقاء الثلاثاء.

– أتدري لماذا الثلاثاء؟

– لا.

– فعلاً لا تدري؟

– لا والله. ولكن كيف عرفْتَ أنه الثلاثاء؟

ثم بعد تفكير لثوانٍ أجبْتُ متسائلاً:

– اليوم الذي ولد فيه حسن البنا؟

فقال:

– كانت لحسن البنا ندوةٌ أسبوعية أسماها حديث الثلاثاء. هل قرأتَ كتابَ **الطريق إلى الجماعة الأم**؟ سأعطيك الكتاب غداً لتعرف الطريق.

ينظر إلى مبنى كان مستشفى للجذام. رأيت شفتيه تتحرّكان كأنه يتعوّذ أو يدعو. اقتربنا من بيرباشا، هناك حيث يسكن. نظر إليّ مبتسماً وقال محاولاً تلطيف الأجواء:

– مستعدّ لمزيد من الأسئلة؟

ضحك وهزّ رأسه: الله المستعان.

لا يوجد أعظمُ من بُحيرى حين يضحك ويهز رأسه ويتمتم: الله المستعان.

أجبته:

– تفضّلْ.

وتمنّيْتُ لو نرتكب حادثاً في اللحظة.

– ما الذي تعلّمته من المبيت مع جماعة التبليغ في جامع النور؟

سألني. لم يكن ينتظر إجابة. غمغمت بكلام استخرجته بجهد من حلقي. وممّا قلته:

– التوبة والشكر.

– التوبة شأن بين العبد والرب، لا تحتاج إلى معلّمين. يكفي أن تشعر بحرارة المعصية وستقودك إلى الله.

– صحيح. صحيح.

كنت أردّد مثلَ الأبله وأهزّ رأسي وأنظر إلى أشياء في الخارج كما لو أنّ كلّ شيء داخل السيارة على ما يُرام، وأننا فقط نناقش تفاهات الدنيا.

– ولماذا تفكّر في الجهاد وأنت في هذه السنّ؟

– أنا؟

– لا يجاهد إلاّ من أراد له أبواه الجهاد. قلتَ إن والديك على قيد الحياة؟

– الحمد لله.

– حسناً، فَفيهما فجاهِدْ.

ثمّ قال:

– سأعطيك غداً كتاب **الطريق إلى الجماعة الأم**. أنت في سنّ خطِرة. إذا لم تضع قدميك على الطريق الصحيح فستأخذك الدنيا، والدنيا بحرٌ هائج يبتلع الناس وينساهم في جوفه.

توقّفنا عن الحديث عندما أوقف المعلّم سيارته أمام مسجد الخير ونظر إلى ساعته. نظرتُ معه إلى ساعته. بقي على أذان الظهر قرابة الثلث ساعة. اعتذر بلطف عن أسئلته، قال إنه لا يرسل الجواسيس على أثري ولكنه حين عرف أني قادم من القرية تنبّأ بكلّ ذلك.

قال إنه لم يكن يعرف شيئاً عن تلك المشاوير التي ذهبتُ إليها ولكنّه توقّعها. ترك فمي فاغراً لوهلة قبل أن يؤكّد لي مرةً أخرى حالفاً ومبتسماً، وهو يشير إليّ بأن أغلق فمي، أنّه لا يتحسّس من أخباري. ”أنت حديث عهد بالمدينة. ابن القرية كتاب مفتوح،

والمدينة كلّها عيون. لا تستعجل. ستصبح من أبناء المدينة يوماً ما وستتمكن من إخفاء أسرارك. حصّن نفسك. المدينة غشاوة على القلب، والقلب هو كلّ شيء".

بعد الصلاة سلكت طريقي إلى قرية جدّي. القرية لا تبعد أكثر من نصف ساعة بالسيارة. استويتُ واقفاً على سيارة هايلوكس، سرعان ما ازدحمت بنحوِ خمسةَ عشرَ راكباً كلّهم واقفون مثلي. كلّهم كانوا يصيحون لحظة لحظة، كلهم كانوا يقولون هيّا تحرّك، وكلهم كانوا صامتين لا يتحدثون. مررنا بالقرب من بوابة نادي الصقر ورحت أعدّ الأيام التي انقضت منذ حضرت آخر تمرين في الكونغ فو، وجدتها ثلاثةً وعشرين يوماً.

أنا ذاهب إلى جدّتي، لا بدّ أنها تصارع هناك وحيدة. لم تعُد تأنس إلى شخص سوايَ. سمعتُ أن جدّي يغمغم من وقت لآخر بأني السبب، وأن إصراري على استكمال الدراسة في المدينة دفعها إلى أن تفقد عقلها. لكنه يعود فيقول إنّه سحر، وإنّ كارهيه كثيرون. لا يتحدث أمامي بذلك. كنتُ قد سألت نفسي ما إذا كنتُ أنا السبب، أو أنه السحر. قرأنا عليها القرآن، أطلقنا البَخور في البيت، استعنّا ببعض العارفين بالسحر. قالوا إن بعض النساء البغيضات عملنَ لها عملاً وألقينه في بئر بعيدة. رحنا نبحث عن تلك البئر ووجدنا في طريقنا ثلاثاً. نزل أبناء عمّي إلى تلك الآبار في الليل، لم يصلوا إلى القاع ولم يجدوا شيئاً. قيل لنا إنه تحت صخرة سوداء فأرسلت عمّاتي أبناءهنّ إلى الجبال للبحث عن الصخور السوداء. إلى أن قالت صديقتها حسناء، وكانت صديقة طفولة، إنه من

الأفضل أن ننتظر حتى تأتيَ الزوبعة من تهامة. يبلغ ارتفاعُها ارتفاعَ الجبل ويرقص في وسطها شيخ الجنّ واسمه مهيوب. وكيف سنتحدث إلى مهيوب؟ كنّا نسألها، فتردّ أنه ما من أحد في الدنيا قادر على الحديث إلى مهيوب. كلّ ما في الأمر أنه إذا دخل الوادي أخذ معه كلّ الظُّلم وكلّ القهر.

عندما سمع جدّي الحكاية خرج من غرفته وصَعِد إلى السطح لأول مرّة منذ زمن وجعل ينظر إلى البعيد، الشمس والجبال والسّماء والفراغ، إلى كلّ ما هو بعيد. ثم عاد إلى غرفته ولم يقل شيئاً. ولمّا حلّ الليل نادى أكبر عمّاتي وقال لها: لا الآبار ولا مهيوب، اقرؤوا يس. واصلنا القراءة، جميعنا يقرأ، الصغار والكبار. جدّتي تنصت إلى كل ذلك ثم تهبط إلى نوبات من النحيب والهياج وترى الموتى.

لمّا وصلتُ ذلك النهار كانت جدّتي تقف عند الشباك وتشير بيدها إلى الوادي قائلة: "هناك، هناك" ثم سرعان ما تنظر إلى جهة أخرى. فعلتُ ما كنتُ أنوي فعله: قرأت عليها سورة الأعلى سبعَ مرّات. كنتُ إذا بلغت قول الله {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى} أردّدُه سبعَ مرّات. في المرة الأخيرة رددته عشراً. كانت جدتي تردّد الآية معي، وتسألني: "أنا أنسى؟". واصلت القراءة بلا توقّف.

تراكمت عليّ الدروس، الأيام تمضي. انقضى شهر مارس. إذا لم أسيطرْ على هذه الظروف فسأحصل على نتيجة سيّئة نهايةَ العام. أخبرني أبي أكثر من مرّة أنه لن يستثمر في تعليمي سوى هذه السنة، وأن عليّ أن أجد معسكراً يُطعمني ويُسقيني. خشيتُ أن

أسأله ماذا يقصد بالمعسكر، إذ غالباً ما تكون إجاباتُه عن الأسئلة الغامضة أكثرَ غموضاً.

عندما انتهيت من القراءة سألتني جدّتي وقد تحوّلت بشرتُها من الأبيض إلى الوردي إن كنتُ قد عدت للتو من المعسكر. لا أدري كيف خطر على بالها أن تقول: "معسكر". قلت لها إني طالبٌ في مدرسة، وإن المعسكرات للعسكر. قالت خذني إلى المدرسة فوعدتها بذلك. صمتت قليلاً وأعادت أمنيّتها فأعدت عليها الوعد. صارت نبرتها أكثر وضوحاً وحسماً: الآن. هبّت عمّاتي من كل مكان وحاولْن تهدئتها ولكن الجدّة أصرّت على طلبها. قالت لها إحدى عمّاتي: ما رأيُك لو يأخذك إلى سكنه في المدينة ويريك كتبه؟ كان ذلك المقترح هو أسوأ ما يمكنني سماعه. عادت إحدى عمّاتي من غرفة جدّي وقالت إن الحاج موافق على الفكرة. بحثنا عن العمّ غانم وسرعان ما طلّ بملامحه الباردة وشعره المنكوش. كان خده الأيمن منفوخاً بالقات، السيجارة بين أصابعه، ساقاه رفيعتان، وصوته قديم جدّاً. كنتُ أعلم أنّ الدنيا بعد أن تفنى سيبقى غانم وحيداً حتى يأتيَ الله بخلق آخرين.

كان العمّ غانم يعشق كرة القدم ويتابع الدوري السعودي ولا يفعل ذلك إلّا من خلال الراديو. يعتقد أنّ مشاهدة اللاعبين أسوأ ما يمكن تخيّله عن اللعبة، وأنّ كرة الستينيات كانت رائعة لأن الشخص كان يقول سأذهب للاستماع إلى كرة القدم وليس إلى مشاهدتها، وأنّ لاعبي تلك الأيام، مثل بيليه وغيره، كانوا يبدعون

لأنهم يعلمون أنه ما من أحد يراهم. كان العمّ غانم شاباً آنذاك، ولم يكن في كلّ البلاد جهازُ راديو.

أخذنا غانم في سيارته، جدّتي واثنتين من عمّاتي وأنا. عندما وضعت سيارة غانم إطاراتها على الأسفلت ضغطَ غانم على زرّ الراديو فخرجت أغنية: "نار بعدك يا حبيبي، نار والله نار". كانت الشمس قد هوت باتجاه المغيب وصار لون الأجواء برتقالياً باهتاً. لا تجرؤ أيٌّ من عمّاتي على اقتراح أيّ شيء أمام غانم، وقد زادته قصّة القحبة زوجة علي الراعي مهابةً على ما هو عليه. سمعْتُ غمغمةً بين العمّتَين، وسمعت كلمة قرآن. ولكن غانم، الذي لا بدّ أنه قد سمع الكلمة، كان يسوق السيارة بيده اليسرى ويغزل شعراته باليمنى، والمغنّي يغنّي: نار بعدك يا حبيبي.

دخلنا حيّ الضحى من جهة الغرب وكنتُ أنظر إلى ما بين قدميّ وأحاول تغطية جانب من وجهي خشية أن يراني أحد، إذ كنتُ أجلس بمحاذاة النافذة. مرّت السيارة من أمام دكّان الحاج علي الذي لا يخبو نوره أبداً. سألَنا العمّ غانم إن كنّا ظِماء فردّت الجدّة: لا. الأغنية، نار بعدك، تكرّر نفسها ولا يبدو أن الشريط يحوي غيرها. خفض غانم صوت الأغنية ليسمع صوت أمّه فنهرته قائلة: ارفع الصوت. هناك فقط تأكّدنا جميعاً أنها مجنونة وأن الجنّ اللعينة قد استحكمَت عليها. فلم يحدث قطُّ أن طلبت أن نعيد عليها شيئاً مما نقوله أو نرفع أصواتنا.

رأيت منزلاً من خمسة أدوار فطلبتُ من العمّ غانم أن يتوقّف. توقّف، وكنت أشير إلى الدور الرابع قائلاً إني أسكن هناك مع ثلاثة

آخرين وإنهم الآن مع أصدقائهم يطالعون دروسهم. أصرّت الجدّة على رؤية غرفتي، قالت إنها تريد أن تشمّ رائحة فراشي. قبّلت رأسها واستحلفتها بالله ألّا تفعل. قلتُ لها إن ذلك سيكون محرجاً جداً بالنسبة إليّ وإن المدرسة ستعرف الحكاية. سيقولون إن جدّتي تخاف عليّ من الرجال. ستهين رجولتي بذلك الصنيع. كانت تنهرني والرغوة تتطاير من لسانها: "أهين أيش؟".

لم تهتمّ لما سأقوله. خطر على بالي أن أهمس لها قائلاً:

"هل يرضيك أن تهتزّ سُمعة جدّي الحاج في المدرسة؟".

رمشتْ فجأة، سألتني وهي تمسك بباب السيارة وقدماها على الأرض إن كانت المدرسة تعرف شيئاً عن الحاج، فقلتُ لها: كلّ شيء، كلّ شيء، الحاج موجود حتى في الكتب.

ولحسن حظي كانت كتبي المدرسيّة معي في كيس روثمان. فتحْتُ الكيس واستخرجت كتاب الفيزياء وفتحته على صفحة عشوائية. وضعت يدي على عنوان الصفحة: الهيدروجين والإشعاع الشمسي. قلْتُ لها: انظري، هنا. حدَّقَتْ في الكتابة، جدّتي العظيمة لا تجيد القراءة. مرّرَت أناملَها على كلمات العنوان وهي تغمغم: الحاج أبو غانم ملِك من صغره.

أعادت ترديد الجملة وأعادت إصبعها إلى الكلمة الأولى، قطعت الكلمات: ال حا ج أبو غا نم ملك من صغره.

– هل رأيت؟ هذا هو عنوان الكتاب: الحاج أبو غانم ملكٌ من صغره.

ازدهر كلّ شيء في عينيها وسألتني أن أُريَها صورة للحاج، فقلتُ إنهم سيضعون له صورة كبيرة في العام القادم. استحلفتني بالله

أن أستعجلهم قائلة إنها تعرفهم حق المعرفة فهم زيود ملاعين لا يضعون سوى صور ملوكهم، أو صور الملوك بعد وفاتهم. قلتُ لها إن الأمر مختلف مع الحاج فليس كلّ الناس يشبهونه، ولا يوجد منه الكثير. "ولماذا سيكون الأمر مختلفاً مع الحاج؟ الزيود هم الزيود"، قالت معترضة. فقلتُ لها لأن الزيود يرونه واحداً من ملوكهم. غمغمت مبتسمة وهي تحاول أن تضع قدمها في السيارة:

"الحاج أبو غانم بحر، بحر. الحاج بحر".

كان العمّ غانم صامتاً، ابتسم مرّة واحدة فقط عندما سمع كلمة بحر. أما عمّتاي فكانتا تغمغمان وتتزاغطان خائفتَين مرتبكتَين.

ساق غانم سيارته عائداً، ولمّا تجاوزنا دكّان الحاج علي ولم يعد بمقدورنا رؤية الحيّ، طلبتُ من العمّ غانم أن ينزلني من السيارة. قلتُ له بصوت خفيض إنه يتوجب عليّ مراجعة بعض الدروس الليلة، فقال لي طالعْها في الدار. رفضْتُ العرض قائلاً إن الضجة والوضع العام في دار جدّي ستحول دون ذلك. أوقف العمّ غانم السيارة وقال بكلمات قليلة وحازمة وهو ينظر إلى المرآة أعلى رأسه: لا بدّ أن يذاكر دروسه، عنده امتحانات. اهتاجت جدّتي رافضة، حاولتْ فتح باب السيارة غير أن ابنتَيها سيطرتا عليها وكانت إحداهما تغمغم دون أن تنظر إليّ:

"عملت لنا مشكلة الله يسامحك".

وعدتُ جدتي بزيارتها بعد الغد، ولكنّها أصرّت قائلة غداً فقال غانم غداً وكلّنا قلنا غداً.

طلبت منّي أن أفتح لها الباب من الخارج ففعلت. نزلت ووقفت بالخارج. طلبتْ من ابنها غانم أن ينزل من سيارته. جثت على ركبتيها ونزعت نعليه بنفسها. دسّت النعلين في كيس الكتب الذي أحمله. قبّلتُها في الجبين، لم يقل العمّ غانم كلمة واحدة. "نعال غانم تعرف الطريق"، كانت تغمغم وهي تحاول الصعود إلى مقعدها. مضيتُ في طريقي وأنا أفكّر في نعال العمّ غانم التي كانت بالأمس لا تعرف سوى الطريق إلى بيت القحبة زوجة علي الراعي، وباتت تعرف الطريق إلى كلّ شيء.

ألقيت السلام على الحاج علي فلوّح بيده. سألني وهو يتلفّت إن كنتُ قد انتهيت من قراءة دفتر زوجة الأستاذ نبيل.

أحسست بأنّ قلبي سقط إلى سرّتي، كانت لحظة رعب محضة ولم أكن قد خرجتُ بعدُ من التّفكير في نعال العمّ غانم.

كنت أسير وأتشبّع بالدنيا كي أُخرِج تلك الفتاة من تفكيري ومن يوميّاتي. اقتربت من باب الدكّان وسألته إن كان يعني ما يقول. قال بصوتٍ خفيض نعم، هي زوجته وهي زبونة عندي. عاتبته لأنه لم يخبرني من قبل بالحقيقة، فقال متباهياً بنفسه وبأخلاقه: ليس كلُّ ما يعرف يُقال. سألني إن كنتُ أريد شراء شيء، تونة أو زبادي، فهززتُ رأسي. أردت أن أمضيَ فطلب مني التوقف وفتح زجاجة سبرايت، وكان مشروباً جديداً تماماً على المدينة. قال إن زوجته التي توفيت قبل أعوام كانت تحبّه ولكنها كانت قاسية على الأولاد. لم أكن أعرف أن له أبناء، فقال: ثلاثة كلهم في الغربة. فيما بعد عرفت منه أنهم في صنعاء، تلك غربة الحاج علي. سألني عن

جدّتي وعرض عليّ أن يقرأ عليها القرآن لكنه تراجع عن عرضه قبل أن أقول شيئاً.

– جئنا لها بقرّاء من الشرق والغرب.

– قرؤوا عليها من مقام العجم؟

– أعتقد أنهم قرؤوا عليها بكل المقامات.

تذكرتُ آنذاك أنه ما من أحد قرأ عليها سوى صاحب بيت الفقيه وأنا.

– لا أظنّ أنهم قرؤوا عليها من مقام العجم.

خفت أن أكشف عن جهلي بالمقامات إن أنا سألته. الحاج علي لا يرحم أحداً، دكّانه أهمّ مصدر للأخبار في الحيّ، هناك يعرف الناس عن كلّ الناس. لا يترك الزبون يغادر المحلّ قبل أن يخرج منه بمعلومة شخصية. يعلم أهل الحيّ ذلك عن الحاج علي، وعلى العكس فهم يحسّون بالأنس. ذلك أن الرجل الذي يقف في دكّانه منذ سنين طويلة يمتصّ أسرارهم ولا يخرجها إلا بمقدار، بما لا يزعج السلم الأهلي ولا يحرّض الناس على بعضهم. فهم الرجل بطريقته ما يدور في ذهني فوضع كفه اليمنى على أذنه وقرأ:

{قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآَخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ}.

توقَّف عن القراءة وراح يعلّمني:

– مقام العجم ينفض الجسم نفضاً كأنه عاصفة. إذا سمعَتْ الجنّ مقام العجم ولّت هاربةً ولها صراخٌ مثل صراخ الذئاب.

– وهل يعتمد تأثير القرآن على المقام واللحن؟

– القرآن يُتعب الشياطين، والمقام يقتلها. إذا سمعت الشياطين القرآن من مقام الصبا جلست حتى إن كانت كافرة. أما إذا سمعته من مقام الحجاز أو من مقام العجم ولَّت هاربة. درست المقامات وإلا أشرح لك؟

– شكراً يا حاج علي. قرأنا على جدتي ثلاثة أشهر متواصلة ولم نلاحظ بادرةً للتحسّن. أخشى أن تكون مصابة بالخرف.

– الخرف؟ لا يوجد مرضٌ اسمُه الخرف. الخرف اسمُ جنّي قديم من جنّ اليمن جمع كل الأشعار والقصص من أفواه الناس وعقولهم فأصبحوا وليس في رؤوسهم شيء فقالوا أصابهم الخرف. المرض يصيب الجسم والجنّ تصيب الرأس.

كما لو أنه كان يخشى ألّا آخذَ حديثه على محمل الجِدّ، قال:

– درسنا العلوم في تهامة. علم ودراسة ومتون. مُش أبي أحمد أمي بلقيس.

لا يمكن أن تكون جدّتي قد أصيبت بالجنّ.

كانت رائعة وطيبة، وكانت تحسِن إلى الجنّ والإنس. لو شاءت الجنّ لأدركت جدّي الذكر القاسي، إلا إذا كانت تخشاه. سمعتُ أن الجنّ كانت إذا سلك عمر بن الخطاب طريقاً تسلك طريقاً آخرَ، جدّي شديد الشبه بالخليفة. الجنّ تخشى الرجال الغلاظ، وتفرّ من الكهول ذوي الحواجب الكثة واللحى المتناثرة. لاحظنا أن جدّتي كانت تصبح أكثر سكينة وهدوءاً حين ندخلها غرفة جدّي، وكنّا نعتقد أن الأمر متعلق بالحنان الذي يغمرها به. الآن، وقد وضعتُ قدميّ في نعال العمّ غانم، أدركُ أن الجنّ كانت تفرّ من جدّي.

منذ عام تركَت واحدةٌ من عمّاتي منزل زوجها ولجأت إلى بيت جدّي. كانت جدّتي مساندة لها في قرارها، إذ لم يعد ممكناً أن تتشارك الفراش مع رجل شوهد مراراً وهو يسرق قمصان النساء المنشورة عند النهر. صارت سيرتُه على كلّ لسان. نقلت جدّتي فرشها إلى غرفة واسعة في الدار كي تكون إلى جوار ابنتها، تواسيها وتستمع لنجواها في الليل. لم تكن جدتي تعاني وجعاً ولا تيهاً قبل ذلك، وكانت تتذكّر كلّ شيء. كانت تحبّ القحبة زوجة علي الراعي التي لم تكن قحبةً آنذاك: تأتي إلى الدار بالجبن المبخّر كلّ يوم أحد، وتدخل إلى غرفة جدّي، تسلّم عليه وتقبّل يده، ولم يكن يقول شيئاً.

إلّا مرّةً واحدة، ولم أكن موجوداً، قال إنها مدفع. لم نجرؤ، بعد ذلك، على استخدام تلك الكلمة أمامَها. وكانت القحبة زوجة علي الراعي، وهي معروفة بخجلها وطيبتها، إذا زارتنا في الآحاد نضع أصابعنا في آذاننا كما لو أن مدفعاً سيضرب، فتبتسم ابتسامةَ امرأةٍ تعرف كلّ شيء.

وضعتُ نعال العمّ غانم تحت فراشي ثم خجلتُ من نفسي فوضعتها في الخارج. جاء فاروق الشرعبي، وكان قد صلّى المغرب. جلس على فراشه وراح يلعب بمسبحته. ادّعيت أني مُكِبٌّ على المطالعة. سألني إن كنتُ أعرف الحاج علي حقّ المعرفة. ودون أن أجيبه عن سؤاله قال عنه إنه شخص غريب وفضولي.

– ماذا تقصد بفضولي؟

– يريد أن يعرف لماذا تزوّجتْ أمّي بعمّي غالب وليس عمّي دائل.

– أمّك تزوّجت؟

– نعم، بعد وفاة والدي بفترة قصيرة تزوجت عمّي غالب.

– لم أكن أعرف أنّك يتيم الأب.

– الله يرحمه ويسكنه الجنّة.

– الله يرحمه. وكيف عرف الحاج علي بالحكاية؟

– جرجرني بالكلام.

تمهّلَ بعض الشيء، كانت شفتاه تتحركان. ثم قال:

– نصحني بأن أؤذّن على مقام العجم. قال إن الجنّ ملأت البلاد والعباد وإنّ هذا المقام هو الحلّ الوحيد أمامنا.

– متى قال لك هذا الكلام؟

– قبل شوية، بعد صلاة المغرب.

– عجيب.

قام فاروق الشرعبي من مكانه، راح يتأمّل الكتابة المدونة على سقف الغرفة لأول مرّة.

ولمّا وقع بؤبؤاه على الجملة التي تقول "كتيبة الله سائرة" اهتزّ من جذوره كأنّما أُنشِطَ من عِقال.

17

رست الليالي غير بعيد عني.

ولِدت أمّي في الجبل وجاء أبي من الوادي. لم يسبق لي أن رأيت غلافاً رقيقاً لكتاب، ولا حلمَتي امرأة. كلّ الكتب التي رأيتها في حياتي جاء بها جدّي من الحجاز عدا كتاب وحيد وكان غلافه رقيقاً. عثرتُ على الكتاب في حقيبة جلبها أبي ولم يخبرنا شيئاً عنها. بقيت الحقيبة في حجرة مظلمة لسنوات. لم أجرؤ على لمسها حتى احتلمْت. كنت في الإعدادية. لاعبتُ شيطاني حتى تطاير ماؤه السّميك بين أصابعي لأول مرّة، وكان أهل البيت نياماً عدا بعض الديكة التافهة. آنذاك بكيتُ، ومنذ تلك الساعة بدأت أحصي ذنوبي. لم يمهلني الله سوى بضع ساعات، سرعان ما نزل ملكان ووقف أحدهما على كتفي اليسرى والآخر على اليمنى. كتب ملك السيئات: الذنب الأول، أفطر نهار رمضان بأن عبث بذكره، ثم أكمل يومه جُنُباً. الذنب الثاني: فاتته أربعة فروض بسبب الجنابة. الذنب الثالث: صلّى المغرب جُنباً حتى يصرف عنه الأنظار. الذنب الرابع: نافق الناس وادّعى أنه صائم. ودوّن ملك الحسنات: الحسنة الأولى انتحب قبل نومه. الحسنة الثانية: لم يمسح دموعه. فكّر الملَك قليلاً ثم ألغى الحسنة الثانية.

أنهيتُ يومي الأول بأربعة ذنوب كبيرة وحسنة صغيرة. لو متُّ ليلتها لوضعوا كتابي في شمالي وساقوني إلى النار. ولأن الذنوب بيّنة والحسنات ليست كذلك فقد كان بمقدوري فقط أن أحصيَ

خطاياي. حين تركت القرية إلى المدينة كنت قد أمضيتُ ثلاثة أعوام في صحبة ملك السيئات، وبلغَت ذنوبي زهاءَ العشرة آلاف.

وجدت الكتاب الذي جاء به والدي: **حياتنا الجنسيّة**. كانت النصوص مزوّدة بالرسومات. صرتُ أتسلل إلى الغرفة المظلمة، أحدّق في الأشكال على ضوء أعواد الثقاب ثم أغادر. أخرج لاهثاً وملتاعاً وأضلّ طريقي حتى أسفل القرية. لقريتنا أعلى وأسفل، هكذا خلقها الله، وكان الكتاب الذي جلبه والدي يقع في أعلى القرية. على صورة لامرأة عارية وضع المؤلّف سبعةَ عشرَ سهماً قال إنها مناطق الاستثارة. راعني أن تأخذ السرّة سهمين اثنين بينما أخذت المؤخّرة سهماً واحداً. لاحظتُ مع الوقت أن بعض صفحات الكتاب قد تلاشت، خمّنت أن السبب قد يكون أنا. عندما تخطّت ذنوبي حاجز الخمسمئة أخذت الكتاب وأضرمتُ فيه النار بالقرب من المسجد. بقي الرماد في مكانه حتى العيد الكبير، وكنتُ كلّما غمرته بالتراب جاء المطر وكشف عن الأثر.

قال فيصل عبد النور، وكان أكثر رجل في القرية يعرف عن الدنيا: "أحرقْتَ الكتاب الغلط، الكتاب الذي ستحتاج إليه في المدينة".

استسلمت للمدينة قبل أن أضع قدمي فيها، وفي الحصة الدراسية الأولى في مدرستي الجديدة رفع كل الطلبة أياديهم بعد أن ألقى معلّم الكيمياء سؤالاً. في القرية كنت أرفع يدي مع بضعة من التلاميذ، وكان الآخرون إمّا لا يعرفون وإمّا لا يأبهون. حين رأيت كل الأيادي مرفوعة وضعت يدي في جيب سروالي فأشار عليّ المعلم بالوقوف وسألني إن كنت أعرف الجواب. كنتُ أعرف الجواب،

وكان باستطاعتي أن أضيف إليه رأيي غير أن اللحظة كانت عصيبة. سألني مرة أخرى إن كنت أعرف الجواب فهززت رأسي بالنفي ووقفت اللغة في حلقي. كان سؤالاً سهلاً للغاية بَيْد أن حدقتَي عيني أخذتا في الاتساع حتى دخل كلُّ الضوء إلى رأسي ولم أعد قادراً على رؤية أيّ شيء. كان صوت المعلّم يتسلل إلى رأسي ببطء كأني أمشي تحت المحيط. هل تعرف الجواب؟ يسألني. أسمع صوت المحيط في الأعلى وأهزّ رأسي من المشرق إلى المغرب.

عرف المعلّم أني قادم من القرية، كان وجهي على شكل قرية، وكانت مخارج حروفي جبلية. من الطريقة التي كنت أحشر فيها قميصي تحت سروالي عرف أهلُ المدينة الكثير عني.

حذّرني فيصل عبد النور من المدينة. عاش لأعوام في السعودية وكان يخيط ثياباً لأهل تلك البلاد. كنت أتحدّث إلى أمّي أمام منزلنا وكانت تنصحني بالابتعاد عن أصحاب السوء والسينما، وكنت أهزّ رأسي وأنا أتحرّك أمامها وحولها، أقرأ من كتاب **تاريخ الخلفاء** للسيوطي. أحبّ القراءة واقفاً، وكنت آنذاك أقرأ من الصفحة ١٧٥، وفيها:

> قال الأصمعي: قيل لعبد الملك بن مروان يا أمير المؤمنين عجّل عليك الشيب، فقال وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة.

حذّرني فيصل من المدينة وقال ناظراً إلى الكتاب إنّ "مثل هذا الشيء" لا ينفع لسوى القرى، وإنّ المدن للجرائد وليس

المجلدات. ثم قال وشفتاه تبحثان عن ابتسامة ملائمة: ”اترك هذا هنا عند أمّك“.

الحقيقة أنه قال ”عند والدتك“، لأنّ كلمة ”أمّك“ كان من شأنها أن تحدث مشكلة لا يعلم بقرارها سوى الله.

طلبتُ منه أن ينصحني، وكان لا يزال يقول ”أبغى“ بعد عشَرة أعوام من أوبته من السعودية. فكّر فيصل في نصيحة ثمينة. حبسنا، أمي وأنا، الأنفاس في انتظار ما سيقوله. فكّر الرجل مليّاً ثم مضى وهو يغمغم:

”الموضوع يبغى له سَمْرة“.

حين تأكدتْ أمّي أنه قد ابتعد عنّا مسافة كافية سألتني إن كنتُ أريد أن أزوره في بيته لأستمع إلى نصائحه. كان يملك جهاز فيديو، وكان يقيم أسماراً رائعة يعرض فيها فيلم ”الحدود الملتهبة“. يترك الفيلم يمضي، ثم يعيده من أوّله حتى ينتصفَ اللّيلُ، فيغادر الناس منزله وقد انتفخت أوردتهم إعجاباً ببطولات الجيش العراقي في مواجهة الفرس.

وفي مرّة عندما لاحظ أن ضيوفه كانوا، لفرط اندهاشهم، على وشْكِ أن يفقدوا وعيهم أمام معركة الخنادق، قام فيصل عبد النور من مكانه وذهب إلى الخلاء ثم عاد. وقبل أن يجلس أخبرنا بلسانه الذي يعرف كلّ شيء عن تلك الحرب: ”الجيش العراقي ثاني أقوى جيش في العالم“.

فقال شخصٌ ساهٍ كان يحدّق في التلفاز ويفرك خصيته:

”بعد الجيش الروسي“.

قال فيصل:

”بعد فيالق رشاد قلب الأسد“.

راحت كل الأنظار تنظر إلى فيصل، كأن أرض المحشر فتحت للتو. وكنتُ في الزاوية محشوراً بين رجلين لم يريا السعودية قطّ. ثم جلس فيصل عبد النّور، جلس في مكانه، ودارت العيون حوله منتظرة المزيد. فقال وهو يضع السيجارة بين شفتيه: ”الموضوع يبغى له سَمْرة، والوقت متأخّر“.

كانت المدينة على حقّ، كلّ ما في المدينة كان على حقّ. ولم يكن يعصمني منها سوى أن أشتريَ قليلاً من التمر السعودي وأصعد إلى جسر فوق السوق المركزية وأتأمل الناس في الظلام. أقف على الجسر معززاً بشيء من السعودية، ولو على سبيل التمر. حين جاء السلفيون إليّ كانوا على حقّ، ولم أكن بالشخص الذي بمقدوره أن يقول لرجال المدينة ما الذي ينبغي لهم فعله. ولمّا أخذني التبليغيون معهم وجعلوني أنام بين أعمدة المساجد كانوا على حقّ، فمن أنا لأقول للشيخ حمود شيئاً، أيّ شيء، حتى عن برد جامع النور؟ أما الإخوان فقد كنتُ أعرف من القرية أنّهم على حقّ، وأنهم لفرط إخلاصهم لله كادوا يقتحمون فلسطين. ولولا الملك والخيانة والأسلحة الفاسدة وقلة الرجال وأسباب أخرى لا حصرَ لها لفعلوا. وجاء الصوفيون وهم قوم نعرفهم حقّ المعرفة، ولولاهم لما كانت القرية على ما هي عليه، وإلى جانبهم كلّ الحقيقة. مضيت في كلّ السبل، وتبعتُ كلَّ داعٍ. فمن أنا لأقول لا؟ من أنا لأقول لأهل المدينة امنحوني وقتاً للتفكير، أو: أعتقد أنّ؟ كان

في المدينة علمانيون كثيرون، غير أنهم انشغلوا بملاحقة أبناء المدينة تاركين القرويين لأهل الله.

أردتُ أن أخاف ولكنّ شيئاً آخر غير الخوف أدركني. الآن أفكّر في وصف ذلك الشيء ولا أقدر.

وقفتُ في طابور الصباح وسمعت حسيس محمد المحيّا خلفي. كان يهمس، وحين يهمس تشعرُ كأنه يأكل شوكاً. قال إنه لاحظ بعض الرطوبة في الموقع. صار يسمي الطست الذي ملأه بالتراب وعظام الدجاج ثم عزّزه بإلية ماعز بالموقع. عرض عليّ أن أرافقه إلى منزله، وكالعادة قلتُ له نعم. قلتُ نعم، وتركتُ لا في القرية، في مكان ما هُناك. لا أدري من أخبرني أن القروي لا يحتاج إليها في المدينة إلّا بعد زمن، بعد أن تلين عظامه. أظنّها أمي، أو فيصل عبد النور.

كنتُ أمضي خلف أهل المدينة، أصدّق كلّ ما يقولون، فالمدينة تعلم كلّ شيء، المدينة على الحقّ. غرست إصبعين في تراب الصحن ثم أدنيتهما من أنفي، رائحة غريبة وقذرة. قال محمد المحيّا واللعاب يتكوم عند زوايا فمه إنها رائحة نفط، وحلف بالله. اختار لله اسماً جعلني أصدّق كلامه، اختار الجبّار. لم يسبق لمحمد المحيّا أن حلفَ بالجبّار. أمام مشهد مهول مثل ذلك الذي وقفنا عليه، والنفط يخرج من عظام الدجاج، فإن الجبّار كان هو الاسم الأمثل. فكّرتُ في أن أشاركه الحلفان، وأحلف بالماحق. غير أني لم أكن متأكداً ما إذا كان الماحق من أسماء الله.

تمرّ الأيام. أغادر المدرسة بعد الحصة الخامسة. يصطحبني شمس الدين الابن حتى البوابة، هناك وقفنا وتحدثنا عن مرض جدّتي. قال إني أصبحت رجلاً ذاوياً وإنه لم يسبق أن رأى شخصاً يحزن على جدّته بتلك الطريقة. أردت أن أشرح له ما تعنيه لي جدّتي لكنّه قاطعني قائلاً إنه يتفهم كل أنواع الحزن، وإنه فقط أراد أن يقول إن حزني يلفت الانتباه. عرض عليّ أن يصاحبني إلى سكني ويبيتَ معي فتملّصت من عرضه. سكتَ قليلاً ثم رفع رأسه وقال: "ما رأيك لو تبيت عندي؟" ثُم تَحوَّلَ عرضُه إلى إصرار. أخذ بيدي وجرّني خلفه إلى أن تجاوزنا الأسفلت حتى الضفة الأخرى. مشينا بمحاذاة سور المعهد المقابل للمدرسة، وبعد ما يداني الساعة كنا نجلس في بيته.

في المساء جاء والدُه وألقى علينا السلام ثم صَعِد إلى ديوانه، وسمعنا له هديراً. قبل الفجر كان صوته يخترق الجدار، كان يسبّح الله ويمجّده على طريقته. كان صوتُه عميقاً وغليظاً، ويسعل بين الحين والآخر.

"أنت ربّي، تقدّس اسمُك، تمجّدَت ذاتُك، تعالى نورُك، امنحني ما يسترني، واحفظني حين لا حافظَ سواك. جئتُكَ بهذه الأطمار فإن شئت قبلتَني بها وإن شئت أحرقتها في وجهي. لا سبيل إليك سوى فرحي بك، لن ألجأ إلى سواك، وهل يفرّ العبد من خلاصه؟ أشعِل النار في هذا الجسد حتى ترضى، دفّئ به الواقفين أمامك في يوم لا نار قبله ولا برد بعده. عذّبني مولاي بما تريد لمن تريد، لا تتركني أدخل الجنة خالياً من الجراح والآلام. الله الله الله الله. يا مالكَ

الأسرار، يا من يدخل الجنة في النار، احرق جسدي وطهّر بصيرتي، نجّني من الطين، نجّني من التّراب، نجّني من صوت الدنيا، طهّرني ممّا علق بي من عيون الناس وقولهم، واصطفِني لك عبداً أو شجرة. لك قطعْتُ أوردتي، في سبيلك أحرقْتُ مركبي، ومن أجل نظرة إلى نورك أطفأْتُ كلّ شيء في روحي عدا اسمك. الله الله الله، اعصمني بحروف اسمك، أدخِلني في اسمك، أدخِلني في صفاتك، أدخِلني في مواقيتك، ارفعني إلى صوتك، بدّدني في ذاتك، آلمني هذا الجسد، آلمني هذا الحبّ، الله الله الله...".

ارتجفتُ، سحبتُ اللّحاف على جسدي كلّه، اختبَأْت. كأني كنت في صحراءَ قارسةِ البرد، عارياً ووحيداً. كان الصوت العظيم لشمس الدين يحرق الدنيا. كنت مغمض العينين، رأيت ناراً تشبّ في جسد الكون وكان شمس الدين يحاول إطفاءها بقفطانه، ثم توقف عن محاولاته وتركها تضطرم.

وقف يتأملها ويشير إليها بمسبحته.

لهجت باسم الله، الله، الله. رأيت جدتي تدهس تلك النيران. كان شمس الدين يمسك بيدها ويذود عنها النار، يأخذ بيدها إلى خلاص في الجهة البعيدة.

رأيتها تنهره وتردد كلامه:

"إلهي ومولاي، أضرِم النار في هذا الجسد حتى يجد الحاج أبو غانم طريقه".

كانت تضحّي بجسدها مبتهجة، تضرم فيه النيران لتنير لزوجها الظلمات. وكان جدّي يرى طريقه في ذلك الجحيم ويمضي بعيداً

عنها.
أفطرنا على خبز ساخن وشاي، إذ تصحو زوجة شمس الدين مع النجمة وتخبز. القاعدة الأولى في حياة زوجة شمس الدين:
”لا تخبزي إذا طلعت الشمس“.
أما القاعدة الثانية فتقول:
”لا تضعي شيئاً على النار إذا سمعتِ صوتاً“.
والقاعدة الثالثة؟ سألت شمس الدين الابن، فقال:
”إذا وقفتِ أمام التنور فكوني وحدَك“.
”لماذا تقف وحدَها أمام التنور؟“، سألته.
هزّ رأسه ومصمص شفتيه، قال:
– بعد أن تستخرج أمي الفطيرة الأخيرة تنادي علينا فنقف حول التنّور ونحدق فيه حتى يخبو.
– ولكنكم اليوم لم تفعلوا شيئاً من هذا القبيل.
– لا نقف حول التنّور إذا كان في البيت أغراب.
مضينا إلى المدرسة وسلكنا سبيلاً لا نتوقع أن نرى فيه سلفيين. كانت كلمة ”أغراب“ توجِعُني طَوال الطريق. القرويّ الذي كنتُه كان يشعر بالانتماء لكلّ من يبتسم له ولكلّ من يمنحه الطُّمأنينة ويقدّم له خبزاً. أوجعتني الكلمة ليس لأني سمعتها من صديقي شمس الدين الابن، بل لأني سمعتُ المدينة كلَّها تردّدها خلفه. حتى هُدى شمس الدين قالت ”أغراب“، هدى الفتاة التي بالأمس أحضرت مجمرة البَخور ووضعتها خلف الباب ونادت: ”شمس، يا شمس“، كأنها امرأة تنفخ في الصُّور، والصور قرية في روحي.

شعرت لأول مرّة أن في الدنيا من هو أقوى جبروتاً من رَشَاد قلب الأسد. آه لو أنّ من ينفخ في الصور امرأة، أو فتاتان، لخرجنا من الأجداث مبتهجين، نعوي عواء الآخرة، وابتلعنا النيران في طرفة عين.

أثناء الحصّة الثانية وقف الأستاذ نبيل في باب الفصل وتبادل بعض الكلمات والابتسامات مع مدرّس الكيمياء. أشار إليّ مدرّس الكيمياء بمغادرة الفصل، غادرت. كان الأستاذ نبيل يمشي بمحاذاتي، ثم يسبقني بخطوة. هبطنا الدرجات العشرين حتى وصلنا إلى ساحة المدرسة. سألني عن حالي، كان سؤاله مريباً، فقلت: الحمدُ لله. أخطأت في نطق الحمدُ لله، ولست أدري لماذا فخّمت كلمةَ لله. لم أجرؤ على سؤاله ماذا يريد ولا أين. ربما كان يعرف، ومن غير المستبعد أنه قد أخذ قرويين أمثالي بالطريقة تلك. ألقى التحية على بوّاب المدرسة ففزّ الرجل من مقامه. كان اسمه العمّ عبده، فتح البوابة وهو يقول: تفضّلْ يا أستاذ نبيل، تفضّلْ يا أستاذ نبيل. لا يخاف الأستاذ نبيل من شيء، ذلك فقط ما خطر على بالي وأنا أرى أسنان العمّ عبده السوداء.

"سنقوم بمشوار قصير"

قال الأستاذ نبيل وهو يشير إليّ أن أركب معه.

"الحصّة الثالثة مهمّة"

قلتُ له، ولم أجرؤ على إكمال الجملة.

"دقائق فقط"

قال وهو يحيد شمالاً ويدخل بسيارته حيّ الضّحى.

تسارعت ضربات قلبي ثم أبطأت فجأة. كانت عيناي تدوران بسرعة ثم تبطئان، تعودان إلى الدوران باتجاه آخر، مرةً مع عقارب الساعة وأخرى عكسها. أردت أن أصرخ بصوت عالٍ، أن أستنجد بأيّ شيء وأيّ أحد. غير أن نبضاتِ قلبي لم تطاوعْني، والناس لا يهبّون لنجدة رجل لا يدري ممَّ يخاف.

ما الذي يريده الأستاذ نبيل؟ هل أخبرَتْه زوجتُه بشيء؟ ولكن ما عساها تقول له؟ أنا لم أفعل شيئاً سوى أني... بلى فعلتُ شيئاً. كتبت لها كلاماً عن الضفدع نوح. ما من ضفدع اسمه نوح، يا لها من قصة تافهة ابتكرتها وها هي تلقيني بين يدَي الوحش. هل لا يزال دفتري في حوزتها؟ أنساني مرض جدّتي كلّ شيء، أو ساعدني على النسيان الذي كانت أصبو إليه. ربما أعادته ولكني نسيت. أم هو الحاج علي. عندما قفز اسم الحاج علي إلى رأسي انقشع كلّ جلدي. لا بد أنه هو، هو الذي يخبر هذا عن هذا. أوقف الأستاذ نبيل سيارته بالقرب من المسجد وصعِدنا معاً إلى الغرفة المعلّقة. قال، وقد تبدّلت ملامحه وصارت أشبهَ بصورته يومَ حدّثَنا عن فتح البلدان: قدّامي.

طلب مني أن أفتح باب الغرفة ففعلت. لم يكن فاروق الشرعبي هناك، ويبدو أن الأستاذ نبيل يعرف ذلك جيداً. لم أتمنَّ قطّ أن يكون فاروق الشرعبي في الغرفة سوى اللحظة تلك. كانت باكستان تهيّئ نفسَها لتجربة أول قنبلة نووية، آه لو أنها تفعل الآن وتضغط على الزرّ الخطأ في الاتجاه الخطأ. لو أن باكستان تعرف أن حيّاً اسمه الضحى في اليمن، وأنه ما من حيّ في الدنيا استحق أن

يختفي من الوجود مثل ذلك الحي في تلك الساعة. افعليها يا باكستان. قدّامي، قال الأستاذ نبيل.

وقفت تحت السقف وراح هو ينفض فراشي وكتبي، يقلب دفاتري، يبحث عن شيء ما. توقّف قلبي عن العمل عشرات المرّات وسمعت أصوات كلاب قادمة من أقصى الحي، كانت حزينة وتتمنى لي السلامة. تمنّيت أن يشعر بي شخصٌ غريب فيصعد إلى الغرفة لينظر ما الأمر، أن أسمع رجلاً تائهاً يسأل عن الطريق فأهبّ إليه راكضاً. صنائع المعروف تقي مصارع السوء. هل من معروف في كتاب حسناتي؟ أجبني يا ملك الحسنات، هل رأيتَ لي معروفاً يقيني مصارع السوء؟

سيارة توقفت للتو، صوت بابها ينفتح ثم يُرطم بقوة. لا يصعد إلى هذه الغرفة أحدٌ. لماذا لا تحدث مصادفة أميركية ويأتي أحدهم ليخلّصني؟ لا تشبه السينما حياتنا في شيء، ها هو الأستاذ نبيل يفعل ما بدا له ولديه الشجاعة والوقت. قال لي شمس الدين، بالأمس القريب، إنّ حبّ الله من شأنه أن يجعل المرء يقول للشيء كن فيكون، وإن المحبّين العظام قالوا للدجاجة الميّتة قومي فقامت. كنتُ محبّاً لله، ولكن حبّ تلك الفتاة تداخل مع حبّ الله، دخلت الموجة السوداء في البيضاء، التقى النبي والشيطان في شراييني، وجريا في دمي. إلهي إن كنتَ تعرفني فافعل شيئاً، قلتُ في أعماقي. ثم رأيت أنه من الأفضل أن أتوسّل إليه بأمّي، لا يمكنه إلّا أن يحترم الأمّهات. لم يحدث شيء، أو حدث كلّ شيء: وقعت يد الأستاذ نبيل على دفتر خبأته تحت رأسي. فتّش الدفتر،

قلّب الصفحات، رأى الرسومات، توقّف عند فتاة ساجدة أمام رجل. قرأ اسمه: "الأستاذ نبيل" فوق رأس الرجل. رأى عضوَه يخرج من ظهرها، واصل تقليب الدفتر، قرأ اسم دِينا.

– مَن دِينا؟

سألني.

– فتاة من القرية.

قلتُ مغمغماً.

– ومن هو الأستاذ نبيل؟

سألني وقد استوى واقفاً. أدخل إبهامه في أنفه ثم أخرجها وحدّق فيها كأنه يقرأ شفرة عسكرية.

– مدرّس في القرية عندنا.

– أين دفتر الهندسة الفراغية الذي استعرته منك؟

– لا أدري، أظنه هناك.

واصل البحث ولم يعثر على شيء. استوى واقفاً مرّة أخرى، وقف أمامي مباشرة، كان أطول مني وكان أنفه كمقبض مسدس. رأيتُ رئتيه، أحسست بالجنون يتسلّق عنقه حتى ذقنه، فتح فمه قليلاً فرأيت الفرجة التي بين أسنانه العليا. راحت الفرجة تتسع وتضيق كأنها دُبر معزة. سبق لي أن رأيت كل شيء في أحلامي، وما رأيت قطُّ شيئاً يشبه ما رأيته بين أسنانه. لم يقل لي شيئاً عن خطيئتي، لم نتحدث عن شيء. كانت نعال العمّ غانم في الخارج شامخةً ووحيدة. فكّرت فيها وفي ما قالته جدّتي عن تلك النعال.

اتجهتُ إلى الباب، أمرني بالتوقف، أشرتُ إلى النعال. وضعتُ قدميّ فيهما وعدتُ إليه.

"تعرف مجاري الهشمة؟".

سألني وهو ينظر مباشرةً إلى عينيّ فرأيت مغارة مترامية الأطراف، رأيت مجاري الهشمة. حدّق في النعال، نعال العمّ غانم، ثم رفع بصره ونظر في عينيّ. في تلك اللحظة، وهو يصرف نظره عن النعال، انطفأت عيناه. من حسن حظي أني كنت قد سمعت عن مجاري الهشمة قبل ذلك بأيام. فقد أخبرني محمد المحيّا عن مجاري المدينة التي تصبّ في تلك البلاد. كان المحيّا يقول إن المستقبل في الهشمة، وإن خراء البشرية سيصبح نفطاً في تلك السهول، وسيكون المتر بألف.

عندما تأكد الأستاذ نبيل من أنّه سمع إجابتي غادر الغرفة. لم يقل شيئاً، لم يجد شيئاً، لم يطلب مني أن أمتثل لشيء، ولم يأخذني معه. في تلك الساعة، وأنا أنظر إلى طرف أنفه المدبّب، كنتُ مستعداً للامتثال لأي شيء، بما في ذلك أن أحرس خراء الهشمة حتى يصير نفطاً.

وقفت في الخارج، حدّقت في منارة المسجد ورأيتها مكتملة لأول مرّة. رأيت آلاف القمصان على أسطح المنازل وهالني أنّ هذا الحيّ الهادئ به كل تلك القمصان. ألقيتُ بصري على نعال العمّ غانم، وشعرتُ بالأمان لأول مرّة. أخذتني النعال إلى دكّان الحاج علي. ألقيتُ عليه السلام فردّ ببشاشته المعتادة دون أن يلاحظ شيئاً على ملامحي. لا يمكن أن يكون ما قلته صحيحاً، أن الحاج علي لم

يقرأ شيئاً في ملامحي. ليس الحاج علي. ما الذي جرى؟ لماذا دهَمَني الأستاذ نبيل على ذلك النحو؟ كان الحاج علي يحدّث زبوناً عن مقوّت اسمه الدكتور. قال إنه اشترى بيتاً على الخطّ وإن زوجته أرجل منه. كنت أحدّق في البضاعة، منتظراً أن يقفز الحاج علي إلى موضوع متّصل بما أفكر فيه. فجأة سألني:

– هل انتهيت من مطالعة الدفتر؟

– أيّ دفتر؟

– دفتر بنت الأستاذ نبيل.

ما الذي يفعله الحاج علي؟

– لكنك قلتَ إنها زوجته؟

قلتُ وأنا أحاول السيطرة على أعصابي.

ترك الحاج علي شفتيه تلعبان ثم قال بلا اكتراث:

– أظنّها ابنته.

لا قريب لي في تلك المدينة، ولولا أن الأخ يونس جرح ساقه في الوادي يوماً ما لما عرفت الطريق إلى هذا الحيّ، ولما وقفْتُ الآنَ عارياً ومكشوفاً أمام رجل ليس له قرار يُدعى الحاج علي.

فكّرت في شخصين: شمس الدين الابن، والأخ يونس الذي صار سلفياً. وفكّرت في الفِرار من الحي، في اللجوء إلى أبي.

أبي! كان ذلك سيكون مدمّراً. لو أنه عرف بشأن سكني في المسجد لأخذني إلى الجبل. كان دائماً يهددني بهذا الأمر ولم يقل قطّ ما الذي سيفعله بعد ذلك. سردت قصّتي بكل تفاصيلها على شمس الدين الابن. أخيراً. كان لا بدّ من شخص أن يسمعها، اخترت

شمس الدين. لم أفكر في الأمر كثيراً فقد سبق أن عرض عليّ السكن معه في داره. وحينما سمعت ابتهالات والده في الفجر فهمت لأول مرّة معنى الأمن والخوف. التجأت إلى ذلك الصوت، لا بد أنه حارس أو محروس. كان شمس ابن المدينة، ومثل كلّ الآخرين فهو يفهم أحسن مني، وقد أخذت كلامه على محمل الجدّ حين قال لي إن المعضلة مع الأستاذ نبيل لن تذهب أبعد من ذلك، فالرجال يصبحون أكثر جبناً حين تقترب المواجهات من مخادع نسائهم.

– والآن؟

سألُته.

– هاتِ كتبَك وتعالَ عندنا.

لم أكن لأجيب طلباً كهذا من قبل، فما أحببته في غرفة المسجد هو عزلتها عن الناس، ولأنها على تلّ، ولأني خائف، ولأنها تطلّ على منارة، ولأن رجلاً كتب على جدارها أنّ كتيبة الله ماضية. لم أكن أسكن هناك، كنتُ أعتصم بها. وكنت أقول للأخ يونس سآوي إلى جبل يعصمني من المدينة، وكان يضحك ويقول لا عاصم إلا هذه الغرفة. وافقتُ على أن أقضي في بيت شمس الدين بضعة أيام. كنتُ أشعر بخوف لم يمسّني من قبل. قال شمس الدين الابن: "اخرج من القرية الظالم أهلُها"، ولم يكن جادّاً في ما قاله.

يعرف شمس الدين كلّ شيء لأني لا أعرف شيئاً. كان شاباً فائق الذكاء، ورث ذكاءه من جدّه لأمه. قال هذه غرفتك، وقال هذا

حمّامك، ثم فرد كتفيه كأنه يتملّص من شيء ما وسألني إن كنتُ أعرف شيئاً عن مقام الخوف.

في الحال سمعتُ صوت فتاة في الدار فقال هذه أختي هُدى. جاءت هدى بالبَخور، ووقفت خلف الباب. سألَتْ بصوت عامر بالحنان والطيبة والجمال: "أعمل لكم شاي بالحليب؟"، ولم تسمع منّا جواباً. كانت تقف خارج الغرفة. آه لو سألتني أنا، لو أنّ هذا المنزل المهيب سمح لي أن أجيبها: نعم أرغب في شاي بالحليب. كانت قطرة شاي، قطرة واحدة بلا حليب، كافية لإغراقي في تلك الساعة. أما وقد جاء الحليب وهدى فما من دار في الدنيا تستحق أن يُهاجر إليها مثل تلك الدار. اسأليني يا هدى، اسأليني وسيجيبك الحجر والشجر.

لم أكن قد دخلت تلك الغرفة من قبل، رأيت أعلى الباب من الداخل كتابة تقول: الخوف يقبضني، الرجاء يبسطني، الحقيقة تجمعني، والحقّ يفرّقني.

ميّزت خط شمس الدين الابن، كان شبيهاً بالخط الفارسي وكانت الأحرف العميقة مثل الياء والنون إذا وقعت في آخر الكلمة فإنه يحفر لها قاعاً ويسحبها حتى آخر السطر.

أعدت قراءة المكتوب مرّاتٍ ومرّات، إن لم تخنّي الذاكرة فقد كان مكتوباً تحته: من أقوال الجنيد رحمه الله. كأنه اختار لي غرفة مخصصة للعلاج من الخوف. كانت داراً من أربع طبقات وربما أكثر، وكان ثمّة هديرٌ دائم. قضيت فيها بضعة أيام حتى انتهى الأسبوع.

كنّا نذهب إلى المدرسة معاً، وقد أتاحت لي تلك الأيام المعدودة فرصة لمراجعة ما فاتني من الدروس.

جلس إلينا شمس الدين الأب مرّات عديدة، وكان يحدّثني عن شعر الصوفية، وعن تاريخ أسرته.

آنستُ تلك النار في منزلهم، وتحدثت عمّا أعرفه من شعر الزهد فتركني أتحدّث. وبعد أن قلتُ كلّ ما كنت أعرفه واستشهدت بأبيات من هُنا وهناك، قال شمس الدين إن شعر الزهد يختلف عن شعر التصوف، الشعر الصوفي منصرف كلياً إلى المحبة وشعر الزهد محبوس في الخوف. الصوفي لا يخاف لأنه في معية المحبوب، والزاهد يخشى لأنه في قبضة مخاوفه. يرى الزاهد، قال شمس الدين، غضب الله وناره ويرى الصوفي رضاه ونعيمه. لو عذبك الله فيا للسعادة، أتدري من الذي عذبك؟ إنه حبيبك. ما العبادة؟ هي التطهّر. محاولة لتنقية الروح والبدن. الله يريد الحب أكثر من العبادة، أحبب الله على غير طهارة، اذهب إليه وأنت قذر أو على جنابة. لا تنتظر أن تطهّرك العبادة، لا الماء ولا النيران، حتى تصير أهلاً للحب. لن تصفوَ جوارحنا مهما فعلنا فهي جزء من هذا الطين شئنا أم أبينا. أنتما الآن – ونظر إلى شمس الابن ثم إليّ – يافعان، ولا شكّ أن الروح لا تزال بيضاء والجسد يتسخ رويداً رويداً.

أخافتني كلمة رويداً منه. تذكّرت ذنوبي التي بلغت عشرة آلاف. أيّ صفحة بيضاء تلك؟

سألته عن الخوف من الله فقال إنه ذنب يداني الكفر.

كان يتحدث وكنت أحاول أن أسوق أمامه آية نسيتها، آية عن الوجل. وجدتها. قلتُ له: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}. ابتهج شمس الدين ونادى على ابنته هدى. وقفت هُدى خلف الباب فطلبَ منها أن تحضر شراب الزنجبيل، قال لها: "بالنعناع والليمون". عندما سمعتُ قدميها تقتربان من الباب أدركتُ البون الشاسع بين الخوف والوجل، وبين الشاي والليمون.

إذا لم ترتجف كلُّ أعضائك وأنت ماضٍ إلى المعصية فأنت لا تعرف شيئاً عن الله، قال شمس الدين الأب. الوجل ليس من عذاب الله ولكن من المعصية نفسها، المعصية شيطان وأنت ذاهبٌ إليه بقدميك. حين تدخل بيت الشيطان ستتغيّر أحوالك، وإذا أُلِفْتَ الذهابَ إليه فلن يكونَ بمقدورك الإحساسُ بالله بعد ذلك. المعصية ورطة، لذا فنحن نسمّيها الخطيئة. كان يقول أو يهذي.

وقفت أمام جدّي ليلة الجمعة، وقفتُ في غرفته المظلمة وقلتُ له بحزم لم أعرفه قطّ: سآخذ جدّتي إلى دار شمس الدين. شرحت له عن البيت العامر بالذكر، والدار التي لا تدخلها الشياطين. حدّثته عن الكتب والصلوات والسماع، وعن الهدير الذي لا يتوقف. ثم قلتُ له:

– هو اختبار. إذا تحسّنت حالها فهي الشياطين. وإذا لم تتغير الحال فهي مريضة بواحد من الأمراض التي نسمع عنها.

جاءت إحدى عمّاتي بفانوس أكبر، امتلأت الغرفة بالنور ورأيت الجد. ظننته يحدّق في السقف، بيد أن عينيه كانتا مغلقتين، وكانت أنفاسه تصعد إلى السقف وتعود إليه منكسرة. لم أجرؤ على

سؤاله ما إذا كان يسمعني. جلال اللحظة جعلني أنكمش في مكاني، فأنا أحدّث عاشقاً طاعناً في السنّ عن امرأة كانت شمسه على مرّ الأيام. لقد أنارت له كلّ الدروب، كان يقول، حتى إنه لم يعد بحاجة إلى عينيه.

– وما الأمراض التي نسمع عنها؟

– أمراض الجسد مثل القلب والكبد والدماغ.

– الفحوصات كلّها سليمة.

ترددتُ قليلاً، ثم أخرجت الكلمة الكبيرة:

– ربما الخرف.

الحقيقة أن شمس الدين هو الذي لفت انتباهي إلى الأمر حين قال لي إن جدّتي ربما تكون قد أصيبت بمرض اسمه أرذل العمر، وأوّلته أنا بالخرف. قرأ حينها الآية: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}.

طافت بين عينيّ كلّ محاولاتنا لإعادة شرح الدنيا لجدّتي. شرحنا لها الوادي والجبل والليل والنهار والناس والنوم، ولكنها عجزت عن إدارك شيء من كل ذلك. عرفتُ مرضها، ها هي شامخة ورائعة لا تعلم من بعد علم شيئاً. لقد أدركها قدر الله وبات عليها أن تمضي في واحد من طريقين: أن تموت، أو تمضي قدماً في أرذل العُمر.

بقي لي أملٌ أخير، منزلُ شمس الدين.

وافق جدّي، ولكن جدّتي اهتاجت وقالت إنها لن تدخل المدينة مرّةً أخرى إلّا إذا سمحنا لها برؤية الهول، جنّي الوادي النائم في

جوف الشجرة. احترنا في تنفيذ تلك الرغبة خوفاً من عيون الناس وألسنتهم.

قال العمّ غانم إنه سيأخذها بالسيارة بعد صلاة العشاء، وسيتدبّر الأمر. غير أنّ الجدّة رفضت ذلك العرض قائلة إنها تريد أن ترى الهول عند الفجر كما رأته من قبل وهي حاملٌ بالعمّ غانم. في ذلك الفجر البعيد، كما قالت، أحسّت بقدمَي العمّ غانم تركضان في بطنها كأنه يريد الهرب. عرفت جدتي في تلك اللحظة كلّ أسرار جنينها. لا تزال جدّتي قادرةً على تذكّر أشياءَ بعيدة. وحين تُوجعُ ذكرياتُها العمَّ غانم تستدرك قائلة: ابني رجّال، لا خلي طائر يطير ولا سائر يسير.

أخذ العمّ غانم أمّه قبل أذان الفجر وذهبا إلى الشجرة مشياً على الأقدام. وقبل أن يبتعدا كثيراً عن الدار توقفت جدّتي في مكانها وطلبت منه أن يعود ويصطحبني. نهرته قائلة إنها تريد أن تُشهد عليه أحداً سواها. كان العمّ غانم متبرّماً وفيما يبدو فقد أثقله مرض أمّه وجعل منه أضحوكة، حتى إن مرتادي السوق من القرى البعيدة باتوا يعرفون بأمر القحبة زوجة علي الراعي. ولكن ما الذي يقدر العمّ غانم على فعله؟

مشيت خلفهما، خلف العم غانم تحديداً وكانت جدّتي تتحدّث وتقول وتقول. مرّ شبح رجل ثم شبح آخر وألقيا علينا السلام. سمعت جدّتي تسأل غانم فقال إنهما ذاهبان إلى المسجد للصلاة. قال إنه لم يتعرف عليهما ولكن الجدّة قالت إنها ميزت صوتيهما. وقفنا أمام الشجرة، شجرة الهول، فطلبت جدّتي من

غانم أن يخلع نعليه. رشقت الشجرة بالنعل الأول، بالنعل الثاني، ثم حدقت فيها وأطالت التحديق.

في طريق العودة جلس غانم على الأرض أكثر من مرة ونزع بعض الشوك عن قدميه، وكانت جدتي تطلب منه أن يقف، فالرجال لا يلعبون بأقدامهم في حضور الأمّهات. الحقّ أن جدّتي التي انزلقت إلى أرذل العمر لم تكن ذاهبة العقل. باتت تحكمها الرؤى. ذلك ما كان يشغلني. داخل أزمتها كانت الحياة تأخذ شكلاً آخر، وكذلك كل شيء. حين جلستْ في الديوان، وكان الجميع قد استفاق من نومه ووقف ينتظر عودتها من ذلك المشوار، قالت إنها رشقت الهول بالنعال ولكنه بقي جالساً في مكانه. ثم، بعد تفكير، قالت إنه أصبح طاعناً في السن. وبنبرة مختلطة بالنصر والهزيمة قالت:

"فضيحة لو يعرف الحاج أني ضربتُ عجوزاً".

لم نكن ندري متى لقبت جدّتي زوجها بالحاج لأول مرّة. أمّا أكبر عمّاتي فقالت إنّ اسمه كان دائماً الحاج. قالت جدّتي هامسةً إن الهول قد يموت قبل الحاج. ثم تدفقت الدموع إلى عينيها ومن هناك إلى الخدّين، فهبّت واحدة من عمّاتي ومسحت الدموع.

كانت جدتي تنشج مرتجفة، وتلوم نفسها لأنها رشقت بالنعال جنيّاً طاعناً في السنّ.

ولم تخفِ إعجابها بما صار عليه الهول من الخُلق الحَسن.

18

دخلتْ جدّتي دار الشيخ شمس الدين مطلع مايو، وكان النهار دافئاً. حين نظرتْ إلى السطح، وكان ذلك أول ما تفعله حين تدخل بيوت الأغراب، تذكّرت الله. ثم ألقت بصرها إلى قدميّ وسألتني عن نعال العمّ غانم. أخرجتها من كيس الكتب الذي أصطحبه على الدوام.

دسّت جدتي تلك النعال تحت السرير ثم استوت واقفة. تلفّتت في كلّ ناحية لتتأكّد من أنّ أحداً لم يرَ ما فعلَت.

أول شيء قامت به زوجة شمس الدين أنها أجلست جدّتي على حافة السرير ثم فتحت صندوق الهدايا. كان السرير عالياً بعض الشيء ولكنّ جدتي استطاعت أن تلمس الأرض بأطراف قدميها. أحسّت أنها معلقة بين الكواكب. تذكّرتْ حكاية عن زوجة نبي كانت تجلس على حافة كوكب دُرّي وتراقب العباد. سألَتْها زوجة شمس الدين عن اسم النبي فقالت جدّتي: "كان اسمه الحاج، ولم تكن بندقيته تنزل من على كتفه".

راحت تحكّ ركبتها وهي تغمغم:

"يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية".

تهامست زوجة شمس الدين مع نفسها وهي تغادر الغرفة:

"الله نور السماوات والأرض".

وكانت قد صدّقت أول حكاية قالتها جدّتي في تلك الدار المهيبة.

تحصل زوجة شمس الدين، وكان اسمها دُرّة، على هدايا من أقربائها المنتشرين في السعودية وتقتسمها مع الضيوف. هناك دائماً ضيوف. الغرفة التي نزلت فيها جدتّي كانت تحاذي الشارع، وثمّة سكّة ضيقة تفضي إلى تلّة مرتفعة. تمشت جدّتي في الغرفة، الغرفة واسعة بما يكفي لامرأة مثلها. كانت متصلة بمُستراح، وهو الاسم الذي تستخدمه الجدّات للحمّام. راحت تلقي بنظرها إلى الخارج وتحدّق في تلك السكّة إلى منتهاها.

كنتُ مرتبكاً. فبسبب وجودي في طابق النساء اضطُرّت ابنتا شمس الدين إلى الحديث على نحو خفيض. كادت دُرّة تتعثر بأبسط خطواتها. شيء ما غريب كان ينهض بداخلي تجاه تلك الدار التي بتّ أعرف عنها الكثير. يمكنني أن أكذب هُنا، وأدّعي أن هدى شمس الدين كانت تتلصّص عليّ، وأنها افتعلت حواراً مع أمّها قبل صلاة العصر كي أحسّ بوجودها، مثل أنها سألت الأم بصوت عالٍ عن مكان سجّادة الصلاة. فتيات تلك الأيام كُن يستخدمن الصلاة للفت الانتباه. أو أن هدى، لفرط شغفها، افتعلت وهناً في كلماتها وهي تحادثُ أمها تحت سقف الصالون. لقد سمعتُ ذلك الوهنَ، وما من شيء كان أكثر ضلالاً ومجداً من وهن بنت شمس الدين. ما هذا الهراء.

المدينة لا تهِبُ بناتها لعيال القرى: أولاً لأنهم خائفون، وثانياً بسبب ما يُرى على ملامحهم من أثر الجنّ، وثالثاً لأنهم ببساطة يحدّقون ولا يفتحون أفواههم. لم أكن أعرف أن في ملامحي أثراً من الجنّ، وكنت أنزعج من تلك التّرهات. إلى أن قال لي محمد المحيّا،

وهو يشير إلى صحنه المليء بالتراب وعظام الدجاج، إنه اختارني من بين كل أصدقائه ليريني السرّ، ذلك أنّ حياتي الطويلة مع الجنّ والمطر ستجعلني قادراً على رؤية ما لا يراه الآخرون.

كان للمُحيّا صوتٌ يشبه الرياح الجافة، وهو ما كان يجبرني على تصديق سرّه. لا تجفّ الأصوات إلا إذا كانت مشبّعة بالحقيقة. عظام الدجاج سيصير نفطاً قبل امتحانات آخر السنة. لو أن المحيّا أخذني كلّ يوم ليريني السرّ لذهبت معه، فقد كان هو يكتم سرّي ولو شاء لقوض كرامتي. إذ، ونحن نقف في طابور الصباح، رأى على كتفي قملة فلكزها بإصبعه. ولو شاء لقال قملة. ولو شاء لأشار إلى الناس قائلاً قملة. ولو شاء لحدث الفصل بما رآه على كتفي.

ما الذي سيغوي فتاة مثل هُدى بشاب مثلي؟ هي كلّ شيء وأنا لا أعرف شيئاً، هي التي وهبتها الطبيعة غموضاً يكفي لشرح كلّ شيء، وأنا الراكض خلف كلّ ما لا يقول في النهاية شيئاً. هي التي حين أحضرَت البَخور كانت تعرف جيداً أنها تحضر البَخور، وأنا الذي ما إن تنفّس بَخور المدينة حتى فكّر في فناء الدنيا. كانت هدى ابنة شمس الدين، وهو رجل لو وقف على سطح بيته وقال آمراً "اخرجي أيتها التلال الصغيرة من مدينتي"، لما تخلّف تلٌّ واحد. أنا الذي لا يعرف اسماً آخر للسماء الدنيا، هي التي تسمّي الكواكب والنجوم. أنا الذي يعرف رجلاً سكر ليلة العيد ثم أطلق مئتي رصاصة على القمر، ولولا شفقة الله لما بقي على ظهره من ملاك. وهي التي حين يضطرب الليل تمسحُ بأناملها على ذيله، وتعده بالضياء.

أمسكتُ بيدَي جدّتي وتوسلت إليها أن تبقى هادئة، قلتُ لها إن شمس الدين أعطاني مفتاح غرفة في الأسفل، وإني سأكون عندها في لمح البصر عندما تحتاج إليّ. جرّتني خلفها حتى النافذة، ثم قالت وهي تشير بيدها:

"أريدك أن تأخذني إلى تلك الأكَمَة غداً".

هززت رأسي بالموافقة. سألتني إن كانت هناك من مقابر، فأجبتها وأنا لا أعرف شيئاً: نعم، مقابر المدينة كلّها.

لاحظْتُ في عينيها بهجة واسعة، وشئتُ أن أتوسّل إليها ألّا تغمضَ العينين. سألَتْ:

– وقبر السلطان المظفّر؟

قلتُ:

– وقبر السلطان المظفر.

سألَتْ:

– وهل هناك من غار؟

لم أجدْ جواباً، الحقيقة أنّ الجواب لم يكن مشكلة قطّ. وكان يكفي أن أهزّ رأسي إلى الأعلى والأسفل وإلى الشمال واليمين وراء كلّ سؤال.

قال شمس الدين الابن:

"تصرّفوا كأنكم في منزلكم".

واعتذر عن عدم رغبته في رؤية جدّتي معللّاً ذلك بأنه لا يحبّ رؤية أمهات الرجال وهنّ منكسرات. طلب مني أن أستئذن منه إذا

أردت الصعود لرؤية جدّتي في الطابق المخصّص للنساء. ثم عاد وقال: ”أو قلْ الله الله وأنت طالع“.

سألته وأنا أرتجف، ولا أدري لماذا:

– هل أقول الله الله بصوت عالٍ؟

– لا، ما من حاجة لرفع الصوت باسم الجلالة. أهل هذا البيت يسمعونه من مسيرة شهر.

– طلبَتْ جدتي أن أصحبها إلى التلّ.

– فكرةٌ رائعة، من التلّ يمكنكم رؤيةُ نصف المدينة وتخيُّلُ النصف الآخر.

– هل هناك مقابرُ أو غار؟

– هناك غار في الجهة الغربية يعتكف فيه الشيخ ناجي الحموي منذ عامين. قال إنه لن يغادره قبل فناء إسرائيل.

– وهل يعرف الناس هذه القصّة؟

– كلّ المدينة تعرفها. يأتي الناس إلى كهف الشيخ الحموي بالهدايا والأطعمة كلّ يوم. آلاف الناس يؤازرونه مؤملين أن تذهب إسرائيل أدراج الرياح. تبدو قصة مضحكة حين تسمعها لأول مرّة. مع مرور الزمن يدرك المرء أن الشيخ الحموي أسعد بقصته كلّ المدينة.

– وماذا يقول والدك عنها؟

– أبي يُعجب بكل قصّة خارجة عن المألوف، خصوصاً القصصَ التي ينجح أصحابُها في تجريد أنفسهم عن الدنيا.

– إذا كان يحصل على السمن والعسل فهو لم يجرّد نفسه من الدنيا.

– كلّ هذا لا قيمة له، لا السمن ولا العسل، إذا فقد المرء حقيقته. حقيقةُ الإنسان المشْيُ في الأرض. خُلق الإنسان مشّاء، وحين يعجز عن القيام بحقيقته يخسر كلّ شيء وإن حصل على كلّ شيء. ما السمن والعسل إذا كنت محبوساً في جبل؟

– تعني أن هذا هو استنتاج والدك؟

– هذه حقيقة صوفيّة فيما اعتقد. زاره أبي في الغار وتحدّث إليه.

– عن فناء إسرائيل؟

– لا، عن الدنيا.

في اليوم التالي أخذْتُ جدّتي إلى التلّ. من هناك بدت مدينة تعز شبيهة بكتاب. "تشبه واحداً من كتب جدّك"، قالت جدتي.

تاه نظري في المدينة، بدت لي أقرب ما تكون إلى جيش انهزم لتوّه. شعرت بالخوف، وشعرت جدّتي بالنشوة، حتى إنها قالت: اقرأ لي. قلْتُ لها: ماذا أقرأ؟ قالت: من هذا الكتاب. وأشارت إلى تعز.

أذهلتني اللحظة، فالجدّة التي طلبت مني أن آخذها إلى التلّ لتنظر ما إذا كان هناك غارٌ، ها هي تقف الآن على التلّ وتقول: اقرأ. شرعتُ في القراءة، ممسكاً بيد جدّتي، منادياً على القدير ليفعلَ شيئاً.

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً...}

قاطعتني جدّتي وهي تُتأتئ:

”عندما أموت وأدخل قبري اقرأ في أذني هذي الآية، هذي الآية وليس غيرها“.

كانت كلماتها عميقة حتى إني ظننتها ستموت في الحال. سحبَتْ يدَها من يدي وتأملت الجبل العملاق المحيط بالمدينة.

”وا خزائي من الله“.

كانت تغمغم، تلمّ حصوات من الأرض وتلقيها في الجو وعيناها على منارة السلطان المظفّر.

هبطنا الطريق عائدين إلى منزل الشيخ شمس الدين قبل منتصف النهار، وكان الصبية يصعدون إلى التلّ ويهبطون، يدوسون الحصى والعلب الفارغة ولا ينظرون إلى ما بينَ أقدامهم. كانت جدّتي سعيدة ومنشرحة، قالت إن الآية التي سمعتها أسكنت روحَها.

لا أدري كيف سكنت روحُها وهي تسمع قصّة حرب دارت بين القوى الإلهية وأهل اليمن، انتهت بأن حقّقت هذه القوى نصراً ساحقاً. قال شمس الدين الابن، معلّقاً، إنها ربما أحسّت بالأمن لأنها وجدت أهلها في القرآن بصرف النظر عن مصيرهم. ثم استلقى على ظهره وراح يتحسّس عنقه ويئن. ولما سمع قرقعة على الجانب الأيمن من عنقه شتم أهل اليمن أباً عن جد.

مضت الأيام أبطأ من ذي قبل. امتلأت حَنْجَرة جدّتي ببَخور آل شمس الدين. كانت تسعل عشرين مرّة قبل منامها ثم تدعو

لزوجها الحاج وتنام دون أن تغطّيَ قدميها. لا تحبّ جدّتي أن تضطجع أمام الله إلّا حافيةَ القدمين.

أحبّ أهل تلك الدار ما كانت تحدثهم عنه ونسوا ما أمرهم به شمس الدين الأب: اقرؤوا عليها. كانوا يقضون النهار يستمعون إلى قصصها، حتى إن صديقات الحاجّة دُرّة، البعيدات عنها، صرْنَ يزرنها كلّ يوم ليستمعن إلى السيدة التي رُفع عنها الحجاب. كانت جدّتي في أفضل حالاتها، فقد استعادت ذاكرتها من جديد، أو اخترعت لها ذاكرة. "صارت تملك حقيقة أخرى"، قال شمس الدين الابن بعد أن أخبرته أمّه. بعد مضيّ يومين فقط كان قد مضى على جدّتي هناك قرابة عامين. ذلك ما فعلته قصصها، وما تفعله القصص في العادة: السخرية من الدنيا. نافست حكايات جدّتي كلّ ما ورثه آل شمس الدين كابراً عن كابر من المعارف والقصص وسيطرت على الأجواء. ما من شيء بمقدوره أن يهزم قصّة جيّدة، حتى لو خبراً عن أشجار الجنة وأنهارها. ذلك كان الدّرسَ الأعظمَ الذي أدركْتُه في دار شمس الدين.

في اليوم الثالث زارنا العمّ غانم ولم يجلب معه شيئاً. طرق الباب الخارجي ووقف منتظراً، ولمّا ظهرتُ عليه نظرَ إلى قدمي وحكّ أنفه ثم خلع نعليه وعاد حافياً إلى سيارته. أصبح يزوّدها بنعاله، وكانت تأخذ النعال وتدسّها تحت السرير وتدعو له بالقوة والعون. ثم تخرج إلى صالون المنزل وتنظر يَمنةً ويَسرةً وتشرع في رواية القصص لمن حضر. كان المنزل عامراً بعدد من النساء من أقرباء الحاجة دُرّة وزوجها ممن يأتين ويمكثن بعض الوقت. وكانت هناك امرأة حديثة

الطلاق يُعتقد أنها ستعود عمّا قريب إلى زوجها. اسمُها منى، وتخرس كلّ الأصوات ما إن تبدأ جدّتي بالكلام. كانت أول من يسأل عن جدّتي إذا تأخرت في الخروج من غرفتها. على سطح الدار، بالقرب من عُش الحمَام، تتراصّ ثلاث غرف جنباً إلى جنب، هناك تنزل النساء الآتيات من القرى، يلعبن مع الحمام ويفشين الأسرار. وحين تقف الحاجة دُرّة في مطبخها بعد الغروب، قريبة من الغرف الثلاث، فإنها تسمع الكثير من القصص التي لا ينبغي أن تغادر الشفاه، وتحمدُ الله على ما وهبها.

صارت هدى تأخذ جدّتي إلى الحمّام، وتغيّر لها ملابسها. أمّا أختها، ولم أعرف لها اسماً قطّ، فكانت تشتري لها في كل يوم هدية صغيرة.

كان اليومُ الرابعُ مدوّياً، فقد جلست جدتي تحت سقف الصالون، ولم يكن هناك من أحد سوى هدى وامرأة أخرى، ربما كانت خالتها، وقصّت بصوت هادئ وبطيء حكايةَ القحبة زوجة علي الراعي. كنت لا أزال في غرفتها كما طلب مني شمس الدين الابن: "ابقَ ساعةً في غرفتها حتى إذا تأكّدْتَ من أنّها قد آنست بالناس فانزلْ إلى غرفتك". وكنت أحصل على القهوة إلى أن تنقضي الساعة التي كانت تأخذ سانحة من النهار. تخرج جدّتي إلى آل شمس الدين كلّ مرّة كأنها تفعل ذلك لأول مرّة. ما من شيء يعلق في ذاكرتها من الأصوات والوجوه.

كان صوت جدّتي يغمر البيت، والباب يُحكم عليّ من جهة الصالون حتّى لا أسمعَ شيئاً. كنتُ أسمع شيئاً. وفي مرّة جاءت هدى

ونقرت على الباب نقرات خفيفة، فلما فتحته رأيتها واقفة أمامي تحمل فنجان القهوة بيدها. أضاء نورُها كلَّ ظلماتي، وما استطعت رؤيتها. كنتُ ألوم نفسي كيف لم أرَ ملامح وجهها، وأنهرُني: "كيف لمثلي أن يراها؟".

في اللحظة تلك كاد القمر يدخل في الثريا، وأذّن الشرعبي في الحيّ وقامت الكلاب من منامها، وتذكّر البعداني زوجته وقال يا ألله، وتلفّت بُحيرى في مجلسه وسمع نشيداً، وقال الأخ يونس نكتة طويلة ونسي آخرها، وجاء الأمويون في مواعيدهم ونسوا ما جاؤوا من أجله.

لو لم تكن جدتي قد سحرت النساء بقصصها لما تركت الحاجة دُرّة ابنتها تذهب بالقهوة إلى الغريب. حين فتحْتُ الباب لهدى كانت جدتي قد وصلت إلى الجزء الذي يقول:

"دعس وسط الغيل وطلّع حقّه الذي لا يساوي ظفر غانم وبال في الماء".

قطعتْ جدّتي الحكاية تاركة النسوة يحدقن في فراغها. وصلت القصة إليّ أنا وهدى. الله ما أجملَ أن أقول: أنا وهدى.

جدّتي، منذ عرفناها، تأخذ الحكايات إلى الحافة وتتركها مفتوحة على مصراعيها ثم تفتح باباً جديداً. غير أنّ نساء شمس الدين لم يعتدن ذلك، فالحكايات هناك تنتهي دائماً، والقصص تفنى. غالباً ما تنتهي حكايات آل شمس الدين بالفناء. حين صارت قصص جدّتي أكثر لهباً كان هناك من يضع الأحذية تحت باب غرفتها حتى لا يصلني الصوت. وكانت جدتي تتوقف بين وقت وآخر وتطلب منهنّ أن

يروين لها قصصاً. كانت تقاطعهنّ وتكمل القصّة على طريقتها. صرنَ يتبادلن القصص، نساء شمس الدين وجدّتي. عن حكمة بالغة تروي نساء شمس الدين، وعن خيال بلا كابح تقصّ جدّتي. غلب الخيالُ الحكمة. وعندما تحدثت الحاجة دُرّة عن الرجل المؤمن، الذي لفرط حبّه لامرأة مسيحية غيّر دينه وراح يرعى لها الأغنام، قاطعتها جدتي قائلة: "فما كان من الله المستوي على عرشه إلّا أن نادى الملائكة والجنّ وقال لهم اشهدوا أنني أحببته وسأقبضه إليّ، أما أنتم فسترعون لها الأغنام حتى قيام الساعة".

أصبحت الحاجة دُرّة في مِزاجٍ أفضلَ منذ وصلَتْ جدّتي. يمكنني القول إنّ مِزاج كلّ نساء الدار أخذ وضعاً أكثر إشراقاً منذ بدأت جدّتي بسرد قصص القحبة زوجة علي الراعي.

البركة والرحمة وأشياء أخرى حلّت على الدار، حتّى إنّ ابنتَي شمس الدين كانتا حين تفتح جدّتي باب غرفتها تنشدان بصوتَيهما المذهلَين: "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع". ما من صوت في تلك الأنحاء كان أكثر جلالاً وطيبةً من ابنتَي شمس الدين حين تنشدان طلع البدر علينا.

لم تكن جدتي تنتظر فراغهما من النشيد. تجلس على الأرض وتسأل المرأة التي سيقع عليها بصرها: أين وصلت القحبة أمس؟ فيتصايحن كلهنّ بصوت واحد: عند النّعماني.

تصمت جدّتي قليلاً ثم تغمغم:

– مش عند السفياني؟

فيتصارخن جميعاً:

– لا لا لا، النعماني.

كانت الدار عامرة بالإيمان، وكانت قصص جدتي تجد لها في ذلك الجو الرائع مكاناً. عالجت جدّتي نساء الدار بالقصص، غير أنّ النساء لفرط ما هنّ فيه من السعادة نسينَ أن يقرأن على جدّتي الآيات الشافية. الحقّ يُقال أن جدّتي تعافت أيضاً، على الأقل من الهيجان والصوت العالي. فلم يكن جدّي ليسمح لها برواية تلك القصص التي اتّسع لها دار شمس الدين. حتى إني عندما أخذتها إلى مقبرة الوادي، قبل أسابيعَ، راحت تشي بالرجال إلى قبور النساء وبالنساء إلى قبور الرجال. كانت الشمس ساعتئذٍ قد مالت إلى المغيب، الحاج يتململ على سريره، وجدّتي تريد أن تفتن المقبرة على بكرة أبيها. جدّتي تشعر بحركة الشمس وبالحاج أكثر من أي شيء آخر في الدنيا.

لاحظ شمس الدين الابن تغيُّرَ مِزاج أمّه، فلم يسبق لها أن سألته إن كان يفكّر في الزواج. لم تفعل ذلك من قبل، ولكن شمس الدين خمّن سبب تغيّر موقفها.

الرجال والنساء في قصص جدّتي لا يستحقون أيّ احترام، ولكن قصصهم تستحق أن تروى ومصائرهم تستأهل التعاطف. كانوا أبطالاً على طريقتهم عدا الهبّاش. استغرقت قصة الهبّاش نصف نهار وكان شيخاً نحيلاً إذا التقى في طريقه بامرأة فإنه يدسّ يده بين فخذيها غيرَ آبهٍ بمن يراه. يفعل أشياءَ لا يعلمها سوى الله ثم يواصل مسيره ومِن خلفِه مرافقوه وكأن شيئاً لم يحدث. هبَش كلّ امرأة لم تحترس منه. عرف الرجال بأفعاله ولكنّ أحداً منهم لم يفعل

شيئاً. إذ كان كلُّ رجل يقول: لماذا عليّ أن أغضب فهو لم يهبش زوجتي؟ وكانت المرأة تقول: لماذا عليّ أن أخبر زوجي فسيظنون أنه لم يهبش أحداً سواي؟ هكذا عاشت يد الهبّاش حرّةً طليقة، واطمأنت لها النساء مع الأيام.

جدّتي لا تسمع سوى صوت نفسها حين تتحدث، ولم تتعلم قطّ كيف تروي بصوتٍ خفيض. لا بدّ لقصصها أن تكون عالية الصوت، وإلّا اضطُرّت الملائكة للنزول إلى سماء الدنيا وأرهفت السمع. آه من دار شمس الدين، كانت عامرة بالذكر، وبها فتاتان تسقيان. ولطالما نهضت فيها الدواجنُ من موتها.

درّبتها مُنى، المرأةُ حديثةُ الطلاق، على الصوت الخفيض وأفلح الأمر في نهاية المطاف. قصص جدّتي الخفيضة فقدت إبهارها، فاضطُرّت مُنى لتعليمها كيف ترفع المرأة صوتها حين تحكي قصّة.

جاء الخميس، وهو اليوم الذي يكون فيه شمس الدين الأب صافيَ الذهن، وتكون عيناه لامعتَيْن مثل الشهب النازلة. جلس في ديوانه في الدور الأخير وصعدتُ مع جدتي إليه. وقف شمس الدين في الباب، كانت عمامته واسعة كأنها قرية. ابتسم لها وحيّاها باسمها الثلاثي. كانت شبابيك غرفته مفتوحة، ومدينة تعز تدخل من نافذة وتخرج من الأخرى ولها دويّ مثل دويّ الرعود الباهتة. سألها عن الحاج زوجها، فقالت الحمدُ لله. كانت متوجسة من الرجل، وكعادتها باغتته كما تفعل مع الغرباء. سألته إن كان يعرف كلّ شيء عن زوجته فارتبك شمس الدين. ترنّحت عمامته وكاد يفقد وعيه لو لم تنتقل جدّتي إلى الحديث عن كرم ابنتَيه.

تعرف جدتي كيف تغرس المسامير في أقدام الرجال. فقد فتنت مقبرة بأسرها.

وضع شمس الدين الأب يده على رأسها محاولاً الإفلات منها، وباشر القراءة من سورة سبأ. أنصتت إليه جدّتي ولم يرتجف منها شيءٌ سوى سبابتها اليمنى. بعد فراغه سألها إن كانت حفظت شيئاً مما تلاه فقالت إنها كانت تفكّر في ابنته هدى. نظرَتْ إليّ وسألتني بلهجة حاسمة: أخطبها لك؟ القروي الذي كنته آنذاك أصابه ما أصاب شمس الدين حين سألَتْه جدتي إن كان يعرف كلّ شيء عن زوجته. بدأت جدّتي تهذي حول هدى شمس الدين، ثم أمسكت بيد والد الفتاة متوسّلة: "زوّجها للغريب يعزها". وغمغمت بكلمات عويصة عن قفاها حين تمشي، وخشيتُ أنا إن هي واصلت الحديث أن يلقي بنا شمس الدين من النافذة.

لم يكن شمس الدين بالرجل الذي ستغلبه عجوز قروية أدركها أرذل العُمر. كان صوته المبجّل قادراً على هزيمة أقوى العواصف. وفوق هذا فقد كان مزوّداً بالله وبمقدوره أن يقول للدجاجة الميتة قومي، وللجبال الساكنة أوّبي معي، وللتلال اخرجي. غير أنه، وهذا أصدقُ ما يمكن أن يُقال، لم يكن يدري كيف تبدو المرأة من قفاها.

ذلك ما فهمته بحدسي.

ولا يعلمُ سوى العليّ القدير فيمَ كنّا نفكّر تلك الساعةَ، شمس الدين الأب وأنا.

19

أيامٌ سبعةٌ مرّت.

في دار شمس الدين يتمهّل الزمن، ويكتسب كلّ شيء معنى إلى معناه.

وقفت نساء شمس الدين خلف شبابيك الدور الثاني مودّعات ولم نرَ سوى خيالهنّ. أمسكت جدّتي بحافة النافذة وأطلقت زفرة بطيئة. حاولتْ جرّ ابتسامة إلى شفتيها فتعثرت بشفتها السفلى. أمّا شمس الدين الأب فبقي في مجلسه في الأعلى، ربما كان يحدق في الفراغ الذي تركته جدّتي. يتأمّل في كلماتها التي غلبت كلماته. لو أنّ السيّدة المبجّلة دُرّة تقف الآن أمامه وتخبره: أردنا أن نخطفها بقصص أحباب الله فأخذتنا بقصصها عن القحاب والجنّ. وهل تجرؤ دُرّة؟

كان شمس الدين الابن قد أخبرني، قبل أن آتي بجدتي، أن والده سيقرأ عليها من السرّ الذي حارت فيه العقول. غير أنّ جدّتي جلست هناك وقرأت على نسائه من أسرارها التي حارت منها الأفئدة.

هرعت إلينا امرأة من ضيوف السيدة دُرّة حاملة المصحف. قالت إنّه مصحف شمس الدين. قبّلته وناولتني إياه من نافذة سيارة العمّ غانم. قالت لاهثة: عطّرنا سورة تبارك من عطر الشيخ، اقرؤوها كلّ ليلة.

عطر عنبر. كدنا نفقد عقولنا من هول الرائحة، وقالت جدّتي: ما لهذا الكتاب إلّا الحاج. كانت تجلس في المقدمة إلى جوار ابنها، وكنت أجلس في الخلف مع اثنتين من عمّاتي جاء بهما غانم لإعادة الحاجّة. في الطريق نظر العمّ غانم في المرآة التي فوق رأسه وغمغم متسائلاً:

"توكّلنا على الله؟".

قال صوتٌ واهن من الخلف:

"توكّلنا على الله".

قالت جدتي:

"باسمِ الله".

كان صوتها باهتاً بعض الشيء. هل طرأ شيء على صوتها، ساءلت نفسي ونظرت إلى المرآة فوق رأس العمّ غانم فرأيته يرفع أحد حاجبيه ولم أرَ الحاجب الآخر. تجلس جدّتي الآن في سيارة العمّ غانم، وبعد ما يداني ثلثي الساعة بان أوّل منازل القرية. هُناك خلعت جدّتي نعال ابنها وألقتها من النافذة.

"نعال أفسدتها المدينة"

قالت وعيناها تجريان وراء النعل الثاني.

كانت الشمس في طريقها إلى وكرها. جدّتي تحاول أن تنظر فيها مباشرة. أسألها، لأشتّت تركيزها:

"أين تذهب الشمس إذا جاء الليل يا جدتي؟".

أجابت وهي تمسك بحافة النافذة:

"قُدرته. سبحانه".

يمتدّ الوادي مثل سجّادة خضراءَ بين جبلين، ولو أنه وادٍ في بلاد أخرى لكان له شأنٌ آخر. هذا ما نقوله منذ سنين طويلة، وحين نفكّر في ذلك الشأن الآخر لا نجد مقترحات تفيد الوادي. بعض الشبّان الأحدث سنّاً يظنّون أن الوادي نال كلّ ما يريده من الطبيعة، عدا جنّي السوق. لو استطعنا إخراجه، قالوا، سيصير وادينا جنّة.

مضت السيارة في طريق ترابي بين الحقول وكان الصمت قد نزل علينا منذ أن قالت جدّتي "قُدْرته". لو نزل سيل العروس الليلة لقطع الوادي إلى ضفتين، ولكان علينا أن ننتظر في سيارتنا حتى الصباح. يهبّ سيل العروس من جبال بعيدة لم يبلغها أحد، ويأتي مرّة أو مرّتين في الصيف. توقّعت أن تقول جدّتي عن سيل العروس شيئاً، غير أنّها تلهّت بمشاهدة الشمس.

لم تسمح لنا بمساعدتها وهي تنزل من السيارة ولا وهي تصعد درج الدار. كان أطفال القرية قد تجمّعوا، وكذلك بعض السيدات، لمشاهدة الحاجة التي ذهبت لتلقّي العلاج لأسبوع من الزمن. وقفت جدتي بجوار السيارة وكانت تغطّي رأسها بالأبيض، كلّ ما عليها أبيض. الضوء القادم من المغيب جعلها تبدو مثل فانوس، ومن نوافذ الدار والمنازل المجاورة برزت رؤوسٌ وأذرعٌ وخرجت همهمات. لم تعطِ جدّتي يدها لأحد، راحت تدور حول السيارة إلى أن توقفت ثم أعطتني كفّها ومضينا. تجرأتُ وهمستُ إليها قائلاً إن العيون تحيط بنا من كل جانب فقالت: "فضلٌ من الله".

فكّرت في العيون كيف يمكن أن تكون فضلاً من الله، في الوشاة والمتشفّين، في الحزانى والمتعاطفين، في الوجلين فاقدي

الحيلة، في كل أولئك بحسبانهم نعيماً.

مضينا الهوينى. قالت كأنها سمعَتْ ما أفكر فيه: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ}. هل تطيّر أحدٌ بمرضها؟

كان الصيف الماضي جافّاً، مات نصف الذرة الشامية في أكوازه، وحذّر كبارُ السن من الجراد في الموسم القادم. فإذا ماتت الذرة في أكوازها جاء الجراد من البحر، وإن تعفّنت في المخازن فإن الوادي سيقع في قبضة جراد الجبل. ما من شيء كان قد تغيّر آنذاك سوى مرض جدّتي الذي ذاع صيته في الوادي. وبالرغم من أنها لم تفشِ سوى سرّ واحد، ذلك المتعلّق بزوجة علي الراعي، فإنّ أسراراً أخرى راحت تجري من فمٍ إلى آخرَ قادمة من بيت جدّتي.

طرد جدّي الخدم الثلاثة الذين كانوا يعملون في أرضه وينامون في بيت صغير جوار داره. غير أنّ القصص أخذت تدور وتتوالد، وكان بعضها مقنِعاً وسخيّاً في تفاصيله. وكما يجري دائماً فقد سمع الرجال القصص المتعلقة بكل النساء عدا زوجاتهم. عرفتُ أن وفداً من الرجال المحترمين زاروا جدّي، ونحن لا نزال في بيت الشيخ شمس الدين، تحدثوا معه بأصوات خفيضة عمّا روته جدتي من قصص وحكايات أصابتهم جميعاً في مقتل. انتفض جدّي غاضباً وكان يزأر كوحش، فقد أهانوه أبلغ الإهانة حين حدّثوه عن زوجته كسفيهة. ربما تنبّهوا لخطئهم، ولكن لأن الحديث كان متعلقاً بمخادع النساء فإن أحداً منهم لم يجرؤ على التصعيد. ثم هدأ النقاش بعض الشيء واتفقوا على اتهام أهل الجبل. منذ الأزل

يستهدف الجبليون السكينة والسلام بين الفلاحين المتآخين في الوادي.

حين جرى ذلك النقاش كان جدّي جالساً على حافة سريره.

واصلَت القصص تدفّقها وضربت الاتّجاهات كلّها وبلغت أكثر المخادع منعةً وأمناً حتى كاد الوادي يتصدّع. عادت جدّتي في ظروف مشحونة بالتوتر، ولم تكن تلك الليلة كافيةً لأسمع من عمّاتي كلّ ما دار في الوادي خلال سبعة أيام. كان العمّ غانم مستلقياً في الطرف الآخر من الديوان، وهو صرحٌ متعدد النوافذ ويحيط بالشمس من كل جانب. كان ينتفض أحياناً ويصرخ في عمّاتي بأن يتوقفن عن الهُراء، ولكنهنّ واصلن الحديث بأصوات خفيضة، وأعينهنّ مثل أعين القطط.

– والعمل؟

سألتهنّ.

– سيكتري عمّك بيتاً في تعز، وسيخرج جدّك إلى العُمرة مع خمسة رجال من الوادي. سيعود من الكعبة إلى تعز.

– سيترك جدّي الوادي؟

– الله أعلم.

نامت جدّتي في غرفة جدّي، نامت فوق فراش مبسوط على الأرض ونام هو على سريره. تشاغل طوال الليل بتوليف الراديو ولم يستمع إلى برنامج "نور على الدرب" لسوى بضع دقائق. سرعان ما غيّر الموجة. كان يشاغل نفسه بالضجة، يدير عجلة الراديو كرسول هجره الوحي. كانت أصغر عماتي تتسلّل على أطراف

أصابعها حتى تقف خلف الباب وتتسمّع. ما من أصوات سوى موجات الراديو، يتنقل جدّي من موجة إلى أخرى. تناديه جدّتي مرّةً أو مرّتين: "وا حاج، وا حاج" ولا يكترث لها.

جاء النوم من الجبال ونزل على أعيننا قبل الفجر، وكنت آخر من غلبه النعاس. استيقظت حركة في الدار، خرجتُ من المفرج فرأيت جدّتي عائدة من الـمُستراح. سألتها لماذا لم تنامي؟ فقالت إنها استيقظت للصلاة. أخذتُها إلى مكان في الديوان وصليتُ بها إماماً. وقفت إلى يميني، ثم تحوّلت إلى يساري، وسلّمت قبلي.

في غبش الفجر رأيت نوراً على خدّيها. نور امرأة قدمَت من مكان بهيج.

20

توالَتِ الأيّام، واقترب العامُ الدراسيّ من نهايته.

كلّ شيء يمضي في سبيله، حتى الشرعبي وأنا. عدت إلى الغرفة المعلّقة. جلس فاروق الشرعبي على فراشه واستمع إلى ما كنتُ أقوله. آخر المطاف قال، وهو يتحاشى دمعة، سأفعل شيئاً لأجلك. من الجيّد أن الشيء سيكون لأجلي، فما من أحد كان قادراً على أن يفعل شيئاً من أجل جدّتي. وما إن حلّ الفجر حتى سمعتُ الشرعبي يؤدّي الأذان الأول على مقام الصّبا. كان غارقاً في الحزن، عميقاً، مؤسفاً، سمعته جدّتي وهي أبعد ما تكون.

قال الحاج علي، بعد صلاة الظهر، إن الشرعبي أيقظ كلّ آلامه دفعةً واحدة. وتهامس الناس في الحيّ، كلّ الناس لكلّ الناس، عن مكان المقبرة. سكّان الحيّ قرويون، وحين يموت واحدٌ منهم يأتي أقرباؤهم من القرية ويحملونه إلى مثواه البعيد. لم يفكّروا قطّ في إنشاء مقبرة للحي.

الآن بلى.

قال الحاج عليّ إن مقام الصّبا آخى بينهم، وأنهم لذلك أنشؤوا مقبرة تضمهم.

مضيت مع الطلبة حتى اقتربتُ من السور ثم قصدت كفتيريا البعداني. استقبلني بكل بشاشة، احتضنني كأني عدتُ من سبيل الله. سألني عن جدّتي، قلتُ إنها بخير. قال الحمدُ لله على كلّ حال. فهِمتُ أنه لم يصدّقني. رأيت بعض الطلبة في الكفتيريا،

ربما كانوا مثلي. ألقى عليهم عبد الله سؤالاً في المواريث فمازحه أحدهم، قال له إنه لا يهتمّ لأن والده باع كل الأرض التي ورثها من الجدّ.

تجاهلهم عبد الله، كان يريد أن يصرفهم عنه فحسب. همس وهو يقدّم لي الزلابية والشاي بالحليب:

"الصّفة الرابعة إكرامُ المسلمين وحبّهم".

تذوّقت الزلابية، كانت مختلفة بعض الشيء. عاد عبد الله وأعطاني قرصاً آخر، قال تذوّق هذه، هذه معجونة بالبيض والحليب. قال إن الزلابية تغير شكلها إذا ما عُجنت بالبيض والحليب. يتغيّر طعمها إذا تغيّر شكلها؟ سألته. فقال: مرّات ومرّات.

اتفقنا على أن نصلّيَ العِشاء معاً في مسجد النور.

صلّيت إلى جواره. بعد الصلاة تقاربنا على شكل دائرة، كنّا في حدود العشرة وكنتُ الأصغر. سمعنا شيئاً عن الله من أحدهم. نسيتُ اسمه، كان حزيناً وسعيداً في الآن نفسه. قال إن الله لم يعد ينزل إلى السّماء الدنيا كما كان يفعل، وذلك هو النبأ السيّئ الذي عرفه بمحض الصدفة. ثم طلب إلينا أن نتقارب أكثر ففعلنا حتى كدنا نخنقه. قال إنه رأى النبي في المنام، كان ماضياً وتحت إبطه كتاب **رياض الصالحين**. فلما رآني، قال الأخ، توقف وفتح الكتاب وقرأ:

"المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته".

من يعرف منكم رجلاً ذا حاجة؟ سأل، ولم يجد جواباً. لكزني عبد الله بكوعه وأربكني. رأى الأخ لكْزة عبد الله ثم هبّ واقفاً وقال:

”لنمضِ في حاجة أخينا هذا، فوالله إني لأرى الكربة على جبينه“.

أخذوا مني وعداً بأن أصحبهم لزيارة جدّتي قبل الجمعة المقبلة. وكنتُ أعلم أن ذلك لو حدث فكأنّي أطلقت عشْرَ رصاصات على صدر جدّي.

في المدرسة، في اليوم التالي، جلستُ في الصفوف الأخيرة. سألني المعلّمون عن سبب غيابي وكنتُ أجيبهم: جدّتي مريضة وتريدني إلى جوارها. تعاطفوا مع عذري عدا معلّم الفيزياء الذي ضحك. أحببتُ ضحكته، وأحببت أكثر وقاحتَه. الأستاذ بُحيرى أشار إليّ بعد الحصّة الدراسية. لحقته. وقفنا تحت شجرة الرضوان، وهي شجرة كبيرة عند ركن في المدرسة. دعاني لزيارته بعد صلاة المغرب. قال: ربما نساعدك في شيء. هل غيّر بُحيرى مواعيد دروسه؟ مساء ذلك اليوم حضرتُ درساً في علم الرجال، سمعت بُحيرى يقول إن دار ابن لهيعة احترقت سنة ١٧٠ هجريّة، وإن الحريق أتى على كتبه. تعاطفتُ مع ابن لهيعة، فقيه مصر. تخيّلته. استطعتُ تخيّل داره، النار تشبّ فيها والرجل ينجو. قال بُحيرى: بعد احتراق داره صار رجلاً ضعيف الحديث.

آه منك يا بُحيرى. لو كنتَ معنا بالأمس في مسجد النور، لو جلست على مقعدتك وزحفت مثلنا، كنّا سنمضي معاً في حاجة أخينا ابن لهيعة.

قال لي بعد الدرس إنه سيأتي لزيارة جدّتي قبل الجمعة المقبلة. وضع يدَيه على كتفي وحدّق في فراغ عيني ولا يبدو أنه رأى شيئاً. أنا القروي الذي قالت له أمّه إذا دخلت المدينة فلا تقل لا لأيّ شيء، وإلّا اكتشفوا أنك من القرية. وإذا فعلوا ذلك فسوف يسألونك عن اسمها، وإذا قلْتَ اسمَها فضحوك. ولو فضحوك فلن تصير طبيباً ولو لحست طين الأرض.

لا تقل اسم قريتك لأحد.

أجبت الأستاذ بُحيرى بحركة من رأسي وامتلأت عيناي بالدمع فضمّني إليه وهو يغمغم لعلّ الله يجعل بعد ذلك يُسراً. كان ممتلئاً، لحيته كثيفة ومهندمة، عطره عميق، عمامته البيضاء لا تغير شكلها في قيام ولا قعود. عندما احتضنني نسيت كلّ شؤون الدنيا وتذكرت أمراً واحداً: الله.

– هل اتّخذْتَ لك كنية؟

– أبو حرب

– الله ما أحيلاها من كُنية.

أصبحتُ، حين انتصف الأسبوع، تائهاً. ها أنذا أطلق عشْرَ رصاصات أخرى على صدر جدّي. فاروق الشرعبي يحاول مساعدتي. أذّن مجدّداً على مقام الصّبا، هذه المرّة سمعه جدّي وهو أبعد ما يكون. قال الحاج علي، بعد صلاة العِشاء، إنه رأى في منامه أن القمر دخل في الثريا.

ما كان بمقدوري أن أعاتب الشرعبي على الأذان بمقام الصبا. كان يفعل ذلك عن حبّ. كأن الحيّ عرف قصّة جدّتي. قال

الشرعبي حازماً إنه سيأتي معي لزيارتها قبل الجمعة المقبلة. فيما لو وقف الشرعبي أمام جدّتي ولمحه زوجُها، فكأنني وضعت قنبلة في عِمامة الجدّ.

مساء الثلاثاء، عند حدود الرابعة والنصف، قُرع باب الغرفة. ظننته فاروق الشرعبي. أصوات مختلطة أمام الباب. الأخ يونس، الأستاذ نبيل، المعلّم منيف، وعرفات صاحب الراء الزهرانية. ارتبكتُ، كنتُ ألبس معوزاً، للتو انتهيت من الاستمناء بيدي اليسرى. كنت كلّما اكتربت استمنيتُ، وكلما شعرت بأن الله قد صرف وجهه عني عبثت بالشيء إلى أن يقوم من مقامه.

فتحتُ النافذة ورحت أهشّ الهواء بقميصي. يعرف الأخ يونس رائحة الشيء، قال لي من قبل إن هذه الغرفة تحتفظ برائحته لسبع ليالٍ. أردت أن أتجشأ أو أضرط، أن أفعل شيئاً يغيّر تلك الرائحة. غسلتُ يدي على حافة النافذة، جعلت الماء ينزل إلى الخارج.

كان الأخ يونس يضحك وهم يضحكون معه. ميزّت أصواتهم. إذاً هو يونس، جاء الأخ يونس، عاد يونس. يتحدثون عنّي؟ لا أدري. وزّعْتُ الكتبَ حول فراشي، ازدادت النقرات على الباب. بحثت عن الكلسون، كأن الجدران ابتلعته. أضعه في العادة تحت رأسي عند الاستمناء. يا لها من كلمة فارغة من الجلال.

حين رأوني هبّوا لاحتضاني، توقّفوا فجأة عن الضحك وصارت وجوههم جامدة وحزينة. كان تعاطفهم حقيقياً ووجدتُ أن صدورهم ضحلة بعض الشيء. راعني الأمر، أظن أني توجّست. غير أن صدر

الأستاذ نبيل كان عميقاً ليس له قرار، وكانت له رائحة لا تصدر عن رجل. من الأرجح أنهم لم يشمّوا شيئاً في الغرفة. كان فاروق الشرعبي قد أكّد لي من قبل أن للخطايا رائحةً، ولولا وقوعُنا جميعاً في الخطيئة لشمّ بعضنا رائحة بعض. كلّهم يرهّطون إذاً، البشرية كلها تستمني. الله أكبر. في الحضن. اشتقت إليكم أيها السفلة.

أطلقوا عشْرَ رصاصات على صدري دفعة واحدة، قالوا إنهم سيصحبونني لزيارة جدّتي مساء الجمعة المقبلة. كلّهم قالوا. ليس بمقدوري أن أقول لا أمام رجال أربعة من مدينة واحدة. لا أملك عذراً، سيتجمّد الدم في شرايين جدّي على آخر الأسبوع. إلهي. انكشف أمر الحاج جدّي، عرفت البشرية بقصّة زوجته، والسبب حفيده الساذج الجبان. هلكتُ وربّ الكعبة.

جدّي لا يموت. من يعرف جدّي يعلمُ ذلك عنه. سترتدّ كل الرصاصات إلى صدري. قد يوكل أمري لأبي. وأبي سيفي بوعيده أخيراً وسيأخذني إلى جبل بعيد.

كيف أنجو؟ سألتُ شمس الدين الابن صباح الأربعاء.

فتح فمه وترك عينيه تدوران. وإذ ذاك فقط أدركت أن أسنانه ليست كأسنان المشط.

– اعتذرْ منهم.

– أعتذرُ منهم؟

– نعم، اعتذرْ منهم كلّهم. قل لهم إن جدّك رفض الزيارة بسبب سوء حالة زوجته.

– وعدتُ الرّجال. لا يمكنني أن أخلف الوعد.

– وعدت من؟ أنت وعدت البشرية كلّها.
– ما العملُ الآن؟
– اعتذرْ منهم، لا تكن أبلهَ.
– أعتذرُ ممّن؟ من الأستاذ نبيل وأصحابه؟ من الأخ البعداني وجماعته؟ من الشيخ بُحيرى وتلاميذه؟ من الأخ الشرعبي؟ أنتَ لا تفهم شيئاً.
– هذه عصيدتك، تدبّرها برجولة وحسم.
– صدّقني أنت لا تفهم شيئاً.
– صدّقني أنا أفهم كلّ شيء يخصّك.
– مثل؟
– كلّ شيء.
– تفهم أو تعرف؟
– أفهم لأني أعرف.
حدّقت فيه، لكنه صرف عينيه إلى ساحة المدرسة. بضعة تلاميذ يركلون الكرة على نحو عشوائي. كرة حمراء، ولم أكن قد رأيت كرةً حمراءَ من قبل. غمغم شمس الدين: تدور بلا قرار.
ماذا تقصد؟ سألته.
قال: الكرة.
في ذلك النهار تجلّى الله إلى السماء الدنيا، وقال بصوته الرائع:
هل من سائل فأعطيه؟
تركتُ المدرسة خلف ظهري، وهربتُ إلى جبل صبر.

واصلتُ الصعود مشياً على الأقدام. وقبل ختام النهار كنتُ قد بلغت أعلى مكان فيه. ومن هناك رأيت الدنيا كلّها. كانت مبسوطة، ضعيفة، جائعة، حائرة تحت سماء الله. لو صفعها ملاك بجناحه لقلبها رأساً على عقب.

رأيتُ الملائكة يصعدون ويهبطون، سمعتُ ضحكهم، كانوا يتندرون من ضعف البشر ومن أسرار الأغنياء. رأيت الشياطين، كانوا يتبادلون التحايا مع الملائكة، كلٌ ذاهبٌ إلى عمله أو عائدٌ منه.

رأيتُ أرواح الحيوانات تصعد إلى السماء، تحملها ملائكة صغار. سمعتُ هدير أرواح نازلة من السماء، أرواح بلا أسماء، يلقيها الله من عليائه فتأخذها الملائكة وتوزّعها على الأرض.

رأيت الجنّ ذاهبة إلى الحروب، تلمّ غبارها ثم تصعد به إلى النجوم. رأيت نجماً يضرب شيطاناً في قفاه. رأيت نعاجاً عملاقة، كلّ نعجة تحمل على ظهرها قمراً. رأيت بدواً سماويين يسوقون مواشيهم بين النجوم، وأبصرتُ الشجرة التي يستلقي تحتها الملائكة.

رأيت الدنيا تدور، نجوماً تولد وأخرى تقوم قيامتها. سمعتُ نشيد الكون. سمعتُ صوتاً غليظاً يصيح بالكون:

بارود، بارود، بارود.

وعرفتُ سر السّيل، سيل العروس الذي يدخل الوادي مرّةً أو مرّتين في العام.

قلتُ: يا ربّ.

ولم أجرؤ على قول المزيد.

نسيت كلّ ما سمعته في المدينة عن الله. من هناك، من الأعلى، رأيته شديد الشبه بالذي تصفه أمي، بإله القرية الذي يتجلّى بين العيدين، وعند الحزن والمطر واكتمال البدر.

قلتُ يا ربّ، مجدّداً.

كان العالم يدور حول نفسه تحت الشجرة الرهيبة. رأيت اسماً منقوشاً على تلك الشجرة. في ذلك المكان العالي ناديت بأعلى صوتي:

دِينا!!!!!.

لهجتُ للمرّة الثالثة:

يا ربّ.

ورأيت روح جدّتي في نعال غانم صاعدة إلى الأعالي، يحملها اثنا عشرَ ملكاً، وعشرة من الجنّ. وكانوا كلّما صعدوا طبقة من طبقات العالم العالي ركض خلفهم البدو، بدو تلك السماء، وأنشدوا.

سمعتُ أصواتاً تنادي: افتحوا لها، افتحوا لها.

تربّعَت جدّتي على الأكتاف، من سماء إلى سماء وهي تقصُّ على الملائكة ما فعلَتْه زوجةُ علي الراعي بفِلذة كبدها.

حول الكتاب

نبذة

كان الطريقُ إلى الله في قريته واحداً، حتّى سكَنَ في المدينة طلباً للدّراسة.

هناك وجد خمسة طرق تؤدّي إلى الله، فقرّر أن يسلكها جميعها.

تمرّ الأيّام ويتلقّى نبأ مرض جدّته، فيترك الدّراسة بحثاً عن علاج لها.

بعد فشل كلّ محاولات الأطبّاء ورجال الدّين، يبقى له أملٌ أخير:

منزلُ شيخ المتصوّفة في المدينة.

رواية تستعيد حقبة التّسعينيات في اليمن، حين كانت البلاد كلُّها مشدودة... كأنّها على وتر.

عن المؤلف

مروان الغفوري شاعر وروائيّ يمنيّ وطبيب قلب وباحث في تاريخ الحضارة الإسلاميّة. صدرت له مجموعة من الأعمال الأدبيّة في الشعر والرّواية ونُشرت مقالاته في عدد من الصّحف العربيّة.